عبد الكريم عيد الحشاش

أرض القمر

رواية

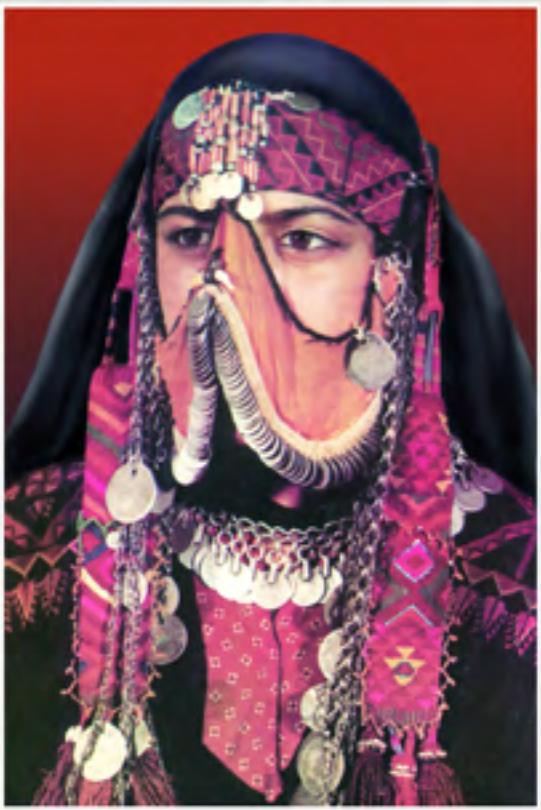

أرض القمر

رواية

عبد الكريم عيد الحشاش

الكتاب: **أرض القمر**
الكاتب: **عبد الكريم عيد الحشاش**

الطبعة الأولى: ٢٠٠٠

الناشر: مكتبة الأقصى

Phone: 963 11 6313261
P.O.Box: 13497/ Damascus
E-mail:abdhash@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة

تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

(١)

اغتنم حامد فرصة هبوب ريح خفيفة تحركت بعد الزوال، قفز إلى الجرن إذ كان يجلس في الخصّ على ركبة ونصف مراقباً للريح، كمن نصب فخّاً وينتظر أن ينطبق على عصفور يعبث بالدودة، غرز المذراة في الدريس وشرعها إلى أعلى، فسرّ من النتيجة، لحق به أخوه تامر، وأخذا يتعاوران التذرية، وقد مضى لهما يومان وهما يحاولان فصل الحبّ عن التبن، ولكنّ الريح لم تكن مواتية أحياناً تشتدّ فتبعد التبن، وتطيّره بعيداً، رغم أنهم نصبوا صيرتين من الحطب على بعد أمتار من الجرن لحجز التبن الناعم المتطاير، فأحياناً تخمد أو تحور في اتجاهات عدّة، وإذا ما استقامت الريح على هذا المنوال فإنهما اليوم سينجزان المهمة، وينتقلان غداً إلى جرن تامر الذي ما زالت الإبل تدرسه، ونشطت النسوة فأخذت واحدة منهن تمرح القصل عن الحبّ بحطبة، بينما انصرفت الأخريات إلى غربلة محيط الجرن، وضع حامد حطبة خضراء على قمة صليبة الحبّ التي بدت صفراء لامعة، وشرع بالحداء وهو يذرّي:

ريح البارح جانا سارح يا ابراهيم

ريح اليوم جانا عوم يا ابراهيم

وتامر يردّد وراءه بصوت خفيض حييّ، محاذراً أن تخمد الريح، أو يتغيّر اتجاهها، ويغيّر حامد اللحن بحداء متسارع:

يا مذراتي ودّي وهاتي دبّي عباتي لاوليداتي

ثمّ نظر إلى الشمس، وغرز مذراته في الصليبة، واتّجه إلى شجرة السدر الظليلة ليصلي العصر، وما أن أنهى صلاته حتى وصل نصر الغوانمة، ومعه ابنه عودة يرافقهما عادل قريب حامد، طرح نصر السلام وأضاف: البركة عندكم. فأجاب حامد: حلّت علينا البركة، عندنا وعندكم الخير. قال عادل: الله يعطيكم العافية. فردّ تامر: والقايل عمره طايل. كانت عمامة حامد مجلّلة بالطّيّور الناعم ولصقت ذرّات من التبن على ذراعيه وجفنيه، قدم تامر وسلّم على الضيوف، فقال حامد: هيّا إلى الديوان لنشرب القهوة، ردّ

نصر: إن طابت ريحك ذرٌّ على لحية صاحبك، نحن جينا لنعاونكم. قام الجميع وتكاتفت الأيدي على العمل في التذرية وجول القصل ودقّ القزمل، ثمّ أُحضرت الأكياس، وأخذ حامد يكيل الحبّ بوعاء نحاسي ويعدّ: الله واحد، ما له ثان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سمحة ثمان يا الله الأمان، تسعد يا من تصلّي على النبي، عشرة رسول الله. وكان يضع الكيلة الأخيرة في كيس منفرد ؛ لأنه يريد إخراج عشر الخليل، ليوزعه على الفقراء، وإذا مرّ عليه غلام أو فتاة ينادي: تعال خذ لك شريّة. يعطيه كيلة حبّ. وبنادي: تعالي خذي لك قليّة. ويضع لها كيلة في طرف قناعها، وغربلت النسوة محلّ الصليبة، ولم تغب الشمس إلا وقد عبؤوا الحبّ في الأكياس وأخرجوا عشره صدقة، ثمّ توجهوا إلى خصّ الديوان، واحتسوا القهوة، وتناولوا العشاء، فقال حامد: يا جماعة الخير من يعمل ويتعب يأكل كثيراً، فعلّق نصر: أما سمعت، أكل الرجال على قدر أفعالها. وبعد أن تسامروا في مواضيع شتّى، تنحنح نصر وقال: الله يمسّيك بالخير يا حامد. فقال: الله يمسّيك بالخير والسعادة. أضاف نصر: والله يا أبا صبح، نحن أتينا طالبين القرب منك.قال حامد: حيّاكم الله. قال نصر: نريد ابنتك نصرة إلى ولدي عودة. أجاب:أهلاً وسهلاً. ثمّ صمت قليلاً، وأضاف: لكم علينا طلّة خير. شكره نصر، واستأذنوا للانصراف، فقال حامد: ناموا عندنا الليلة. فقال نصر: نريد أن نكسب المشي في طراوة الليل، وغداً عندنا شغل، خلف الله عليكم. أمّا عادل فقال: سأبقى هنا لأعاون أعمامي في التذرية.قال حامد: رافقتكم السلامة والرشد فالكم. فقال نصر: فالنا وفالكم.

بعد أيام عاد نصر وولده عودة إلى ديوان حامد، في غضون ذلك شاور حامد أهل بيته وأقاربه، قال نصر: أنت وعدتنا وه نحن حضرنا، إن شاء الله ما تردنا خايبين. قصل حامد عرقاً أخضر من حطبة العاذر، ووضعه في عقال عودة وقال: هذه قصلة البنت، أعطيتك إياها لمّا أراد الله. قال نصر: بارك الله فيك، وكثّر خيرك كم مهرها ؟ قال حامد: المهر عشرة جنيهات. قال نصر: قلٌّ وذلٌّ. وأخرج من محفظته الجنيهات وعدّها، ثمّ قرؤوا الفاتحة، فقال حامد: مبروكة، إن شاء الله يكون قدمها أخضر عليكم.

عاد عودة إلى بيته، وحين شاهدت أخته القصلة الخضراء في عقاله عن بعد

قابلته بالزغاريد، فجاوبتها جاراتها من البيوت المجاورة، وغنّت الصبايا، وروّدت العجائز، وشرع عودة في بناء برزة قرب بيت أهله، وجهزها بما يلزم من أغطية وأدوات، ذهب شاهين وأمه وجاره سلاّم مع بداية الشهر القمري إلى المسرح لإحضار العروس الراتعة بغنمها مع رفيقتها، اقتربت منها المرأة وتعرّفت إليها، وغطّتها بالعباءة، فأيقنت نصرة أنها زُفّت، ولم تُبلّغ بالموعد مسبقاً، فقاومت محاولةً التخلّص من قبضة المرأة والهروب، ولكنّ المرأة أحكمت قبضتها عليها، برّك شاهين الجمل وأردفها سلاّم خلفه، فألقت عصاها، وتناولتها رفيقتها التي كانت على مقربة منها، وسال دمعها حين سمعت صرخة نصرة، وضمّت أغنامها إلى قطيعها، وعادت بها إلى البيوت، أما شاهين فانطلق بالعروس، وظلت المرأة تباري الجمل وسلاّم يسوقه، فلاقتهم النساء بالزغاريد والغناء، وذبحت الذبائح، وانتظم السامر ليلاً، وأراد نصر أن يفي بنذره، ويغني في عرس ابنه عودة، فأنشد:

بلاد جاها المطر وبلاد ما جاها بلاد جاها كحيل العين وارواها

أمّا صابر الذي كانت له رغبة مكبوتة في خطبة نصرة، فقال مكنّياً:

أنا وإياكِ يا غيثة والمولى كاتب شقانا

وردنا على البير الطويل دلّينا ما طال رشانا

يا دمع عيني تبعثر لمّا روّحنا بظمانا

فخنقته العبرة، ولم يستطع تكملة قصيدته، وانسحب من اللعب.

مكثت نصرة عند زوجها أسبوعاً، ثمّ أتى بها لتطلّ على أهلها، وبعد ثلاثة أيام عاد مع أخيه ليأخذها، تصادف قدومهما مع وجود صاحباتها عندها، فقالت إحداهن: من منهما زوجك يا نصرة ؟ فنظرت نصرة من خرم في الرواق وضحكت: والله لا أدري أيّهما زوجي لأنني لم أنظر إليه بعد نظر المدقق. فقالت أمّها: لا تعجبن من ذلك، تزوّج رجل امرأة، ولم تفطن إلى أنّ على عينه اليسرى رشقة إلاّ بعد أن أنجبت طفلها الرابع، فالمرأة تخجل من النظر إلى وجه زوجها، ولا تفرّع أمامه. فأجابت إحداهن: يبدو أنّ جيلكن كان خجلاً أكثر يا خالة.

عاد عودة بزوجته مساء ذلك اليوم إلى بيته، وفي الصباح ناداه عادل من

الديوان ليستشيره في الذهاب إلى الشمال للعمل، أحضر عودة معه إبريق ماء، وبمجرد أن وضعه على الأرض انسكب على طرف ثوبه، فصاح عادل: دونك الماء. فأمسك بالإبريق، طمأنه على الأرض، فأضاف عادل: عليك رشّ الماء ! اعترض عودة: لا، أبداً. فقال عادل: لا تعقبني، قم ورشّ على رأسك إبريق ماء، كما فعل صبح، سمعته أمس يوحوح خلف الشجرة، وهو يسكب الماء على رأسه ، فيشرد من برودته، وأعتبر أنه قد تطهّر من الجنابة، فلو تيمّم لكان أفضل له. ابتسم عودة ولم يعلّق، وغيّر مجرى الحديث .

غدت نصرة مدلّلة، ومحببّة إلى زوجها، يوفر لها سبل السعادة ؛ مما أثار حفيظة أخته سلمى وغيرتها، فامتلأ قلبها حقداً وكرهاً لهذه المرأة التي حلّت بساحتهم، واستأثرت بحبّ أخيها، بل وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك، حيث طلب عودة من أخته خدمة زوجته، خصوصاً بعد أن ظهرت عليها بوادر الحمل، وليس هذا أمراً مألوفاً عندهم بل ينبغي للزوجة أن تخدم زوجها وأهله، لكنّ نصرة أخذت تلقي أوامرها وتتيه كبراً، وترتب على سلمى العانس أن ترعى الأغنام، وتعدّ الطعام، وتحشّ الأشواك للإبل، وتكنس البعر، وتحضر من المسرح حزمة على رأسها، ونصرة تسير وراء السخلات والحملات الصغار لتمرنها حول البيت وما تلبث أن تعود لتنعم بالراحة فتنظم الخرز في قلائد، وتطرز البنائق لتخيط لها ثوباً جديداً، وتطلب من زوجها أن يوصلها إلى أهلها، فيستجيب لطلبها على الفور فتقضي أسابيع عندهم، وأحضر لها ذات مرّة سوارة فضّيّة وشنافاً، ويحضر لها الحناء والطيب من المدن التي يرتادها طلباً للعمل، فتفوح منها رائحة القرنفل، في حين كانت أخته تسلّك شعرها ببول النعاج لتتخلّص من الصئبان والقمل، وأقصى ما اعتاد أن يتحف أهله به عند عودته من رحلة العمل كيس من البرتقال يجلبه من بيّارات الساحل التي يعمل فيها.

عاد عودة ذات مرّة من المدينة يركب القطار برفقته يحيى أبو عادل، وعندما مرّ القطار بكثيب رمليّ لا يبعد كثيراً عن بيوتِهم، قفزا من العربة بعد أن رمى كلاهما بأغراضه أرضاً، ومن سوء الطالع أن علقت عباءة يحيى بخطفة حديدية بارزة، فجذبته لتقطع عجلات القطار كاحل قدمه اليسرى، وحاول عودة الذي قفز بسلام ربط قدم يحيى

محاولاً إيقاف النّزيف، ثمّ جرّه عن سكّة القطار، وأحضر له جَملاً من عرب مجاورين، وحمله إلى بيته.

طبخت نصرة العجوة بزيت الزيتون، وأضافت إليها حبّ الكزبرة المطحون وحفنة من البهارات، وظلت تسوطها بعصا رفيعة وهي على النار إلى أن غدت رائحتها شهيّة، ثمّ أنزلتها وصبّتها في كوز فخاريّ، وأحكمت إغلاقه، ودفنته في الأرض إلى أن تحين ولادتها، لتأكل منه وهي نفساء.

شعرت بآلام المخاض، فأرسلت في طلب أختها دولة، إذ كانت تدعو الله أن تحضر ولادتَها لتسرّر الطفل لاعتقادها بأنه يتأثر بسلوك من يسرّره، ودولة كريمة وطيّبة وصبورة، حضرت دولة فسترّت البيت، وناولتها جريدة تيمناً بِهزّ جذع النخلة، وألقمتها لقمة عجوة، وأجلستها على خرق وأكياس، أمسكتها من إبطيها، وأخذت تنفضها عدّة مرّات، وحين خفّ الطلق وضعت مغرفة خشبيّة في فمها، ودفعتها إلى الزور فتاعت، فوضعت ركبتها تحت مقعدة نصرة، فبرز جزء من رأس الطفل، فمسّدت بطنها ضاغطة إلى أسفل، وسحبت الطفل، فحرّكت دولة لسانَها في فمها مزغردة بصمت، ثمّ سرّرت الطفل وقالت: الحمد لله الذي أكرمك يا أختي بولد. ولمّا أُخبر عودة بالمولود سُرّ به وأسماه عجلان، ومكثت نصرة في بيتها أربعين يوماً لا تحرّك ساكناً، وتقوم حَماتُها سلمى على خدمتها، فحدثت مشاحنات عدّة خصوصاً في غياب عودة، وتذمّرت نصرة من تصرفات سلمى، وشعرت بأن المولود الجديد أوغر صدرها، ونقلت تذمّرها إلى أبيها، ولكنه طلب منها أن تتحلّى بالصبر، وأن تكون إيجابيّة في بيت أهل زوجها وأن تهتمّ بتربية طفلها، وأن تساير سلمى، وألاّ تكترث لصغائر الأمور، وكانت أمها تقول: يابنتي حظك ردي، عندي لا تحردي. وأوصتها: لا تلبسي الطفل ملابس جديدة، وحبذا لو ألبسته ملابس بنت، احذري عليه العين، وإن خالطت الناس افركي بصلة في أنفه أو ثوماً كي لا يشمّ رائحتهم، فتعديه أمراضهم.

عزم عودة على السفر إلى الشمال ليلحق بأصحابه الذين سبقوه طلباً للعمل حيث بدأ موسم جني البرتقال، ناولته نصرة صرّة أشيائه، وعقدت خيطاً حول معصمه كي يتذكر وصيّتها، إذ أوصته في المرّة السابقة أن يحضر لها لوازم، وعقدت طرف حطّته،

ولكنّه لم يفطن لعقدة طرف الحطّة، ولم يتذكّر الوصيّة، فقالت: ها أنا أربط هذا الخيط على معصمك كي تحضر لي سراجاً وجرساً، ولا تنس البخور، فهزّ رأسه وفتر فمه عن ابتسامة وقال: لن أنسى هذه المرّة، وأُوصيك بعجلان ووالديّ أودعتكم الله. قالت: لا يكن لك فكر، مع السلامة.

سار إلى خانيونس، وصل ديوان عوف العقاد عند المساء، وسأل عن أحد أقربائه، فأخبروه أنّ قريبه رحل من هذا المكان قبل أسبوع إلى وادي سكرير، وعزموا عليه ليبات عندهم هذه الليلة، فقابل في الديوان الشيخ عليّ العريان، وكان قد سمع عنه في الماضي ولم يقابله، ودهش حين رآه مثل ما ولدته أمّه بلا ملابس، وأخبروه أنه لا يرتدي الملابس لا في صيف ولا شتاء، هذا هو ديدنه منذ الصغر، وقد حاول أهله إرغامه على ارتداء اللباس فلم يفلحوا، وهو الآن لا يقبل أن يرى أحد أولاده عارياً، وهكذا اعتاده الناس وألفوه في الشوارع والأسواق، وأصبح لا يثير فضول أحدٍ من سكان البلدة باستثناء الغرباء الذين يشاهدونه لأول مرّة، والناس هنا يحترمونه ويجلّونه ويستشيرونه ويعجبون برأيه، ويتبرّكون به لما يتمتع به من أخلاق حميدة وزهد.

ركب عودة السيّارة إلى يافا، كان يفضّل دائماً أن يعرّج على الإسكافين الملتصقين ببعضهما ظهراً لظهر، وهما يجلسان على بساطٍ يصلحان الأحذية، ودائماً يثيران فضول المارّة، بأن يفتعلا مشاجرة، فيضرب كلٌّ منهما الآخر بمرفقيه، والناس يتحلّقون حولهما، إنهما معلمٌ من معالم يافا، ومن لم يشاهدهما كأنه لم يزر المدينة، فتساءل عودة: يا ترى، إن مات أحدهما أيموت الآخر ؟ ثمّ واصل رحلته إلى بصّة الفالق، ليعمل عند أقاربه الذين يملكون أراضي هناك، فوصل إليهم عند الغروب، وتناول عندهم العشاء مع ضيوف، وسألهم عن الأخبار فأخبروه بأنّ قلاقل قد بدأت في بعض المناطق، وهناك إشاعات تثار مفادها أنّ اليهود سيأخذون البلد، ويطردون سكّانه العرب، فتعجّب من ذلك، وقال: إنّ عربيّاً واحداً بمقدوره أن يفزع على مستعمرة كاملة، ويطرد سكّانها بالعصا، إنّ هذه الإشاعات تثير الدهشة والاستغراب، فقال خضر لجاره سعيد: دعنا نسجّل أراضينا، وندفع عنها الضرائب كي لا تصادر وتسلّم لليهود. فردّ سعيد: أنا مشغول جدّاً، عندي ألف رأس

من البقر، لا وقت عندي لحكّ رأسي. فيعلّق خضر: هذا يحتاج إلى روحات وجيّات وفتّ فلوس. فيجيبه سعيد: أنت متفرغ، باشره بنفسك ومن كانت علّته الدراهم تبرأ. فيزوم خضر ويقول: الدراهم كالمراهم. فيقول سعيد: يا سيدي، أنا الكيس وأنت إبليس، اغرف منه وبزعق كما يطيب لك. ثمّ سأل خضر أحد الضيوف الذين كانوا يعتمرون الكوفيّات البيضاء، ويخبئون أسلحة ناريّة: سمعنا أنّ اليهود يغلقون الطرق قرب مستوطناتهم، ويطلقون النار على السيّارات العربيّة. فأجاب الضيف بصوت هادئ ورتيب، كأنّه متوقّع السؤال: حدث ذلك في مناطق تل أبيب والقدس ومستوطنة ملبّس، ولكن فتحت الطرق بعد توسّط الإنجليز، وهذا لا يعني أنّهم لن يعيدوا ما حدث. واستلم الحديث ضيف آخر يبدو أنّه أسنّ من الأوّل: الانجليز أصبحوا بقدرة قادر وسطاء نزيهين ! هم الذين سلّموا البلاد والثكنات والأسلحة لليهود، كلّ الأراضي التي كانت تُسمّى بأرض الوقف أو التي استولى عليها الأتراك بحجة رفض أصحابها دفع الرسوم المستحقّة أو تباطؤوا في تقديم المجنّدين للتجييش، انتزعها الإنجليز من أهلها، وقالوا: دولة ترث دولة. ومن ثمّ أعطوها لليهود، مثل وادي الحوارث، وأرض الشفتلك، أمّا مرج بن عامر فقالوا: إنّ إقطاعيّاً كان يملك معظم هذه الأرض أيّام الأتراك قد باعها بعد انتداب الإنجليز لفلسطين، اليهود ما لهم شيء يذكر قبل دخول الإنجليز، وفي غضون ثلاثين سنة تمكّنوا عن طريقهم من الاستيلاء على مناطق واسعة، واستقدام آلاف المهجرين الجدد، أوروبا تريد أن تتخلّص من اليهود وتستخدمهم كرأس جسر للوصول إلى المياه الدافئة، وعلى مشارف قناة السويس، ونفط الخليج، ولمنع قيام دولة عربيّة موحّدة مثلما كانوا يُزيّنون هذا الأمر للشريف حسين، ثمّ نكثوا بعهودهم، ووعدوا اليهود الوعد المشؤوم من قبل أن يحتلّوا فلسطين. والتفت إلى عودة وسأل: كيف الأوضاع عندكم في الجنوب، يبدو أنّ الضيف من عرب السّبع ؟: أي، نعم، حاول اليهود وضع موطئ قدم لهم في النقب، ولكنّ تواجدهم ظلّ محدوداً، نسمع أنّهم يكرّرون الملح من البحر الميّت. وسأل ثانية: ألا يمكن تهريب السلاح من مصر ؟ قال: صحيح، هناك أناس مهنتهم تجارة السلاح، ويحضرونه من الصعيد وليبيا، ولكن بدسّ وخفية. قال خضر: يا جماعة اليهودي هذه الأيام مستشرس، ولا يُحطّ في العبّ، قابلني

تاجر يهوديّ أثناء عودتي من الجليل، وكان معي ثلاثة أباعر، وسألني أن أحمل له أكياس حبوب كان قد اشتراها، ويريد نقلها إلى المستوطنة، فحملت بضاعته بأجر زهيد، وفي الطريق كنت أقطع حبل الصمت بين فترة وأخرى فأعابثه قائلاً: ابشر، روّحتك الإبل يا خواجة. فيجيب: الله يديم الإبل وأهلها. وأعتقد أنني كرّرت العبارة السابقة عدّة مرّات، أريد أن أتسلّى وأُهوّن عليه بعد المسافة، وإذا توخّيت الحقيقة، كنت أمنّ عليه أيضاً لأنّني وجدته محتاراً في نقلها خصوصاً أنّه ليس على طريق مواصلات، فلا يحمله إلاّ بعير أو حصان، ولمّا دخلنا المستوطنة أعدت عليه: ابشر، روّحتك الإبل يا خواجة. فأجاب بنبرة لم أعهدها من قبل بملل وضجر: الله يلعن الإبل وأهلها، روّحتني فلوسي. فأدركت أنه استلعن، وآثرت السكوت، فقال سعيد: الواوي في بلاده ذيب. وأضاف أحد الحضور: لمّا كنت بعيداً عن منزله سايرك، وأخذ يتمسكن، وأنت تعيد عليه عبارتك، وكأنك تحمله مجّاناً، لعلّك زهّقته، وحين أمن واستقوى بجماعته لفظ الحصاة، وأجابك الإجابة الشافية، احمد ربّك أن اكتفى بذلك ولم يضربك. سأل خضر عودة: ألم تصادف في طريقك زهران ؟ قال: بلى وجدته عند عرب الهيشة، وأخيراً رضي أن يُختن بعد أن طهّر الشلبي ولديه، هانت عليه نفسه، فجلس أمام المزيّن، وجبع له قلفته. فتساءل أحد الحضور أكان متزوّجاً ولم يتطهّر ؟ قال: نعم، كان من الخوف يقول: أنا طهّرتني الملائكة، وُلدت مطهّراً. وأضاف عودة: مرّ زهران بأهل عرس، وإلى جانبهم رجلٌ يكوي بقرة فتصادف مرور نسوة يغنّين، وهنّ يحملن على رؤوسهن الدقيق والسكر والرز هديّة لأهل العرس، وحين رأين الرجال يبطحون البقرة، ويعصمونها بالحبال لكيّها، ظننّ أنّهم يريدون ذبحها وليمةً للعرس، فأخذن يغنّين: عاداتكم ذبح البقر يا جيراننا. فزعت زوجة صاحب العرس وخشيت أن يسمع زوجها الغناء، فيهيج ويذبح البقرة الحلوب، فلاقتهن تشوح بيدها، محاولةً منعهن من مواصلة الغناء صارخةً: يكوونها ...يكوونها. وأبشّرك بأنّ زهران أصبح لا يطفئ سيجارته. تساءل خضر: كيف كان ذلك وهو لا يدخّن ؟ أجاب عودة: صادف في طريقه إلى روبين امرأة حين قعد ليستريح في الديوان، فعرضت عليه أن تقدّم له شاياً أو قهوةً، اعتذر وقال: لا أشرب الشاي ولا القهوة. فأحضرت له تبغاً وقالت: دونك التبغ، دخّن. فأجاب: ولا أدخّن.

كانت تريده أن يتسلّى بشيء ريثما يحضر زوجها، فعجبت من أمره، وندت منها عبارة: لو ! كأنّ رأسك قرعة صمّاء في وادي الحوارث ! فضحك المجتمعون وتذكّروا القرع الذي تجلبه السيول إلى وادي الحوارث، ويظلّ ملقى فيه إلى الحول. وأضاف عودة: وشرع زهران في التدخين وشرب الشاي والقهوة، ويردّد: قتلتني تلك المرأة. فعلّق سعيد: راس بلا كيف يستاهل السيف. فقال أحد الضيوف: صدقت، رأس بلا كيف قطعه حلال.

ظلّ عادل يطبّب والده يحيى، حيث التهبت قدمه بعد حادث القطار، ولم يُجدِ نفعاً غمسها في الزيت المغليّ، ومات بعد أربعين يوماً من الحادث، وقرّر عادل أن يُطبّع بَكْرَتَهُ التي تجاوزت الرابعة، ليسافر بها إلى موسم النخيل، انتهز طراوة اللّيف باكراً ونادى زوجته ثريا: تعالي، امرطي لي من هذا اللّيف قِطعاً، وهيّئيها للفتل، كي نعدّ للبكرة رسناً وصريمة، لأنني أنوي تطبيعها.

جلست المرأة قبالته، وأخذت تمور من اللّيف قطعاً بطول الشبر، تفركها بين يديها، وتنقّيها من الأعواد الغليظة، وتطرح ما بها من قشور يابسة، تكوّم ما تجهّزه أمام عادل فأخذ يفتل القطع، يوصل الواحدة بالأخرى، وكلّما أحسّ بأنّ قطع اللّيف قد جفّت مع ارتفاع الشمس، ملأ فمه ماءً من الإبريق، ونفث على هذه القطع رذاذاً لتلين، فتصبح مطاوعةً للفتل، فيتقاطر باقي الماء على لحيته وصدره ثمّ ثنى هذا الحبل من منتصفه وفتله، والمرأة تمسك بطرفي الحبل، وتبدّل مسك الطرفين بيديها لتساعده على الفتل، فأعدّ من الحبل رسناً وصريمة وقام ليقيس الرسن على رأس البَكْرَةِ، وثبّت في الرسن قرّاصتين من الحديد ملحومتين في خَدَمَةِ المدور، ثمّ أشعل النار ووضع فيها محوراً من حديد، فلمّا احمرّ تناوله وخرم به أنف البكرة، وأدخل في هذا الخرم خيطاً مجدولاً من الشعر، عقد طرفيه يستبدله لاحقاً بحلقة من حديد، ليعصم فيها الخزام، ثمّ قدّ كيساً من منتصفه على هيئة خُرجٍ، وثبّت في الحفّة العليا لكلّ عين عروتين بواسطة حجرين صغيرين، يلفهما بطرف الكيس، ويحزمهما بحبل العروة، فما عليه الآن إلاّ أن يضع عينيّ الخرج فوق الحويّة على ظهر البكرة، يدخل العروة في أُختها المقابلة، ويضع في حلقتها شظاظاً، وإذا ما أراد أن يُنْزل الخرج عن ظهر البعير فما عليه إلاّ أن يسحب الشظاظين

من العرى، فيسقط الخرج إلى أسفل.

قاد عادل البكرة من رسنها بصعوبة، وأخذها إلى وادٍ خالٍ، ربط حطبة بطرف الرسن وحفر الأرض بيده إلى أن غاب مرفقه، ودسّ الحطبة في الحفرة، وأهال عليها التراب، وأمسك بالرسن، وهو يدّك الحفرة برجليه، وجذب الحبل بعزم فلم يتزحزح من مكانه، فأدرك أنّ هذا المربط متين، تعجز البَكَرَةُ عن خلعه فشدّ أنفها بحبل الصريمة، إلى أن دخل الحبل في الجلد، وغدت تتنفس بصعوبة بالغة، فتركها وعاد أدراجه، نظر إليها من فوق البطين المقابل، فرآها ما زالت تنظر إليه، تحاول خلع الدفينة والانعتاق من هذا المربط، حنينها لا ينقطع، وكان قد أخذ الحنين في الحسبان، فأبعدها عن بيته بحيث لا يسمع لها حنيناً من محيطه.

عاد إليها في الصباح، فوجدها ما زالت واقفة تدور حول مدورها، ولكنّه شاهد على الأرض أثر مبركها، فقال: لا بدّ أنّها هجعت في اللّيل. فكّ الصريمة فرأى أثر الحبل حول فكّيها، وحزّ جلد أنفها من أعلى، أصبحت عيناها مرهقتين رمدتين جاحظتين، استأنست بقدومه ولم تنفر منه، قدّم لها حفنة من الشعير في وعاء صغير، بعثرت بعضه وهي تحاول أن تلتهمه بسرعة، حملت الصحن بفمها ورفعته إلى أعلى وكأنّها تريد أن تأكل المعدن، أمسكه وصبّ فيه ماء فمصّته، فملأه لها ثانية فكرعته، وما زالت تطلب المزيد، ولم يرو هذا الماء غليلها، شدّ الصريمة حول أنفها وشدقيها من جديد، فحنّت بحشرجة وبحّة حين أدار ظهره، كان قدومه في الصباح قد أثار شجوها، التفت إليها وما زالت تلفّ وتدور في محاولة منها لخلع المربط، اختبأ خلف شجرة على البطين، فرآها تصوّب نظرها عليه، وجنّ جنونها حين أبصرت عن بعد قافلة تسير، وكأنّ لسان حالها يقول:

مثل الحوار الموالف واندحر مشوار

يذكر عليه اللّبن إن شاف زول أبكار

وظلّ يتردّد عليها وهي في مربطها أيّاماً، يُقنّن لها الهواء والماء والشعير، إلى أن عسفها فهزلت، وغدت كقوس الربابة من الهزال، يأتيها في اللّيل والنهار، أحياناً يلبد بقربها وهو متلفّع بعباءته، ويخرج أصواتاً لإخافتها، وتارة يأتيها يحبو على يديه ورجليه، ويلفّ رأسه

بغطاء أسود، والآن لو فكّ رباطها لا تقوى على الجري من النحول والضعف، وضع في الخرج صرّتين من الرمل، وثبّته بالبطان فوق الحويّة، وأخذ يقودها وهي تتهادى خلفه كالظليم، يسير بها مع الطرقات السهلة والوعرة، الخالية والمكتظة، يأمرها بالبروك هازّاً لها الخطام، وإن لم تستجب للأمر يجلدها على رقبتها بعصا رفيعة، وينهرها إلى أن غدت تبرك وتقوم لأدنى إشارة، وبدأ يزيد لها كميّة الشعير والماء، ويخفّف من شدّ الصريمة، ويربطها من ساقها في المدور، وأحياناً يقيّدها فقط بقيد من ليف، وتارةً يعقلها بالعقال، وذات مرّة ربطها ودحرج حولها برميلاً فارغاً بقعقعته، ولم تهدأ إلاّ حين سمعت صوته، فهدأ روعها، ومدّت شفتها لتعبث بعمامته، فيضع لها الشعير في حجره، ويمسح رأسها ورقبتها بيده، ويُخرج لها القردان الملتصقة بجلدها، ويضعها في صرّة ليلقي بها بعيداً عن محاسها، فلمّا أحسّ بأنّ قوّتها قد عادت إليها أناخها وركبها، وأمرها بالتوقّف والسير، فأخذت تمشي به بتثاقل، وسار بها على طريق يسلكه الناس، ثمّ انحرف عن الطريق، وسار على مناطق وعرة، وشرع في تنويع الطعام لها، سواء في العلف أو التبن، ويطعمها العشب، ويحشّ لها الحشيش، ويدشّ لها الشعير بعد أن ينقّيه من الحصى، يجرشه ويبلّه بالماء، وهي تغبُّ منه بمتعة وتلذّذ، وعوّدها على الاقتراب من السيّارات وسار بها في المناطق المزدحمة وعلى شوارع المدن، وبمحاذاة سكّة القطار، ووضع عليها جرار الماء والأمتعة، ودرّبها على الحراثة، والسير على خطٍّ مستقيم، بمحاذاة الخطّ الأول، والوقوف عند رأس المارس، ونقّط عليها بزر البطّيخ، والذرة في البوق، وإذا حرث بين الأشجار والكروم يضع رأسها في الكمامة، كي لا تعتاد نتش الأغصان من الأشجار أثناء الحراثة، فيعوجّ الخطّ وتخرب الأشجار المثمرة، ودرس بها على القشّ، ودرّبها على جرّ اللّوح على الجرن، كلّ ذلك وهي تسير بخطى ثابتة متّزنة، فبإمكانه الآن النوم على ظهرها، وهي تعمل، وكلّما رفست برجلها دابّة أو إنساناً ضربها، وأعاد تمريره بقربها، مع تهديدها بالعصا، وعوّدها على ألفاظ الأوامر ؛ فإن أرادها أن تقف قال لها: قفي. وإن أراد تهدئتها قال: هيء.هيء. ولإناختها يقول: إخ.. إخ. إخيّ. وإذا أراد أن يسوقها قال: حيت. أمّا إذا رغب في أن تقرّب يديها إلى بعضهما ليقيّدها قال: سك ...سك. ويقول لها أحياناً ألفاظاً عاديّة مثل هاك،

تعي، الخطّ، برّي، الدرب، وهكذا. وكان في كلّ مراحل التطبيع والتدجين يخشى أن يفلت طبعها، وتعود إلى سابق عهدها، كأن تجفل أو تحرن، أو تقوم قبل أن يستوي على ظهرها الراكب، أو لا تستجيب للأوامر من وقوف وبروك وقيام، لأنّه إن فلت طبعها لا يمكن عسفها وتطبيعها من جديد مباشرة، إذ يقتضي الأمر أن يُؤجل ذلك إلى العام المقبل، حتّى لو عُسفت وطُبّعت تكون قد اعتادت الفوضى فيفلت طبعها من جديد، وبعد أن أكمل عادل عمله، أراد أن يتأكد من المستوى الذي وصلت إليه، فطلب من عامر أن يختبرها وأوصاه أن يتعامل معها بصرامة وجدّية، وقال: لا أريدها كناقة أخي بدر، التي دللّها، وخرّب طبعها، فإن تركها لبعض الوقت سارت على رسلها، وجرّت العنان، وإن ركبها رجل غريب أو قادها لا تستجيب له، وإن ساقها غلام حقرته. وأخيراً أخضعها للامتحان الصعب، أخذها إلى وادٍ سحيق بعيد عن الناس والرعاة وبرّكها، وعقلها، وأخرج بندقيّة كان قد خبّأها مع طول الوثر، وأطلق من فوق رقبتها أعيرة ناريّة، وهو يضع رجله على ركبتها، وهي تخفض رأسها من الخوف، ثمّ ركبها وسار بها، وأطلق رصاصات، فلم تجفل، ولكنّ سائلاً لزجاً سحّ مع طول رجليها.

(٢)

لم يكن مزاج صلاح شقيق حامد رائقاً بعد موت زوجته، فأخذ يناغش ذبان خشمه كما يقولون، أصبح عصبيّاً ينفعل لأدنى سبب، تعارك في سوق الحلال مع رجل، وأخذ يزبد ويرعد، لأنّ الرجل وقف بمعزاه مقابلاً له، اقترب منه ليصفعه فدفعه الرجل براحته ليبعده عنه، فأخرج صلاح طبنجة من عبّه، وصوّبها إلى الذراع التي دفعته، وضغط على الديك، فانطلقت رصاصة اخترقت ذراع الرجل وقتلت رجلاً خلفه، مما حدا بأقارب صلاح أن يبيعوا معظم أرضهم في سيناء لدفع دية الرجل القتيل، ومصالحة الرجل الجريح، التي بلغت نصف دية، إذ قال القاضي: إنّ من مدّ السلاح وأطلق النار فقد قتل، أنت قتلته ولكنّ الله نجّاه.

ذهب صلاح بعد مدة إلى غاصب، وطلب يد ابنته نفل، وافق غاصب على أن يأخذ حمدة بنت صلاح إلى ولده صادق بدل نفل، ولكنّ نفل رفضت صلاح، وقالت: هذا رجل كبير أرمل، وإذا كان لا بدّ من البدل أنا آخذ ابنه حمزة. فقال صلاح: نعم فليأخذها حمزة، ولو أنه يصغرها بسنتين أو ثلاث.

تزوّج صلاح بعد أشهر عاقلة بنت سعد، وأنجبت له ولداً قبل أن تنجب نفل ابنها بعام، وزارت عاقلة أباها بابنها، وكان عمره يقارب السنتين، فلاحظ أنّ وجه الطفل مصفرّ فسألها: هل ترضعينه غيلة ؟ فأجابت: لا، ولكنّي أرى وكأنّه يحسّ بمغص. حضن سعد الطفل، وقلّبه فهزّ رأسه وقال: ولدك هذا مبطون. تساءلت: كيف مبطون ؟ أجاب: لا بدّ أنّه رأى أناساً يأكلون طعاماً، فاشتهاه ولم يطعموه منه. فقالت: ما العمل ؟ فردّ: اطمئنّي، دواؤه عندي.

كان سعد لا تنطفئ ناره، حتّى في اليوم القائظ يسخّن أطرافه على النار، عزل جزءاً من الجمر، ومهّده بالمحراك، وحثا عليه حثوة دقيق، وكسر قشرة بيضة، وصبّ ما بداخلها على الدقيق الملقى على الجمر الذي ينبعث منه الدخان، ورشّ على البيضة قليلاً من الكبريت الأصفر، وأضاف إليه بحجم القمحة من الزفت، وغطّى الخليط بالدقيق أيضاً، وأزاح عليه الملّة، انتظر برهة ثمّ أخرج القطعة من النار، وحكّ ما اسودّ من الدقيق، وبرّدها قليلاً، وناولها للطفل، فأخذ يلوك ما يقتطعه بأسنانه، ويجوله في فمه، ويبدو أنّها ما زالت ساخنة.

(٣)

شعر نصر الغوانمة بألمٍ في أضراسه، فنادى زوجته: تعالي ناوليني صرّة الدّخان يا حرمة، ما همّ إلاّ همّ العرس، وما وجع إلاّ وجع الضرس. أتت له بصرة الدّخان، ناولته إيّاها، وقالت: الإنسان لمّا يكبر تكثر ذواربه، ليتك قلعتها أمس عندما مرّ قلاّع الأسنان. فتح الصرّة، وأخرج بأصابعه الثلاث ورقة تبغ مطويّة، بلّها بالماء، عصرها قليلاً فتساقطت قطرات صفراء، أدخلها فمه لتستقرّ بين جذور أضراس نخرة، فسال لعابه، فحفر الأرض، وأخذ يبصق، ويهيل التراب على اللعاب، أحضرت له العجوز بكرج القهوة وإبريق الماء، وقرّبت إليه محماس القهوة وجرابها، بصق المضغة في حفرة وطمرها، وأخذ ينسف القهوة على الجمر، فتتطاير القشور، وضع دلّة القهوة على المنصب، وسحن القهوة في الهاون بعد أن برّدها، ثمّ لقّم الدلّة فأخذت ترطن، رفع المنصب جانباً، وأخذ يُقدّم الدلّة ويُؤخرها كلّما فارت القهوة، ثمّ وضعها على تراب بارد، وغسلت له العجوز الفناجين، وأحضرتها على صينيّة من نحاس، صبّ شيئاً يسيراً من القهوة في فنجان، حرّكه في الفنجان، وسكبه على الأرض، صبّ ثانية وارتشفه وتمطّق بعده، ثمّ ناصف الفنجان وناوله للعجوز التي جلست مقابلة له، تفصل بينهما نقرة النار، حلّت لثامها واحتسته على جرعتين، قدم جارهم سلاّم وقعد بجانب نصر، وقال بعد أن شرب فنجانين: أين غليونك يا نصر. فقال: ها هو تحت ركبتي. قال سلاّم: خذ عبّئ سبيلك من هذا التبغ الغويريّ، أتسمع بالغويرة ؟ قال نصر: نعم أسمع. سحب غليونه من تحت الجلد الذي كان يقعد عليه، كانت قصبته طويلة حمراء داكنة كأنها خشب سلاح، والغليون منحوت من الحجر، يقول نصر دائماً: هذا غليون كفريّ، وجدته في مغارة بجبل الحلال. ملأ الغليون بالتبغ، ومدّه في اتجاه النار، وطلب من العجوز أن تضع عليه جمرة فتناولت جمرة من النّار، وضعتها فوق التبغ، همدتها بإبهامها فلعقته بلسانها، مما يدلّ على أنّ حرارة الجمرة سقطت على اللّحم الحيّ في إصبعها، أخذ نصر نفساً من الدخان، ولم ينفثه بل تركه يخرج على مهل مشتّتاً مع الحديث من فمه وأنفه، مخترقاً شعر شاربه المصفرّ، ثمّ سحب نفساً آخر، وأصغى كأنه يستمع

إلى همس من صدره، فقال: هذا الدخان الذي عناه الشيخ حين تضايق ! سأل سلاّم: أهو راعي الغنم ؟ قال: نعم. قال سلاّم: بالله عليك حدّثنا بقصّته. قال الراوي: اعتاد شيخ أن يتسامر مع رعيان يعزبون في أحد المراعي، التجأ بأغنامه ذات ليلة عاصفة إلى مغارة، على أمل أن يقصدها الرعاة، فأشعل ناراً داخل المغارة لتبصر من بعيد، وامتدّ الظلام زاحفاً، غطّى كلّ الشعاب، خفتت النار، فأخذ يفوجها بالعصا كلّما خبت، فسمع عواء الذئاب التي تتدافع على فوّهة المغارة بنهم، فتجفل الشّياه، وتفطّط النار، والريح تعوي، أشعل الشيخ مقباساً وألقى به إلى خارج المغارة، مدّ يده ليمرط من الحطب القريب، لكنّه كان مبتلاً من المطر، ومعظمه من الأشواك فعاد ليجلس قرب نعاجه المرتاعة. قاطعه سلاّم: والله قصّتك هذه شيّقة، صبّ لي فنجاناً. مصّ نصر نفساً آخر مع تناوله الفنجان الفارغ، وأعاده إلى الصينيّة، قالت العجوز: أعطني بعضاً من مشقة الغليون لأدهن القوبة التي فاعت على يدي. ناولها قصبة الغليون، مسحت بإصبعها شيئاً من القطران العالق بالقصبة ودهنت يدها، واستأنف نصر حديثه: وإذ برجل ملثّم يلج المغارة، تسبقه فوّهة بندقيّة جرداء، نظر إلى الشيخ، تأمل المكان، فأخذ يتسمّن النعاج ؛ يّبر السمينة على جهة، ويترك الهزيلة ولم يعبأ بالشيخ الذي أخرج صرّة تبغه، أخذ يحشو غليونه وينشد:

عبٌّ سبيلك بأشقر اللّون طسّه تتن الغويرة يحبس الكيف ع القلبْ
كبش الغنم جاب الحرامي بحسّه والذيب عادي والغنم ما بها كلبْ
قلبي غدا لولا ضلوعي ترصّه همٌّ على همٍّ، وغلبٌ على غلبْ

فرقّ له قلب اللّص، وقال: أنا أمزح معك، وأخرج البندقيّة من باب المغارة، وأطلق طلقة فرّق بها الذئاب العادية، وجلس إلى الشيخ يسامره حتّى الصباح. قال سلاّم: سلم لسانك، يا لها من قصّة مسلّية. ويبدو أنّ النعاس داهم العجوز وهي تستمع مقرفصة قرب النار، فارتخت ركبتها إلى أن لامست الأرض، فانفرج ثوبها عن عورتها، فحانت من نصر التفات إليها بعد أن أنهى قصّته، فخشي أن ينبّهها فيثير انتباه جليسه، فمدّ الغليون ليلامس قدمها، قبضت رجلها لمّا أحسّت بالحرارة، خرجت من الخصّ خجلة، وكأنها سمعت صوتاً مع قبض رجلها، فقال نصر في نفسه: صدق من قال: لا تنم عند صاحٍ، ولا تصحُ

عند نائم. أمّا سلاّم فتلثّم، وأشاح ببصره بعيداً في الفضاء، ولسان حاله يقول وهو يكبت ضحكة مكبوتة تكاد تنفلت من عقالها: لو ظلّت على البنية الأولى لكان أستر. قام ونظر إلى الغرب وقال: أوشكت الشمس على الغروب، نريد أن نجهّز المتاع للعائلة، ينووون الذهاب إلى رحلة البلح. فقال نصر: والله آن الأوان، البارحة سمعت نعيق طير الغرق، يقود الفرّ والمرع، وسمعت أنّ الصيّادين قد نصبوا الشباك على الساحل لصيد الطيور المهاجرة. قال سلاّم: ما أوان يستحي من أوانه، برّد الطقس، غداً لا يبقى على الديار إلاّ الشيوخ والعجائز والعجزة. قال نصر: يسترها الله، كلّ المدّة التي يمكثونها هناك لا تزيد عن شهرين.

يستعد الناس لموسم العجوة، يزورون الأسواق في المدن، يشترون بضائع منوّعة من أقمشة وأواني فخّاريّة، وبهارات وعطور، يجلبونها إلى أصحاب النخيل غرب العريش، وإلى مناطق قطية وبئر العبد، يقايضون البضائع بالبلح والعجوة، ومن لم يتّجر يعمل بالأجر في جني البلح وصناعة العجوة، فيعود عند انتهاء الموسم بحمل بعير من العجوة، يكفيه وعياله طيلة الشتاء، وتسمع هؤلاء المتاجرين ينادون، وهم يتجوّلون بين مشرّات البلح وعرائش أصحابها: معنا حرير، معنا قرنفل، معنا أباريق. حتّى البنات يشاركن في التجارة فقال المغنّي:

مقدم عربنا ثلاثةٌ ملاح قبّلن قبلةً ويجيبن بلَح

وينعم هؤلاء بأكل البلح والجوّافة من مواصي البحر، ويسطون على السمك والفسيخ، فتقوى أبدانهم نظراً للغذاء الجيّد والطقس المنعش على شاطئ البحر، وصف البدّاع أحدهم بقوله:

أكله سمك على يمك حيله يرمي القعودِ

وحين رأى عادل أسراب الذباب تحطّ على الرطب وهو منشور على فرش من ورق الجريد، والنساء يجبلن العجوة بأرجلهن قال: من الأفضل أن لا يرى المرء كيف يعجنون العجوة.

واعتادوا في ذهابهم وإيابهم أن يمرّوا بسبخات الملح ليتزوّدوا منها بما يكفيهم من ملح طيلة أيام السنة، ويعرّجوا على سبخة البرذوين، ومازال يظهر عليها في اعتقادهم أثر جواد أبي زيد الهلالي، وهو يطارد فرس البرذوين، وهم يخطّون بأرجلهم على الأثر ليبقى

حيّاً على مرّ العصور والأزمان، ويعتبرون أنّ من يمرّ من هذا المكان ولا يشهر هذا الأثر فهو آثم، ويروون أنّ البرذوين كان ملكاً على هذه البلاد، فمرّت قبائل بني هلال في طريقهم إلى تونس، فأرادوا أن يربّعوا إبلهم الهزيلة في هذه المنطقة، بعد أن أضناها السير وهي تقطع البيد والفيافي قادمة من نجد، فاوض السلطان حسن زعيم بني هلال البرذوين كي يسمح لهم برعي سوائمهم، ولكن شروط البرذوين كانت مجحفة وجائرة حيث قال البرذوين: تسيمون أنعامكم، وتمكثون هنا ريثما ترتاحون وتقوى إبلكم على السير، على أن تدفعوا عشر ما تملكون. وافق السلطان حسن مكرهاً على هذا الشرط، وليس أمامه خيار آخر، وربما أضمر النكث، وأخذ البرذوين يلحّ في الطلب، وهم يُؤجلونه، أمّا أبو زيد فيقول: ما له عندنا سوى حدّ السيف، كيف نعطي العُشر لمحتلٍ غازٍ، واجتمع رأي بني هلال على حجز أبي زيد في قفص حديديّ خوفاً عليه من التهوّر، فهو الذي راد الطريق، ويعرف سبل تونس الخضراء، وسلّموا مفتاح القفص لزوجته، وشدّدوا الحراسة عليه خصوصاً وقت الضحى، لأنّ العرّاف أبلغهم أنّ أبا زيد يقتل ضحى، خافوا أن يقتله البرذوين إن نازله، وحين ضيّق البرذوين الخناق على بني هلال وطالبهم بالدفع العاجل اجتمع السلطان حسن بالقبيلة وأعلن: أنّه من يقتل البرذوين يحظ بالجازية أخت السلطان، لم يرض أبو زيد بهذا الاقتراح، إنّه يريد أن تبقى الجازية أميرة عفيفة ينتخون بها في حروبهم، وفي اللّيل نادى أبو زيد زوجته، وطلب منها فتح القفص، فسألت: إلى أين تريد الذهاب ؟ فقال: أريد أن أنام في فراشك. فلم تصدّقه ؛ فمنذ نشوب الصراع مع البرذوين لم يطأ لها فراشاً، فطلبت منه أن يحلف، فحلف، وفتحت له باب القفص واضطجع على فراشها برّاً بيمينه، وامتطى صهوة جواده، والمرأة تحاول أن تثنيه، فأرغمها على دخول بيتها صامتة، واتّجه إلى قصر البرذوين، قرع الباب وطلب من الحاجب مقابلة البرذوين، فاعتذر وقال: إنّه نائم، ولا يمكن إيقاظه. فصرخ أبو زيد بصوت مدوٍ زلزل القصر: أيقظه. فاستيقظ البرذوين، وسأل عن مصدر الصوت، فأخبروه أنّ رجلاً بالباب، فتساءل: أفي هذا الوقت من اللّيل !؟ فامتطى فرسه، ولبس درعه وطاقية الخفاء، وفتح له الحاجب الباب، وانقضّ على أبي زيد، فلم ير أبو زيد شيئاً، وانطلق جواده فاراً، وكاد البرذوين أن يلحق به، فتضايق أبو زيد،

يختلس النظر إلى الخلف فلا يبصر وراءه أحداً، لكنّه يسمع وقع السنابك وقعقعة الحديد، استدعى الجنيّ الذي يخدمه، فقال له: ماذا تريد أن أفعل ؟ قال: انزع عنه طاقيّة الخفاء لأبصره. فَنَزعها عن رأس البرذوين ووضعها على رأس أبي زيد، فأمسى البرذوين ظاهراً للعيان، واختفى أبو زيد، فأدار البرذوين رأس فرسه، وعاد مسرعاً إلى القصر، وتبعه أبو زيد فأدركه قبل أن يلجه، طعنه فأطاح برأسه وقال: ذقها من كفّ أبي زيد الهلالي سلامة. ثمّ أعاد وضع رأسه على جسمه، وثبّته وغمس كفّه في الدم، وطبعها على الحائط، ورسم شبراً وفتراً، ومضى ليطلق الإبل في حديقة البرذوين وعاد إلى بيته، ربط جواده ودخل القفص وأغلقه على نفسه.

شاهد السلطان حسن الإبل ترتع في حديقة البرذوين صباحاً، فطلب من أحد العبيد أن يردّها، ويعتذر منه حيث يشاهد على فرسه عند بوابة القصر، وأوصاه أن يخبره أنّ بني هلال يجمعون له عشر المال، فاقترب منه العبد، ولم يفطن لموته بل أخذ يدنو منه ويقول متضرّعاً: يسلّم عليك مولاي السلطان حسن ويعتذر من انفلات الإبل على جنينتك، ولن تتكرّر هذه الفعلة أبداً، وتركتهم يجمعون لك عشر المال، وظلّ يدنو إلى أن لامس الفرس، فانتهز منه غفلة، وظنّ أنّه نائم، فوثب عليه وحصد رأسه بالمنجل، وأسرع بالرأس إلى السلطان حسن، وعاج في طريقه على بيته، وطلّق زوجته لأنه سيحظى بالجازية.

اجتمع القوم للتشاور دهشين: أيعقل أن يحشّ العبد رأس البرذوين الفارس بالمنجل وبهذه السهولة !؟ وقال آخرون: فلنذهب إلى القصر ونتحقّق من الأمر. مرّوا بأبي زيد عن بُعد فشاهدوه يقبع في القفص، وقالت جارية في القصر: الذي قتل البرذوين طبع شبره وفتره على الحائط، فعرف السرّ .

عاد ناجعو العجوة إلى ديارهم وقلوبهم مفعمة بانتصار وفروسيّة أبي زيد، وأخذوا يقصّون على بعضهم قصّة الهلاليّة، يتسلّون بها على قطع المسافات الشاسعة، فحدّثتهم ثريا بصوتها الجهوريّ قصّة ذياب بن غانم مع العبد فقالت: افتقد ذياب بَكْرَةً عزيزة عليه، لأنّ ذكر نعام قد واقع أمّها، فولدت بها صفات من الإبل وصفات من النعام، تعهّدها ذياب بالتربة والعناية فغدت تسابق الطيور، عثر ذياب على أثر فارس قد أخذ هذه

البكرة، فتبعه على حصانه إلى مسكنه، استاء ذياب من مقابلته وغطرسته، طلب منه المبارزة ومن ينتصر يستأثر بالبكرة، فتبارزا، وحين همّ ذياب بطعنه قفز العبد بفرسه خندقاً كان قد أعدّه من قبل، ودرّب فرسه على قفزه، يتّخذه ملاذاً يلجأ إليه عند الضرورة، حاول ذياب دفع جواده خلفه، فأحجم عن القفز وحرن وكرّر المحاولة دون جدوى، فعاد إلى إبله وحفر خندقاً، ودرّب جواده على اجتيازه، وتوجّه إلى بيت الأسود وبارزه، فلجأ الأسود إلى خطّته السابقة، فلحق به ذياب، ضربه بالسيف ضربة قاضية وأنشد:

ياعبد يا زربول يا مضرب العصا يا ثمن إبرة ما تجيب جديد

الناس تلاقي الضيف بأهلا وسهلا وأنت تلاقي الضيف بالتهديد

دخل قصره فوجد فتاة جميلة بيضاء، سألها عن قصّتها، فأخبرته أنّ هذا الرجل الشرّير يغير على قوم، ويسبي كلّ سنة فتاة جديدة، سألها عن منازل أهلها، فوصفت له مكانهم، أركبها على جمل، وحزّ رأس العبد ووضعه في الخرج، واتّجه إلى قومها، أُعجبت المرأة بفروسيّته، وتمنّت عليه أن يتزوّجها، فقال: نتحدّث في هذا الأمر بعد مقابلة أهلك. وصل إليهم فوجدهم مجتمعين في ديوان، طرح عليهم السلام، وغرس حربته في رأس العبد، ونفضه بين القوم فتفرّقوا فَرَقاً حين تدحرج الرأس بينهم، فأطلق رسن الجمل، ولكز جواده بمهمازه، وأنشد:

ناس تهاب الراس، والراس ميّت عمري ما أخلّي ولدي يقول لهم يا خال

وما أن أكملت ثريا هذا البيت حتّى سمعت خبطة، وإذ به ولد لبدر قد نام على ظهر البعير، فوقع عندما هبط البعير كثيباً رمليّاً، فقال زيدان: برّكوا الإبل، كفانا سيراً الليلة، لننم هنا حتّى الصباح، وفي الصباح رباح. برّكوا إبلهم، ونزّلوا الأحمال، وأشعلوا النار، اقتبست امرأة بدر مقباساً من النار، وضعته على المكان الذي وقع عليه الغلام، ورشت عليه لهوة من البخور، وأوقفت ابنها فوقه، فتصاعد دخان البخور من أسفل إلى أعلى، وأخذت تتمتم: دستور يا ملوك الأرض. وتضع يدها على دخان البخور، وتمسح رأس الولد ووجهه وجسمه، وتقول: اسم الله عليك، قلبك جبل ما جفل. ونفثت من ريقها على صدره.

(٤)

وصلت أنباء من السبع عند الظهر، تؤكد حلول شهر رمضان، فكثر اللّغط، وامتنع المفطرون عن تناول الطعام، وكان البعض قد صام منذ الأمس، والبعض كان يخشى صيام يوم الشكّ، قال سلاّم: غريب لم نسمع صوت مدفع الصحور. فعلّق بدر: يا رجل الريح معاكسة لاتجاه المدفع، فلا يسمع حتّى لو ضُرب في بطن هذا الوادي. أمّا نصر فقد صام اليوم، ولم يضايقه سوى الامتناع عن التدخين، وقال: والله تراودني نفسي أن أُقلّد المأمور التركي الذي كان يصوم ولا ينقطع عن التدخين، كان يقول: الدخان هواء لا يفطّر، ولا يجرح الصيام، كأنّك تجلس قرب النار، وتستنشق دخانها. قال عادل: بعد موت منّاع الأعور أصبح الصوم والإفطار على التخمين، رحمه الله، كان مخبراً صادقاً، يرصد القمر في أواخر الشهر من الشرق، يظلّ يتابعه، يحسب كم يتأخّر كلّ ليلة، عينه كالملقط ترى الهلال حتّى لو كان رفع الشعرة، منذ الصغر فقأ عينه اليسرى عود وهو يحتطب، فأزعجه أنّ جنبه الأيسر غدا معتماً، فاحتال ليضع عينه اليمنى في منتصف وجهه، ليكون نظره متوازناً على اليمين وعلى اليسار، فبرم رأسه وعقف عنقه ليوازن الرؤية، ومع طول المدّة اتّخذ رأسه هذا الوضع، ولاءم شكل الرقبة وضعيّة الرأس الجديدة.

قبيل الغروب توافد الرجال على الديوان، كلٌّ يحمل صحن ثريد، وإبريق ماء، ينتظرون غياب الشمس، كان همّ عامر أن يلفّ أكبر عدد من السجائر، أمّا سليم فقد عزل لقمة من الثريد وبرّدها ليبدأ بها وهو منذ العصر يقول: خلص رمضان، بقي عشرتان وتسعة وباقي هذا النهار. وأمسى الجوّ غائماً، فاقترح صادق الانتظار إلى أن يأوي الدجاج إلى أخمامه كي يفطروا، فاعترض زاهد الأعرج: الدجاج أبصر منّا ! وتدخّل صابر بقوله: أضمن شيء أن ننتظر ظهور النجوم في السماء. وقال نصر: الناس هذه الأيام خفّ سمعها ! كنّا نسمع مدفع غزة ومدفع العريش، انصتوا عسى أن نسمع صوت المدفع. قال عامر: لعلّك تعني أنّ الناس هذه الأيّام ثقل سمعها. فضحك الحضور، وأمسى الأطفال ينتظرون خلف البيوت سماع صوت المنادي من الديوان ليبلّغوا أمّهاتهم بموعد الإفطار، وقف عادل

على كثيب قرب الديوان، وضع إصبعه في أذنه ونادى: افطروا يا صايمين. كرّرها مرّتين، وبدأ القوم في التهام الثريد وهرع الأطفال إلى أمّهاتهم، وأمست العشيرة في سكون تام، لا تسمع فيها إلاّ حنيناً أو ثغاء، وفي لحظات قليلة كان حبيس أبو سيف قد أنهى ثريده، وشرب من إبريقه، فقام حاملاً قصعته على راحته، وآب إلى بيته، وحين صعد على التلّ المجاور للديوان نظر إلى الغرب، فأبصر بين الغيوم خيطاً رفيعاً مضيئاً، فقال بصوت عالٍ: مرحباً بهلال السلامة. قال عادل: أسمعتم، لقد رأى حبيس الهلال وحيّاه. علّق زاهد الأعرج: إذن اليوم هو ثاني أيّام رمضان، ومن صام أمس كان حسابه مضبوطاً لأن من المحال أن يرى حبيس الهلال أوّل ليلة. وقف البعض ليبصر الهلال، ويتأكد من دقّة نظر حبيس، وإذ بالغيمة تنْزاح قليلاً لتسفر عن شمس ذابلة قد غرست قرنها في أديم الأفق، يلوطها الشفق الأحمر فأسقط في أيدي القوم، وقال أحدهم: أكلنا عصوراً وليس فطوراً. توقّف بعضهم عن الأكل ليكمل صومه، وترك يده في ثريده، واستمرّ آخرون في الأكل على نيّة أن يقضوا هذا اليوم، إذ قال أحدهم: أبعدما شبعنا ننتظر لنأكل لاحقاً وكأننا سهونا. أمّا حامد فقرّر أن يذهب إلى المدينة في الصباح ليبتاع ساعة ونتيجة. وميعاد الإمساك أكثر صعوبة، أيقظ عطوة زوجته، فعجنت وهي تردّد:

حلّ السحور يا غندور ملّس عجينك بالميّه

ثمّ خبزت وطبخت، وشرع هو في الثريد، وصبّ عليه الطبيخ، وشرع يساوي وجه الفتّ، وأيقظ أولاده، فسمع المنادي يقول: كفّوا أيديكم عن الطعام. فقال: ثردتها وأكفكف جوانبها، وتطلب منّي الكفّ عنها !؟. فقالت حمدة مشجّعة زوجها وأولادها على الأكل: كلوا، ما زال هناك متّسع من الوقت، فالنبي سحّر رفاقته في ذرى ناقته. ثمّ انتظمت الأمور في الأيام اللاحقة، واعتاد الناس على مواقيت رمضان، ومع اقتراب نهاية الشهر قلّ الحماس والاستعداد لتحضير الأطعمة، وحلّ محلّ ذلك التجهيز والتهيّؤ للعيد.

قدم ظعن من النور على حميرهم، وجاوروا هذه العشيرة، وبعد أن نصبوا خيامهم هيّؤوا أنفسهم لممارسة أعمالهم وبدء نشاطهم، فزار أحدهم الديوان وهو يسحب قرداً في جرير، وطلب منه صاحبه أداء حركات مضحكة مشهراً له العصا، يقول له: نم نومة

العجوز. فيضمّ يديه ورجليه، ويكوّر جسمه ويغمض عينيه، ثمّ يقول: له نم نومة العانس. فينام على ظهره، ويظلّ يتقلّب على كافّة الجهات، ولم تغمض له عين، ولم تعجب القوم حركاته ولا شكل مؤخرته، فجلس قبالتهم، وجرير القرد تحت إبطه، حدّثهم عن البلاد التي زارها، والناس الذين قابلهم، وكلّما أظهروا التعجب والاندهاش أتى لهم بقصص جديدة وغريبة، بدا له منخران مشرعان، والحاجز بينهما غضروف شفّاف بسمك الورقة، وبإمكانك أن ترى من خلاله الفضاء، وخصل عوداً أخضر رفيعاً من عشبة، كشط عنه الأوراق، مسّده بأصابعه، وأدخله في فتحة أنفه، أغمض عينيه ورجف رأسه، أخرج العود وزرّ أنفه كأنّه يريد العطاس، ولكنّه لم يطاوعه، أعاد المحاولة بارماً العود الغضّ بين أصابعه داخل أنفه، فعاجله العطاس قبل أن يسحب العود، فخرج مع الرذاذ المنتشر، قال زاهد الأعرج: لماذا تضع العود في أنفك، إنّه يُفطّر. فقال النوريّ: لماذا يُفطّر لا هو أكل ولا شرب. فهمس عادل: أأنت تعرف أنّه صايم، بس خايف عليه أن يفطر. فرمى بالعود، وأغلق فتحة أنفه اليسرى بإبهامه، وحنى عنقه إلى اليمين ونثر، فطارت كتلة مخاط كأنها دودة تدحرجت على الأرض، وتبرغلت بالتراب، ثمّ أغلق الفتحة الأخرى، ونثر فطارت كتلة أصغر حجماً، مقدّمتها يابسة لتحطّ على طرف ثوبه الأبيض، بحث عنها فلم يرها ثمّ قبض حفنة من الرمل، فركها بين أصابعه، هزّ أنفه وكأنّه يحسّ بنمنمة فيه، أدخل إصبعيه السبابة والإبهام داخله، حاول التقاط شعرة ونتفها بسرعة، نظر إليها، وألقى بها جانباً، ولكنّها ظلّت عالقة بإصبعه، وأدخل إصبعيه من جديد، وأفلح في إيصالهما إلى مسافة أبعد، فمعط زومة شعر، ودفنها في التراب.

أمّا رباب النوريّة فجلست بفناء بيت شاهين، وفتحت حقيبتها، في حين أمسكت معاونتها بفتاة، فأخرجت رباب مجموعة إبر، وشرعت في وخز الفتاة بها مجتمعة على شفتها السفلى، وبين عينيها وعلى وجنتيها، وترسم عروق نبات ينخرط من الفم إلى أسفل الذقن، تحاول الفتاة الإمساك بيد الواشمة، لكن معاونتها العفيّة أمسكتها بإحكام، وتغنّي الواشمتان:

الوجع حزّة حزّة والغوى ديمة ديمة

أطلّت سلمى بنت نصر برأسها من فوق حظيرة بيتها، فرأت البنات يتقاطرن على البيت الذي فيه الواشمة من جهات مختلفة، فهزّت رأسها، وقالت بصوت خفيض وكأنّها تكتشف لغزاً: هؤلاء البنات يأتين للختان وليس للوشم، أيعقل أنّ كلّ هذا العدد الداخل والخارج من أجل الوشم فقط ! لا أدري لماذا يشهرون ختن الأولاد، ويدسّون ختن البنات، عجائب !

يحلّ الحاوي الأدرد بحركة استعراضيّة وكاء جرابه لتسبح منه ثعابين تلتفّ حول عنقه، ثمّ تعود بالتتابع إلى الجراب، يتقدّم منه بدر، يخرج الحاوي حبّة تين جافّة يلوكها في فمه، ثمّ يخرجها وهي مبتلّة باللّعاب، ويطلب من بدر أن يأكلها، فيغمض عينيه ويضعها في فمه ويزدردها، بينما رفض عادل تناولها وعافها، فكّ الحاوي رباط الجراب فأخرج أحد الثعابين رأسه، فنقره الحاوي بإصبعه وعاد، وخرج رأس آخر، فأذن له بالطلوع من الجراب، وكأنّ هذا الثعبان من فصيلة الثعابين المنتشرة في هذه البلاد، قرّبه من عنق بدر، فالتفّ حولها، هدّأ الحاوي من روعه، مدّ الثعبان رأسه ليقبض على شحمة أذن بدر، وأطبق عليها فكّيه، صاح بدر، فأمره الحاوي التحلّي بالصبر والسكينة، فامتصّ الثعبان بعض الدم وعاد إلى الجراب، فرك الحاوي الأذن الملدوغة وقال موجّهاً كلامه إلى بدر: أنت الآن محويّ، لا يلدغك ثعبان، تستطيع الإمساك به بأن تنفث عليه من ريقك، فيستكين ويقف إن كان سائراً، ولكنّك إن قتلت أحد الثعابين أفسدت حويتك، ولا تكون بمأمن من لدغها، اخشَ الحيّة الزعراء الرقطاء فهذه لا حوي عنها، ارتح قليلاً، وسأرافقك إلى الوادي، لأرى كيف تمسك بالثعبان وتلاعبه بين يديك.

تسلّل أبو موسى في آخر اللّيل إلى خيام النور، دار حول خيمة جواهر، كان القرد مربوطاً في مدخل الخيمة، فأخذ يشاغل أبا موسى، ويمنعه من ولوج الخيمة التي كانت أطرافها مدفونة بالتراب ومواجهة للخيام الأخرى، لا يستطيع أبو موسى دخولها إلاّ من الأمام، خلع وتد القرد وهدّده بالعصا، وسار به بعيداً وهو في همير لا ينقطع، ودقّ وتده في مغارة بعيدة عن البيوت، أغلق بابها بصخرة، وجرّ حطبة خلفه وعاد مع أثره ليخفيه، ودخل الخيمة يبحث عن النقود، حفر عند الأعمدة، فتّش تحت الوسائد، مدّ يده في كيس

الدقيق، حتى في رماد النار، نبش كلّ شيء سوى جراب الثعابين، فلمّا أيس من العثور عليها، أوشك القمر على السفور، انسلّ إلى بيته سالكاً دروب الأغنام حين تنطلق صباحاً ليخفي أثره.

تفاجأ النور باختفاء القرد، فتّشوا عنه فلم يعثروا عليه، قال صاحبه: كان في مرّات سابقة يقطع جريره أو يقلعه وينطلق إلى جماعتنا في الرابية شوقاً إلى قردتهم، فيعيدونه إلينا وقد غدا كالسفّيرة، فيظل أسبوعاً وهو راقد، القذى يدفن عينيه، والبرغش يحوم على رأسه، علّق زعيمهم: إن كان ضياعه كالمرّات السابقة فهو أمر هيّن. ثمّ انطلقوا إلى حامد، وأخبروه باختفاء القرد، وأضافوا: نحن في حمايتك وتحت كنفك، فكيف يجرؤ أحد على سرقتنا ونحن نزلاء عندك، هذا لم يُراعِ جوارك ؟ فقال حامد: ما سرق القرد إلاّ قرد. أرسل في طلب أبي موسى، وقال له: نريد أن تبحث لنا عن قرد ضائع لهؤلاء الجماعة ولك هديّة. تسائل أبو موسى: وإن كان مرهوناً ؟ ردّ حامد: نفكّ الرهن.

غاب أبو موسى وعاد به قبل الظهر، وقال لحامد: بينما كنت في عرس المطويّ وكانت إحدى النوريّات ترقص، تلفّ وتدور أمامي، تجعل ظهرها موالياً لي، فتثني عنقها فتواجهني بوجهها، ثانيةً صلبها كالخيزران، وشعرها يتدلّى كسبيب الفرس، فما أتمالك نفسي إلاّ وأنا ألحس قطعة ورقيّة، فألصقها على جبينها فتنطلق تحجل أمام حلقة الجلوس، وتعود لتفعل فعلتها الأولى أمامي، إلى أن نفد جميع ما معي من نقود، وانفضّ الحفل، وراحت السكرة وحانت الفكرة، فقلت: يجب أن أُعيد نقودي، كيف يلعب هؤلاء عليّ ؟ فقال حامد: قد يكون في نيّتك شيء آخر. فقال: أبداً، ما أزلّ عليك، ذهبت لأسرق نقودهم، ولم أترك مكاناً إلاّ وفتّشته، بعد أن قلعت القرد مقلع إبليس لابنه، لا أكتمك إنّني وجدت على مقربة من طرف الخيمة حفرة جديدة، قد ردّ إليها ترابها، فأيقنت بالظفر، غرست يدي فيها فجاءت بالعجاب، غسلتها بالعجرم، وأذبت فلقة صابون، ولم تزل رائحتها. تلثّم حامد، وغالبه الضحك، وهو يحاول أن يظلّ جدّيّاً فسأل: كم أعطيت النوريّة ؟ قال: خمسة برايز. فقال حامد: جعلت نفسك سخيّاً، وأنت تلصق البرايز على جبينها، تتباهى أمام الناس، ثمّ تندم وتشرع في السرقة ! فقال: أنا سمعت أنّ النور يعيدون إلى زبائنهم ما

يأخذون، أو يقطعون شيئاً يسيراً من المبلغ، لأنّهم يأخذون أجر الحفلة من أصحاب العرس، بل أنّ بعضهم يعطي كلّ ما يجمع إلى العريس كنقوط. قال حامد: سأدبّر لك منهم جزءاً من المبلغ، لا تعد لمثلها، اذهب من هنا، ها هو صاحب القرد قد أقبل.

فرح النوريّ بقرده، وأخذ يملّسه، والقرد كالمعاتب، يبدّل رجليه من لسع الرمضاء، يشدّ جريره نحو الخيمة، فقال حامد: خذه وأطعمه، لا بدّ انّه مقويّ. قام وانصرف به، تساءل شاهين: كيف يفعل أبو موسى هذه الفعلة الشنيعة ؟ ردّ حامد: أبو موسى هذا لا يدرك ولا يخجل، أذكر أنّه قبل عامين طرقنا ضيوف مساء، تجادل الحضور في عشائهم، كلّ واحد يريد أن يستأثر به، فأصرّ أبو موسى على أخذه، فقلنا له: أنت بيتك منحاز، والوقت ليل، اسمح لنا أن نعدّ لهم العشاء هنا، ونؤجل دورك إلى المرّة القادمة. فلم يوافق، وذهب ليعدّ العشاء ويحضره، وانتظرنا وبات الضيوف ينامون ويستيقظون إلى أن انتصف اللّيل ولم يأتِ، فلمّا يئسنا من قدومه أيقظت عيالي، وأعددنا لهم عشاء من ميسور البيت، ولم يعد أبو موسى، فقلق عليه البعض، وقال: ربّما عثر في الطريق وكسرت ساقه، أو صادفه وحش وقتله، وقدّر آخر: ربّما اصطدم بأشرار، أو وجد في بيته أمراً جللا. حين تقصّينا أخباره، علمنا أنّ امرأته رفضت أن تعدّ له طعاماً للضيوف، بل أرغمته على النوم كالطفل، وقالت: لا نريد أن ننقل طعاماً إلى ضيوف في منطقة بعيدة، أمّا إن أتوا إلينا فعلى الرحب والسعة، نقدّم لهم القرى.

فعلّق عادل: هذه الأيّام شور النساء يوشك أن يغلب شور الرجال. وتدخّل سليم: فيه رجال وفيه رجرج، أصابعك في يديك ليست سواء. وواصل حامد الحديث: المهمّ إنّ أبا موسى لم يعتذر، وجاء في اليوم التالي وكأنّ شيئاً لم يحدث، أتريد من هذا أن يخجل من سرقة قرد النّور، إنّه يسرق كفن الميّت.

بدأت الاستعدادات للعيد، باع الناس ما يفيض عن حاجتهم من غلال وكلّ ما توفر لديهم من صوف وزبد، واشتروا أقمشة وحناء وحليّاً وعطوراً، وجهّزوا الهجن والخيول بالغبطان والسروج وزيّنوها للسباق، انتقد البعض الاستعداد المبكّر للعيد الذي تبديه بعض النساء قائلاً: صامت يوماً وتخطّطت للعيد.

ذهب الناس إلى زيارة القبور يوم الوقفة، وزّعت العجائز التمر والقطّين عن أرواح الموتى، كما أكرت بعضهنّ القرّاء العمي الذين يتوافدون على المقابر، يلفّون على طرابيشهم الحمراء لفائف بيضاء وخضراء، قدموا من المدن للقراءة والدعاء نظير أجر يدفعه لهم ذوو الموتى، ويعدّ هذا اليوم عيد الشباب، حيث يختلط الشبّان والفتيات في الأسواق والمراعي، يتواعدون لحضور العيد غداً، ويتساهل الناس مع أبنائهم أيّام الأعياد، ولا يطبّقون العرف الصارم الذي يُؤخذ به في الأيام العاديّة، أشعل الأطفال النيران خلف البيوت مع غروب ليلة العيد بتوجيهات من أهلهم، يتقافزون فوقها ويصيحون: مع الوداعة يا رمضان. وفي هذه اللّيلة أخرجت النساء الثياب الجديدة المطرّزة، ووضعن الحنّاء على أيديهنّ، ولففنها بالخرق حتّى الصباح، وجرفت أم موسى الملّة في وعاء، وفردتها في الرفّة، وفرشت فوقها بساطاً من الصوف، وطلبت من أبنائها النوم باكراً ليستيقظوا للعيد، وأمرتهم بالتقارب وعدم التنافر كي يحوق عليهم البساط، وقالت مخوّفة إيّاهم: في ليلة باردة كليلتنا هذه، بات أولاد ينامون في صفٍّ واحد، فأخذ كلٌّ منهم يركل أخاه بمرفقه كي يبتعد عنه، صادف ذلك مرور غولة، فرأت ما هم عليه من خلاف وتنافر، فانتهزت الفرصة، ودخلت بين اثنين، التصقت بأحدهما فوخزها بمرفقه ظنّاً منه أنّها أخوه فابتلعته، ثمّ التصقت بالآخر فلكزها فابتلعته، إلى أن أتت عليهم جميعاً. فالتصق الأولاد بعضهم ببعض، كي لا يبقى مجال للغولة للدخول بينهم، فقامت أمّهم وقعدت فوق الملّة الباقية قرب الحظيرة، كانت قد كفأت عليها الصاج، وأخذت تحثوها بين فخذيها، تتململ وتهزّ عجيزتها إلى أن عرق الجلد وخدر من الحرارة، فأخذت تمعط الشعر مع كلّ حثوة، وعندما تجور عليها الملّة تراوح مكانها، وتفرك عانتها وتردّد: امعط شعر الباط والمخاط والمضراط. ثمّ لغمت يديها ورجليها بما تبقّى في الصحن من عجينة الحنّاء، وتظاهرت بالنوم حين أبصرت زول أبي موسى قادماً.

استيقظ الناس باكراً صباح العيد، ارتدوا الملابس الجديدة، وبدت الفتيات متبرّجات، وتفوح رائحة القرنفل من النساء، وهنّ في طريقهنّ إلى مكان الاحتفال بالعيد، فقال نصر حين مرّ به سرب منهنّ: العيد يوم والرعناء قتلت نفسها. وبدأ الناس يتزاورون

للمعايدة، ويعرض عليهم الطعام، ولا بدّ من أكل ولو لقمة واحدة للأجر العائد على المطعم، أمّا الشبان فقد أسرعوا إلى الاحتفال، حيث تجمعت النسوة للغناء، ويقف الشباب أمامهنّ يستمعون لغنائهنّ، البعض يركب جمله وهنّ يكلن له المديح، ويطلب بعضهم أن يرى وجه فتاة فيقول: جليني يا بنت. فتسفر عن وجهها إن شاءت تلبية لرغبته، ثمّ تعيد نقابها، أو ترفض طلبه.

وأمضى حمد سحابة يومه يدور من عيد إلى آخر، وهو يحمل عصاه على عاتقه، دون أن يكترث به أحد، وهو بخلاف الناس لا يرتدي ملابس جديدة، بل بقي بملابسه القديمة، ويردّد حين يصل إلى جمهور المغنيّات بصوت خفيض:

يا بنات العيد، ما شفتن لي سعيد

جوخته حمرا، وطربوشه جديد

ويستمرّ اللّعب والغناء إلى قبيل غروب الشمس فتغنّي الفتيات:

ردّوا الشمس ردّوها يا أولاد يا أولاد.

ثمّ يغنّين بما يشبه الندب: راح العيد وخلاّنا يا خسارة حنّانا.

قال عادل لأولاده حين عادوا إلى البيت: العيد طوى بيرقه والكلّ يلبس خيلقه.

(٥)

أخذ عودة زوجته نصرة إلى أهلها، وكان عجلان لا زال صغيراً في حضنها، أعطاه جدّه حامد عنّزاً حلوباً ليشرب من حليبها، كما أعطته جدّته دجاجة ليأكل من بيضها وعاد بهما عودة إلى بيته، وكان نصر يمسك بالدجاجة كلّ صباح، يضع إصبعه الوسطى على مؤخرتها، يضغط عدّة مرّات فيبتسم ويقول: لقد قستُ دجاجتك يا عجلان، إنّها توشك أن تبيض، اتبعها وانظر أين تبيض كي لا يأخذ بيضتها الأولاد. وذات مرّة لحظ تيساً اعتلى العنّز بعد أن بعبع حول عنقها أمسك بها نصر حين أتاه عادل وقال: انظر لي هذه العنز أهي حامل أم لا ؟ نقرها عادل بأصابعه أسفل بطنها وقال: يا نصرة حيّني هذه

العنز، لا تحلبيها، إنّها شائل. قال نصر: كلّ الحيوانات أعقل من الإنسان، فالعنز حين تحمل لا تمكّن الفحل منها. فقال عادل: يشبهها فقط أخي حمد، حين زوّجناه هدباء لقّنه سلاّم كيفيّة التعامل مع الزوجة في اللّيلة الأولى، لكنّه لم ينبّهه للأيّام القادمة، فاشتكت أمّها لثريا من عدم اقترابه منها، فأعلمناه أنّ الإنسان يختلف عن الدّواب التي عايشها طويلاً، لكنّه لم يقتنع، وسايرنا على قدر عقولنا. قال نصر: لقد أمضى حمد عمره مع الحلال، فتطبّع بطباعها. تساءل عادل: يا ترى أيتعلّم الحيوان من الإنسان أم أنّ الإنسان هو الذي يتعلّم من الحيوان ؟ فأجاب نصر: إنّ الإنسان هو الذي يتعلّم من الحيوان، ولا يتعلّم الحيوان من الإنسان شيئا.

خرجت نصرة تحتطب، وتركت عجلان نائماً في البيت، فحين ربطت حزمتها ووضعتها على رأسها أحسّت بأنّ ثديها يدرّ، خبطت عليه عدّة مرّات لتمنع تساقط الحليب من حلمته، وقالت: لا بدّ أنّ عجلان قد صحا، عادت مسرعة إلى البيت، فوجدت أختها دولة قد سبقتها على البيت، فوجدت الطفل يبكي وعيناه مقطّبتان من الرمد، فقالت لأمّه: اشخبي له في عينيه شيئاً من حليبك. شخبت له وأرضعته ففتح عينيه، أقعدته على الأرض ورمت له بعود ليلهو به، وقامت لتحتفل بأختها الزائرة، اعترضت دولة حين رأت الطفل يعبث بالعود، حذّرت نصرة قائلة: الرعناء أعطت ولدها حجراً، والعاقلة أعطته عوداً. فعلّقت نصرة: هذا يعني أنّ الرعناء طلعت أذكى من العاقلة ؛ لأنّ العود يقلع العين، أمّا الحجر فضرره بسيط، أليس كذلك ؟ قالت: بلى. وحين رأتها تمضغ في فمها الطعام ثمّ تخرجه وتضعه في فم ابنها احتجّت دولة وقالت: هذا لا يجوز دقّيه بين حجرين، أو اسلقيه ؛ لأنّ لعاب الكبير ونفسه يضرّان الصغير. فأمسكته أمّه وضمّته إلى صدرها، وتقول: سأعيده إلى بطني ليتغذّى من دمي. ثمّ أخذت ترقّصه في حجرها وتناغيه:

يا معطي الناس خمسة وستّة خلّ لي الفتفتّة

وتضيف: ولدي إن طلعت سنّه يا ويل الخبزة منّه

ودولة تنظر إليها بعطف، وتقول في نفسها: مسكينة نصرة تزوّجت غريباً حتّى أمّها لا تزورها، وأقارب زوجها لا يريدونها، تحسّ بأنّها غريبة.

خرجت نصرة ذات صباح إلى المسرح، حيث انفردت ببضع عنزات لها، كان الجوّ ربيعيّاً والأزهار متفتّحة بألوان شتّى، والفراشات تتطاير منتعشة ثملة، وعجلان يدرج خلف أمّه، يتعثّر في مشيته خلف السخلات، يحكم أصابعه على بعض الأزهار، والندى ما زال يلملم ذيوله منسحباً أمام أشعة شمس بازغة، التفتت إليه أمّه وغنّت:

يا خروفاً ورا أمّه يرمّ النفل خبطته بردني غشيماً جفل

ثمّ التقت بالسارحات، وكان من بينهنّ حماتها سلمى، ودار بينهما نقاش وعتاب، تطوّر إلى ملاسنة، وأججت بعضهنّ هذه المشاحنة، فوصل إلى المشاتمة والمشاجرة بالأيدي، فانتزعت سلمى عصا غليظة من يد راعية، وأهوت بها على رأس نصرة، ثمّ حال بينهما الرعاة، وعزلت كلّ واحدة إلى ناحية، حملت نصرة طفلها الباكي، أحسّت بدم يسيل من رأسها، عادت إلى بيتها، مرضت من جرّاء الضربة، إذ كانت ترتدي على رأسها وقاية مرصّعة بالخرز والودع والقطع النقديّة القديمة، فاخترقت إحدى الودعات عظم الجمجمة حين كسرتها العصا، تزامن ذلك مع مرضها بالحصبة، فمكثت طريحة الفراش شهراً كاملاً، ثمّ توفّيت تاركة عجلان مريضاً بالحصبة.

تفاقم الأمر بين أهل نصرة وأهل زوجها، والتفّ أقارب كلّ طرف حوله، فما كان من عودة إلاّ أن ذهب إلى بيت نسيبه وغريمه، وطلب من أقارب زوجته قتله ثأراً لابنتهم، وخلع ثيابه في الديوان، فألبسوه إيّاها، وردّوه إلى أهله، وسار الوسطاء بين الطرفين من أجل الصلح، أصرّ نصر على أنّ نصرة ماتت من الحصبة، ولا علاقة للضربة بموتها، غير أنّ أهل نصرة يصرّون على أنّ الضربة هي التي تسببت بموتها، وأخيراً احتكموا للقضاء العرفي فقرّر المنشد قاضي الدم، أن تلحس سلمى أو وليّها البشعة على أنّ نصرة لم تمت من جرّاء ضربتها، فقرّر نصر أن يلحس النار، وسافر مع بعض أقاربه إلى بشعة العيّادي بجبل الطور، ومعه سامعة وشاهدان وكفيلان، وأمضى ليلته في ديوان المبشّع نهباً للأفكار، تتنازعه الهواجس الجمّة، فيقول: والله إنّها ضربة جائرة وقاتلة لعلّ الودعة دخلت إلى المخّ، لكن كم إنسان ضرب بعصا أو بسيف عدّة ضربات وسالت دماؤه وبرئ، لست خائفاً من النار، قبل عامين لحسها يوسف بن هربيد، ولم تحرق لسانه، وبرّد أرضه، وأنا سألحس في

شأن ليس معيباً، لست متّهماً بسرقة، ولا باعتداء على عرض لا سمح الله، سأُحاول تبرئة ابنتي، وبالتالي لا نتعرّض للثأر من قبل أنسبائنا، والعيّادي سيلزمهم بأخذ الدية والصلح إن ثبت له أنّ الضربة أماتت المرأة، هل امرأة ابني هيّنة عليّ ؟ بل أعزّها أكثر من ابنتي، أيهون عليّ أن أرى عودة يفجع بزوجته التي يحبّ، أخشى أن يُجنّ، والطفل الصغير يُترك يتيماً، لعن الله الشيطان الذي يُغري الإنسان بالشرّ.

في الصباح أشعل المبشّع النار، وأخذ يقلّب عليها محماسة القهوة حتّى غدت حمراء، ثمّ اخضرّت وازرقّت، وطلب من نصر أن يقترب من حفرة النار، وأشار إليه بالقعود عن يساره، وعرض عليه الاعتراف بدم نصرة إن كان متهيّباً من لحس النار، وغير متأكد من براءة ابنته، أصرّ نصر على اللّحس، فطلب منه المبشّع أن يفتح فمه ويمدّ لسانه، ونادى الشهود والسامعة وقال: انظروا إلى لسانه قبل اللّحس وتأكّدوا من شكله. فبدا لسانه كجذر هالوك، كأنّه وضع للتوّ في فمٍ لا زال فيه جذامير أسنان مشتّتة نخرة، وبحركة بهلوانيّة شمّر المبشّع عن ذراعه اليسرى فبدت سمراء نحيفة، بعرض الحزام الجلديّ الذي يجلخ عليه الحلاّق أمواسه، جرد عليها الطاسة وشررها يتطاير، وقال: انظر يا نصر النار لا تأكل إلاّ المذنب، وكانت برداً وسلاماً على سيّدنا إبراهيم الخليل. وجردها على ذراعه مرّة ثانية وثالثة، وهو لا يعبأ لذلك، أو ينظر إلى ذراعه، بل ظلّ يحملق في الحضور، يعلو الزبد زوايا فمه، والشرر يتطاير من عينيه، وأضاف: يا نصر أنت ستلحس النار على أنّ نصرة ما ماتت من ضربة سلمى. أجاب نصر: نعم، ألحس على أنّ نصرة ما ماتت من الضربة بل من الحصبة. ولم يكن بمقدوره أن يضيف حرفاً واحداً على ما قال، إذ كلّفه لفظ هذا المقطع عناء شديداً لشرود لعابه ونشاف ريقه وجفاف حلقه، وأضاف المبشّع: نصحتكم منذ البارحة بالمصالحة ودفع الدية، والكلّ ذنبه على جنبه، يا شاهد، إن أحرقت النار لسان نصر، وطلع موغوفاً تقبل الدية، اكفل يا كفيل: الدية مقبولة والسيّة مقتولة. ثمّ أمر نصراً: الحس الطاسة ثلاث نوبات متتالية. فأكبّ نصر على الطاسة ولحسها ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة يُسمع للسانه طشيش رغم أنّه يابس كالعصا، وظلّ متورّماً ممدّداً خارج فمه، تعلوه قشور كقشور السمك المشويّ، ناوله المبشّع إبريق ماء، وطلب منه أن يتمضمض، ورشّ

له الماء على لسانه، وطلب من السامعة والشهود النظر إلى اللسان بعد اللّحس، وأعلن أنّ نصراً موغوف، وطلب من الطرفين التوقيع على صكّ صلح بشأن قبول الدية، بلغت الدية أربعين بعيراً، وبعد تدخّل الوسطاء بقي من الدية عشر نياق أعطاها حامد إلى الصغير عجلان، ولم يأخذ منها شيئاً.

(٦)

قدم صقير بالإبل من وادي عربة، فرّقها على أصحابها، وجلس في الديوان يغرس ركبتيه في الرمل، كان يشبه الحاشي في مبركه والتفاته وحركاته، وصقير هذا سليل عائلة رعاة، وشجرة عائلته شجرة حلوة، كما يقولون ؛ لا ينجب الرجل إلاّ ولداً واحداً، وحين يصبح الولد يافعاً يرافق أباه في رعي الإبل، وعندما يشيخ الرجل، ويصبح لا يقوى على المشي وراء الإبل، يصنع له ابنه حويّة، ويحمله على ظهره، ذات مرّة طلب والد صقير منه إنزاله على الأرض ليبول، بينما كان يسوق الإبل في الظهيرة، وأبوه على ظهره، أقعده على الأرض فلاحظ أنّ صفنه قد تدلّت لتلامس الرمضاء، فوضع صقير كفّه تحت خصية والده، بكى الشيخ، فسأله من خلفه بصوت عال: ما يبكيك يا والدي ؟ أتحسّ بألم ؟ قال: لا، لقد فعلت لوالدي كلّ ما فعلته لي باستثناء هذه الحركة، إنّني خجلت أن أضع يدي تحت والدي عندما أجلسته على حطبة من الرمضاء، لقد فقتني بهذه، وهذا ما يبكيني، أعرفت سّبب بكائي ؟ أمّا صقير فلم يتزوّج آثر تمضية عمره مع الإبل، يرعاها ويغتذي ألبانها، ويكتسي وبرها، واعتاد الناس أن يودّعوا إبلهم مع صقير وسليمان العبيد، وهما يتقاضيان أجرة زهيدة في السنة، أمّا عادل فلم يودع معهما وكان دائماً يقول: يا مودع المال بعه، ولا تصبح على البيع نادماً.

تحلّق القوم حول صقير ليسمعوا منه قصّة مقتل سليمان العبيد، وإعادته الإبل إلى أصحابها، فقال: بينما كنّا نقيل تحت شجرة طرفاء، أبصرنا على تلٍّ مشرف جوادين متّجهين نحونا، وحين اقتربا لاحظنا أنّ الفارسين جنديّان، يرتديان اللّباس العسكريّ البريطانيّ، فداخلت نفسينا رهبة، تسلّلنا إلى بطن الوادي الوعر، لم نلبث إلاّ قليلاً وإذ

بنا نسمع وقع حوافر الجوادين تدبّ على الصخرة المطلّة علينا، فأشار أحدهما إلينا بالخروج، محذّراً إيّانا من الهرب، كانت هيئة الواحد منّا رثّة، شعر طويل مغبرّ، لحية كثّة، ملابس ممزّقة، أرجل متشقّقة كأخفاف الإبل، وحين مثلنا بين أيديهما، خلعا قبّعتيهما، وإذ بشعريهما أصفر مسترسل، يلمع تحت أشعّة الشمس، وجف قلبانا، حاولنا التظاهر برباطة الجأش وحين حلاّ أزرار سترتيهما تحوّلا بقدرة قادر إلى امرأتين بحقّين ناهدين، وكانت دهشتنا أعظم حين خلعتا السراويل العسكريّة، فظهرت سيقان كلبّ الخيار، أسرت إحداهما سليمان العبيد، بينما أسرتني الأخرى، وذهبت كلّ واحدة بأسيرها إلى جهة معاكسة، كان لنا يومها أربعين يوماً لم نذق سوى حليب النياق، أمّا إن اشتهينا طعم الخبز سففنا حفنة من الدقيق المصرور في الجراب، حمحم الحصانان بعد أن دوّى طلق ناريّ، تردّد صداه بين الجبال، قحصت آسرتي مصوّبة بندقيّتها إلى رأسي، وبدت إمارات الغضب والحيرة على وجهها، قدمت صاحبتها، رطنتا فانقشعت سحابة الغضب بالتدريج، اقتادتني القادمة، وتوارت بي خلف شجرة كثيفة، فأيقنت بالموت، برد حيلي وانقطعت نياط قلبي، زرّت الأخرى ملابسها، واعتلت صهوة جوادها، وأخيراً ربتت هذه على كتفي، ولحقت بصاحبتها ورمت إليّ بعلبة تبغ، وحين انقشع الكابوس، قمت لأتفقّد صاحبي، فوجدته مستلقياً على ظهره، عيناه مفتوحتان، ومسمّرتان إلى السماء، دمه بحيرة متخثّرة الحواف حول رأسه، جررته إلى كهف قريب، وانتظرت لعلّ الله يسوق لي إنساناً يحمل فأساً لندفنه، فلمّا انحدرت الشمس إلى الغرب أغلقت باب الكهف بالحجارة. قال سليم: حسبنا الله ونعم الوكيل. أصلح صادق من جلسته وقال: من عقّب ما مات لعلّ بعضكم لا يدري من أين قدم جدّ المرحوم سليمان، كان طفلاً في تشاد فانتشر الطاعون في تلك البلاد، وعمّت مجاعة عظيمة، فاعترضت أمّه قافلة كانت متّجهة إلى الجوف في الصحراء اللّيبيّة، ورجتهم أن يأخذوا معهم الطفل، وكانت المسكينة في النّزع الأخير، يومها لم يتجاوز عمر الطفل الرابعة، لكنّه كان يعي بعض ملامح بلاده وأهله، أرعبه سقوط والده وإخوته الواحد تلو الآخر، رفض رجال القافلة حمله إلاّ جدّي سعد، قال: سأحمله ورزقه على الله، خشي أفراد القافلة أن ينقل إليهم المرض، ومن المفارقات العجيبة، أنّ القافلة ما كادت تجتاز

الصحراء اللّيبيّة إلى واحة سيوة حتّى فتك بأفرادها المرض، ولم ينجُ من الهلاك إلاّ سعد والطفل الذي أسماه سالماً، واصل سعد طريقه، وباع سنّ الفيل في مصر وقدم بسالم إلى النقب، وقسم له حصّة من الأرض، كبر سالم وزوّجه سعد امرأة سوداء، فأنجبت طفلاً أسماه مسعوداً، وهذا سليمان الذي يتحدّث عنه صقير هو ابن مسعود، كان جدّي سعد يقول: اختلطت الأمور لاحقاً على سالم، فهو لا يتذكّر من طفولته الباكرة سوى أنّ اسمه دافو، اختلط عليه ما كان مخزوناً في ذاكرته بما سمعه من الناس، الصورة الأخيرة التي ظلّت عالقة بذهنه شحوب الموت في وجه أمّه، كان ريقها جافّاً وصوتها مبحوحاً، تشيح بيدٍ سوداء يابسة كجريدة نخل قديمة كان منظر أمّه مخيفاً مرعباً، لأنّه شعر بارتياح حين احتضنته منها، ولكنّه حين ابتعد عنها أخذ في النحيب، ويلوذ بالصمت حين ينهره أحد أفراد القافلة. قال عادل: لا تخبروا أولاد المرحوم سليمان وزوجته، قولوا: ظلّ يرعى الإبل. ناولهم صقير عشرة جنيهات وقال: هذه له، أوصلوها إلى أهله.

تساءل بدر: أيش قصّة الثمناوي الذي قتله الإنجليز في رجل البحر ؟ أجاب العابد: عملهم لا يعمله إلاّ ساذج، تخيّلوا أنّ أحدهم أتى إلى معسكر الإنجليز في العوجا، وقال لحارس البوّابة: هالو مستر جوني. فردّ عليه الجندي: هالو. فقال: المنبطح ذاك فيه كلفتي. نادى الجنديّ زميلاً له، وأمره بالحراسة بدلاً عنه وأخبره بأنّه ذاهب مع هذا الرجل ليقبض على لصّ يختبئ خلف التلّ المقابل، وسارا إليه، وعندما ابتعدا عن المعسكر غافله الثمناوي، واستلّ شبريّته وطعنه في خاصرته، فأرداه قتيلاً وأخذ البندقيّة ولاذ بالصحراء، وفي اللّيل أخبر أقاربه بخطّته وأراهم البندقيّة، فقرّر أحدهم أن يذهب إلى معسكر الأسرى شرق رفح مستخدماً نفس الخطّة، وحين وقف أمام الحارس قال: هالو جوني. ردّ: هالو. قال: المنبطح ذاك فيه كلفتي. هزّ الجنديّ رأسه، ودوّى طلق ناريّ، علّق صبح: هذه قلّة العقل بعينها ! ألا يدري أنّهم تتبّعوا جرّة الجنديّ حين تأخّر، فوجدوه مضرّجاً بدمائه في الوادي، وأنّ خبره قد عمّم في نفس اللّيلة على المعسكرات كافّة ألا يدلّ ذلك على الغباء المستحكم ؟! ردّ العابد: السلاح هذا يجنّن، يجعل الإنسان يطيح في النّار ؛ أنسيتم قصّة عادل حين غشي سيّارة تصليح الهاتف، فوجد السائق والحارس نائمين بينما

انشغل الآخرون بتصليح الخطّ على بعد أمتار فقط من السيّارة، تناول عادل البندقيّة وهي مسندة على الكرسيّ، ملّها تحت عباءته وسار بها في شِعْبٍ وعر، دسّها فيه ولحق بجماعته ورافقهم إلى السوق ولم يفطن إليه أحد، جاءها ليلاً، تحسسها وضمّها إلى صدره، وقال: ليتها ألمانيّة.

عاد أبو موسى إلى بيته بعد التعليلة، حدّث زوجته بما سمعه اللّيلة من قصّة صقير والثمناويّ، طلب منها أن تعدّ له العشاء، أخرجت له ثفال الخبز، وناولته برمة الزبدة فتساءل: ما هذه ؟ قالت: زبدة. فتعجّب: كلّ هذه الزبدة من عنْز واحدة !؟ ليس عندنا إلاّ عنْز حلوب واحدة. مدّت إليه يدها بتفاخر قائلة: دقّ على هذه اليد الزبّادة. فقال: بل دقّي أنت على يد راعي هذه اللّحية اللّبادة. فقالت: أتلبد أنت عن الضيوف ؟ لولا أنّي أقصّر لك الحبل لما تركت لنا شيئاً، دائماً تورّط نفسك ؛ إمّا أن تعد إنساناً بسلفة، أو تتكفّل بقرى، لكنّني أُجهض مشاريعك المدمّرة نحن فقراء لا وجه يعرف ولا قرش يصرف، ثمّ ليس لنا أولاد كبار يعملون، ولا ذود تترازم، رأس مالنا وتجارتنا التدبير.

وصل زيدان من القصيّمة، حيث كان في زيارة لصديقه الحنّاويّ ليتصافيا على الفرس المفيّضة ؛ فأخذ له المهرة الثانية، وبعد العشاء قال زيدان: يا جماعة الخير الذي ما شاف يكذّب. تساءل بدر: خير، ما تشوف رديّة. أجاب زيدان: ولا ترى سيّة، أدركني الظلام حين اجتزت وادي الرتم، فقعدت وأشعلت ناراً، وأخرجت دقيقاً من جرابي، وضعته على نطع كان على ظهري، أزحت الرمل من تحته، صببت عليه الماء وعجنت على النطع، فجت النار، نحّيت الجمر جانباً وضعت قرصي في الملّة وصففت فوقه بعض الجمر لأنضجه بسرعه، لأنّني ما أن شممت رائحة الخبز حتّى قرقر بطني، وأنتم تعلمون مقدار جوع المسافر والشغّيل، وتلك المنطقة جوعها كافر، خشيت أن يحترق القرص فقلبته، وانتظرت قليلاً، ثمّ أخرجته من النار، طرحته على حطبة عاذر ورشقته بطرف عباءتي عدّة رشقات، وحككت أطرافه المحترقة بصوّانة، هو في الواقع يكفي لثلاثة رجال ولكنّي كنت مستقلّه جداً، رفعت رأسي حين سمعت فحيحاً، وإذ بي أبصر أفعى ضخمة على بعد ثلاث خطوات، رأسها كرأس الجدي، لفّت ذيلها كطارة الغربال، ورفعت جذعها وكأنّه جذع شجرة، كانت

النار بيني وبينها، فقرّرت أن أخلي المكان، وخطرت ببالي فكرة، فقسمت نصف القرص وأبقيته على الحطبة، إذ قدّرت أنّ رائحة الخبز هي التي جلبت هذه الباهشة، مثلما كانت رائحة القتار تأتي بالسود، حملت أغراضي بهدوء كي لا أثيرها وأستفزّها، وسرت ببطء في بادئ الأمر، وأنا لا التفت إلى الوراء، ثمّ انطلقت راكضاً إلى أن صعدت كثيباً رمليّاً، لا أعتقد أنّ آدميّاً قبلي قد اعتلاه، شربت جغمة ماء وافترشت النطع، وتغطّيت بعباءتي فحاولت أكل لقمة فلم تكد تجتاز زوري إلاّ بعد أن ألحقتها جرعة ماء، بتّ أراقب النجوم، وأنظر حولي فأرى نفسي محاطاً بغابة من جذوع الأشجار التي تشبه الأفاعي، وأخفض رأسي علّني أبصر ما يدبّ على الرمال الناصعة، وسرقني النعاس شيئاً يسيراً ؛ وهذا يدحض المقولة التي تنفي النوم عن الخائف والبردان والجائع، استيقظت وصلّيت الفجر إذ رأيت أنّ نجمة الصبح قد ارتفعت بمقدار رمحين، وصمّمت على السير مع برودة الفجر، حملت أمتعتي، وحين نفضت النطع تزحلقت الأفعى وكانت ملفوفة به، فسقط ما كان بيدي وبردت ركبتاي، فتقلّص جسمها، وانسلّت مبتعدة، فأخرجت قطعة الخبز وقسمتها، وضعت لها قسماً فابتلعته، فألحقتها بالأخرى، ومضيت إلى سبيلي، وكأنّ الأمان غمر قلبي حين رأيتها تأكل الخبز، تمنّيت لو أنّ لديّ الشجاعة الكافية لأصنع لها قرصاً آخر، التفتّ إلى الوراء فرأيتها تتبعني مباشرة، فلو تتأخّر قدمي لحظة لارتطم رأسها بعقبي العاري، لم أغيّر من وتيرة سيري، ولم يخطر السيف لي ببال إلاّ حين لامست يدي قرابه بالصدفة، حتّى إنّ لمسه أخافني بادئ الأمر، إذ أصبحت أتخايل من كلّ شيءٍ أسطوانيّ، وبقيت سائراً أعلو كثيباً وأهبط منخفضاً، وسلّمت أمري إلى الله، ومع طلوع الشمس تبدّت لي الوهاد القاحلة، واستأنست بالحجارة والأشجار، وبدأ الخوف يتبدّد شيئاً فشيئاً حين وصلت إلى وادي الأزارق الذي تغطّي أرضيّته الحجارة الملساء، حين اجتزته وصعدت حفّته المقابلة سمعت خبطاً ورائي، فالتفتّ وإذ بالأفعى تضرب الأرض بذيلها وكأنّها تريد إثارة انتباهي ثمّ عادت أثرها، وكأنّها كانت تودّعني، وأنا لا أصدّق إلاّ أنّها تسعى بين رجليّ، واصلت السير ومررت برعاة إبل، وحدّثتهم بما جرى لي، فوجدت أنّهم لم يستغربوا الأمر، وعندهم لها قصص كثيرة، ومن ضمن ما قالوا لي: إنّ حدود منطقتها من التل الأصفر إلى وادي

الأزارق، دائماً ترافق المجتازين، ولا تتعدّى هذه الحدود، وهي مسالمة إلاّ إن استفزّت، واعتادت طعم الخبز من المسافرين، حاول أحد المارّة قتلها قبل عامين، فرمى رأسها بسيفه المسلول فزاغت عنه، فهاجمته ولدغته وأردته قتيلاً، ودفنه الناس مكانه، لأنّهم وجدوا جسده متفسّخاً.

ظلّ القوم يستمعون إلى زيدان وهو يروي قصّته مع الأفعى بانتباه وسكينة كأنّ على رؤوسهم الطير، قال صادق: الحمد لله على سلامتك، سوّلقمة لوجه الله الذي نجّاك، اللّقم تزيل النقم. فقال: إن شاء الله نفعل ذلك ليلة الجمعة. علّق عادل: قصّتك هذه أكثر هولاً من قصّة الضيف الذي دخل الثعبان بين رجليه وهو جالس فملّ يده وأمسك برأسه، فظلّ الثعبان يحاول تخليص نفسه، يقلّص عضلاته فيرفع ذيله حِجْرَ الضيف، وهو يحكم الضغط على رأسه بصمت، لم يستغث أو يطلب المساعدة من أحد، فظنّ به رجل يجاوره ظنّ السوء، لأنّهم حين دعوه لتناول طعام العشاء لم يقم إذ كان يصارع الثعبان، فقال جاره: ضيفكم هذا ناصب، والأكل ليس له على بال. فألقى الضيف بالثعبان المخنوق في حجر المتحدّث، فقفز من مكانه مذعوراً، فقال له صاحب الديوان: تستحقّ ذلك، وقرّب الضيف وذبح له ذبيحة تقديراً لشجاعته. قال سليم: دعونا من سيرة الثعابين، سنحلم بها الليلة. سأله بدر: ما الذي حدث لكلبك ؟ فأجاب: هامل الرجال وهامل الكلاب لا ترجُ خيره، شكوت همّي إلى صيّاد محترف، أخبرته أنّ هذا الكلب دائم الرقاد، حتّى لو داس أحدهم على ذيله لا يتحرّك. فقاطعه زيدان: سمعت ممن يقتنون كلاب الصّيد: إن أردت أن تجعل كلبك جسوراً فما عليك إلاّ أن تجدع أذنيه وتطعمه ما جدعت منهما، فيصبح عقوراً يقظاً. استأنف سليم حديثه: أشار عليّ الصيّاد أن أرمي له برأس ضبع وحين عثرت عليه، وضعته عند رأسه وهو نائم فلم يستيقظ، ابتعدت عنه وحصبته بحصاة، رفع رأسه فرأى رأس الضبع، ولكنّه لم يكترث، وأعاد رأسه إلى الأرض. قال عادل: كلبك هذا مريض. عاجله سليم: طوّل بالك، جئت إليه متعجّباً من عدم اكتراثه برأس الضبع، دثرته برجلي، وإذ به قد فارق الحياة من الخوف. علّق بدر: ميتته خير من حياته.

قام صادق وحمل كيس تبغه وزناده، قال وهو يهمّ بالانصراف: على كلّ الأحوال

فالكلب أوفى المخلوقات، اقتنيت كلباً واتّهمته بأكل ديك لي، فأخذته إلى طور، ربطته هناك ورجمته بالحجارة، سالت دماؤه وارتمى على الأرض لم يتحرّك، غادرته وأنا متيقّن من موته، وفي صباح اليوم الثاني رأيت جرو صابر ينقضّ على دجاجة ويأكلها، فأدركت أن كلبي بريء، فندمت على ما فعلت، ورجعت إليه لأدفنه، ويا لدهشتي حين وجدته حيّاً، ويا لندمي حين رأيت أنه هشّ وبصبص بذيله فرحاً بقدومي، ناسياً ما فعلته به بالأمس، ولو فعلت ما فعلت مع أقرب الناس وأعزّهم لي فلن يغفر لي هذه الفعلة، فأعدته إلى البيت وداويته، وكلّما رأيته يجرّ رجله على الأرض أثناء العلاج أحسّ وكأنّه يشدّ قلبي من نياطه.

(٧)

بقي عجلان في بيت جدّه نصر، تدير شؤونه عمّته سلمى، وعاد والده للعمل في بلاد الشمال، ذات مساء ذهبت سلمى لبيت العرّافة، ناولتها قرشين من فضّة، لفّتهما العرّافة في خرقة، وقالت: عودي إليّ في الصباح كي أخبرك ما رأيت وأنا أتوسّد فضّك، كانت سلمى تخشى أن يثأر أهل نصرة لها، خصوصاً أنّهم لم يأخذوا شيئاً من الدية، في الصباح عادت سلمى إلى العرّافة، فأكّدت لها أنّ تخوّفها في محلّه، ولكن الذي يقتلها ما زال طفلاً صغيراً، كانت أوصافه التي أوردتها تنطبق تماماً على أوصاف عجلان، فجنّ جنونها وأضمرت في نفسها التخلّص من عجلان، استمالته إليها، فأخذت تدلّله، تشوي له البيض، وتوصي الورّاد وزوّار المدن كي يحضروا له الحلوى من الأسواق، حاكت له ثوباً جديداً وطرّزت قبّته وأكمامه، أخذت تصحبه معها إلى المراعي، تحلب له عنزاً وتسقيه حليبها، ذات يوم قائظ حين كنّت الرجل، ولا يرى على طول المدى إلاّ السراب، كانت سلمى تخبز على الصاج، تقابلها الأغنام اللاهثة في خصّها، بينما نام أبواها نومة القيلولة، لمعت في رأسها فكرة شرّيرة حين قلبت الصاج عن النار، كان عجلان يرتدي طاقّة جدّه ويلهو عند رأسه بأكوام من الرمل، يكوّمها ويهدمها، قالت في نفسها: والله هذه النار تنضج جملاً، نادته رافعة رغيفاً بيدها، وصلها مسرعاً من الرمضاء، وطئ على قناعها، دفعته

بكتفها إلى الجمر وقامت حاملة الثقال إلى الخصّ، وتشاء الأقدار أن يهبّ لنجدته بائع مرّ بحماره تلك اللحظة، هرع إليه وانتشله من النار، وأخذت سلمى تولول وتصرخ: ظننت أنّه يسير خلفي كيف يقع في النار ألم يبصرها ؟ استيقظ جدّاه، وتصيح سلمى: الله يجازيني لماذا لم أحمله في حضني وأعود للخبز. طلب البائع أن يحضروا له زيت زيتون، وأخذ يدهن ساعديه ويديه ووجهه، ويقول: الله ستر ولطف، طاقيّة الوبر التي كان يلبسها منعت النار من أكل رأسه، يبدو أنّه عثر بعود فوقع في النار. وظلّ جدّه يطبّبه، وحين عاد أبوه لم تبرأ حروقه بعد، فعلس سلمى ضربة موجعة لأنّها أهملت الصبيّ، ولم يخطر له ببال أنّها هي التي دفعته في النار، ونفر الطفل من عمّته وتعلّق بأبيه، كان يخشى أن يسافر ويتركه، فعمد إلى ربط يده بثوب والده ؛ حتّى يستيقظ حين يقوم، إنّه ينوي مرافقته إلى البلاد التي يعمل فيها، ظلّ ملتصقاً بأبيه، ينام في الديوان إن أطال أبوه السهر، فيغطّيه أبوه بجسمه، ذات مرّة استيقظ والده لأنّه أحسّ ببوله دافئاً يصل إلى رجله، وانتظر إلى أن أكمل بوله، ثمّ انسلّ بهدوء ليغسل طرف ثوبه وساقه، كان عليه حنوناً مشفقاً، يحدّثه كلّ ليلة بقصص هادفة ويوصيه: يا ولدي، تخوّل للرجال ولا تعمّمها، لأنّك إن قلت للرجل يا عمّ وضعت نفسك تحت كنفه، أمّا إن قلت له يا خال لا يهمّ، فالخال مخلّى ليس له عليك ضربة لازم، ودائماً قل: اللّهم كفّ عنّا شرّ ابن آدم، إذ اعتاد سبع في غابة أن يبدأ يومه ويختمه بهذا الدعاء، فولد له شبل، فلمّا شبّ وترعرع احتجّ على دعاء أبيه، قائلاً: من هو هذا الذي تهابه وتخشاه، ليس على ظهر البسيطة من هو أشدّ قوّة منّي، حذّره أبوه من الغرور والطيش، ولكنّه لم يرتدع، وأصرّ على البحث عن ابن آدم ومنازلته، فسار أيّاماً في الهضاب والوديان إلى أن عثر على مخلوق استغربه، فسأله: من أنت ؟ فقال: أنا ابن آدم. فدهش حين رأى حجمه، وتعجّب من خشية أبيه له، وطلب منازلته، فقال ابن آدم: دعنا من المصارعة، وليذهب كلّ منّا إلى شأنه. ولكن أصرّ الشبل على ذلك، فقال ابن آدم: إذن انتظرني كي أستعدّ. فوافق الشبل، وتساءل ابن آدم: من يضمن لي عدم هربك إن رأيتني مستعدّاً ؟ إن كنت صادقاً مكنّي من ربطك إلى جذع هذه الشجرة. فأخذت الشبل العزّة ورفع يديه مع طول الجذع، وظلّ ابن آدم يحزمه بالحبال إلى أن وثق أنّه لم يعد يقوى على

الحركة، وسأله: هل تستطيع أن تطلق نفسك ؟ ليتأكّد من متانة ربطه وحبله، فلم يستطع الشبل حراكاً، فأخذ ابن آدم يقطع من العصيّ المناسب للضرب، ويكوّم عند الشبل المكبّل، وشرع في ضربه وهو يصيح ويستغيث إلى أن جعله جثّة هامدة، ثمّ فكّ الحبل فوقع الشبل على الأرض مثخن الجراح، تركه وذهب، فأخذ الشبل يلعق جراحه، وبعد أيّام تمكّن من الزحف عائداً إلى أبيه، وصله وقد تماثل للشفاء، وقبل أن يسأله أبوه عن رحلته قال الشبل: اللّهمّ كفّ عنّا شرّ ابن آدم ومكره.

نادى عودة ولده ذات مرّة، حكّ لحيته الكثّة بذقن الصغير قائلاً: أعديه يا لحية أعديه. والطفل يقرقر حين يشوّكه شعر اللّحية الذي يشبه شوك القنفذ، يخز ذقنه ورقبته ووجنتيه، إنّه يريده أن يكبر بسرعة، ويصبح رجلاً بلحية.

(٨)

علم عودة بمرض والده فعاد بابنه ومكث بجواره، فقال له بصوت مرتعش: اسمع يا عودة، والله ما نقلت صحّة بعد لحس البشعة، نحن يا ولدي قد أسأنا لأنسبائنا، اذهب عليهم بعجلان، واستسمح خاطرهم، أوصيك أن لا تتكالب على الدنيا، ولا تقلق على الرزق، قبل سنين تحرّك عدد من الرجال من وادي الجراف إلى جبال الشراة لنهب إبل، وهي جبال عصيّة، يقول أهلها: نحن في جبال الشراة نسمع بالشرّ ولا نراه، وعندما اقترب المغيرون من الإبل الراتعة، قعدوا في ظلّ طور يعدّون الخطّة لشنّ الإغارة، درسوا طرق الانقضاض وكيفيّة الهروب والحماية، وبينما هم جلوس شاهدوا راعي غنم يتّجه نحوهم بأغنامه، فاختبؤوا بين الحجارة، خشية أن يراهم الراعي ويشي بهم، أو يحذّر أهل المنطقة لأنّهم يتخوّفون من الغرباء الذين يبدو من هيئتهم أنّهم غزاة، فمرّ الراعي بالقرب من أحدهم بغنمه، فشاهد الرجل المختبئ إحدى النعاج تنحرف عن القطيع، وتدخل كهفاً محاذياً للممرّ الذي سارت عليه الأغنام، وبعد أن ابتعد الراعي بقطيعه، تعجبّ الرجل من طريق هذه النعجة، فقال: أيلاقي هذا الكهف الطريق من الخلف واعتادت هذه النعجة

السير من هذا النفق الظليل أم أنّ به عشباً تفضّله ؟ دخل وراءها، فذهل حين رأى ذئباً هرماً أعمى قد افترس النعجة، وأخذ يعمل أنيابه في لحمها، فصاح: يا الله يا من أرزقت هذا الذئب الأعمى في وكره أرزقني.

حين التأم شمل العصابة من جديد للتخطيط للإغارة استنكف هذا الرجل عن المشاركة ولم تفلح الجهود المكثّفة في ثنيه عن نيّته، وقرر العودة إلى بيته، فقرّعته زوجته وأخذت تلومه قائلة: غداً سيعود أصحابك بالقلائع واللقائح، كيف تعود بعد أن غدت اللّقمة قريبة من الفم، أجننت أم أنّ أحداً منهم أزعلك ؟ وظلّ صامتاً ساهماً.

بعد أيّام وصل قطيع من الإبل وبرك قائدها أمام بيته فعقله، وعُلِم فيما بعد أنّ رفاقه جوبهوا بمقاومة شديدة ؛ إذ استبسل الرعاة وجاءهم المدد، فلحقوا بالمغيرين وقُتِل عدد من الطرفين، فجفلت الإبل وظلّت هائمة على وجهها إلى أن وصلت إلى بيت هذا الرجل. قال عودة: نعم الأرزاق والأعناق بيد الله. وأضاف نصر: أُوصيك خيراً بأمّك وأختك وعجلان. فقال: ما بك يا رجل، أنت بخير، في الواقع أفكّر في أن أزوّجك، لأنّ والدتي عجّزت. فقال: أهمّ شيء أن تزوّج نفسك وتأتي بعمة طيّبة لعجلان، خذ بنت سلاّم، وأعطِ أختك إلى شاهين، أمّا أنا فخير وخاتمة خير. قال عودة: أريد أن أشيل عجلان لقد نام سآخذه إلى مرقده، وأعود إليك، إنّي مشتاق لحديثك الطيّب.

اعتاد عجلان كلّ صباح أن يرتدي عباءته الصوفيّة القصيرة ممسكاً بعصاه، وينعق لأغنامه ويتبعه القطيع تسوقه زوجة أبيه لتخرجه من البيوت يباريها الكلب، الذي كثيراً ما يغير على السخلان الصغيرة، وكأنّه يحثّها على السير للّحاق بأمّهاتها في حين تحاول هي نطحه بقرونها حديثة البزوغ، فيهرّ عليها فتترك المداعبة، وتصفّق بآذانها في الهواء، وهي تسارع للانضمام إلى القطيع، وبمجرّد أن تعود زوجة أبيه، وتصبح الطريق أمامه سالكة إلى المراعي، يخرج عجلان شبّابته، ويبدأ في النفخ محاولاً إخراج صوت وأداء لحن، كالذي يسمعه من الرعاة المحترفين الذين يتخاطبون عن بعد بواسطة الشبّابة، وفي المسرح يسمع الغناء الصريح والتذمّر الواضح من حياة الرعي، فالطبيعة الخلاّبة تطلق للرعاة العنان ليعبّروا بما يجيش في صدورهم من أماني وهموم، ويستغرب من هذه الصراحة التي لا

يستطيع الإنسان أن يتفوّه بها في الظروف العاديّة، فتقول راعية:

ويا يمّة بعيد أمّي ولا لي للغنم نيّة وودّي لي صبيّ غندور يجرجر بالعراقيّة

وتصيح أخرى: قوطر زماني كلّه ومع الغنم صرّاحة

فالتيوس والكباش تبعبع وتصول حول الماعز والنعاج، فتثير الشبق في هذا الجوّ الربيعيّ المتبرّج، حيث تتفتّح الأزهار، ويتضوّع عطرها، ورائحة عبق الأرض التي تذكّر بخلق آدم لأوّل مرّة من هذا الطين اللاّزب الذي يشبه الأديم، والفراشات الملوّنة التي تطير مثنى فوق كلّ مكان، والإناث الصوارف التي تنقّي أحياؤها، والنياق تحنّ، والأبقار لا يهدأ لها خوار. سمع عجلان عنزاً تطرّق بصوت مرتفع ومتواصل، وقفت خلف القطيع لا تروم حراكاً، بينما جفلت عنها أخواتها وابتعدت فعاد إليها فرأى ورلاً قد لفّ رجل العنز بذيله، في حين يرضع ثديها بنهم، وزبد الحليب يخرج من شدقيه، ضربه بالعصا فتوقّف عن الرضاعة، ونفخ جسمه، ترك العنْز وسار يتهروك، وبطنه كالسّعن يترجرج فيه الحليب وتبعه عجلان بالحجارة، وتذكّر جلد الورل الذي رآه في عدّة جدّته، وكلّما سألها عنه تقول: اترك هذا الجلد، إنّي أنقعه بالماء، وأضع فيه الزيت أو السيرج أو السمن وأستعمله علاجاً للدغ الثعابين.

ثمّ مرّ بحمد فرآه يشخب حليب عنز في فيه، وأحياناً يسيل الحليب على شاربه وذقنه، فيعصره في اتجّاه شفتيه فيمتصّه، وإحدى حلمتي الثدي متضخّمة، وكأنّ بها علّة والأخرى ضامرة، ويلقّ الثدي بيده إلى أعلى ليدرّ الحليب.

(٩)

قعد عادل في الخصّ، وهو يحتزم على عباءته بعد أن طمر ثوبه في الرمضاء، أخرج من صفنه خطّافاً من الرتم ونادى: يا ثريا، هاتي كرة الوبر. فأرسلت بها يحيى وشرع عادل في نسج الطاقيّة ويغنّي:

والله لأدورع عربكم خطّاف يدورع طاقيّة

يسلّك الخيط كلّما تعكرش، ويخلّص الكرة ممّا علق بها من أعواد صغيرة أثناء حركتها

على الأرض، يقيس الطاقيّة على رأسه كلّما أنجز عدداً من الأشوار، إن وجدها ضيّقة وسّع الدائرة، وإن كانت واسعة ضيّقها، وإلاّ سار على نفس الوتيرة مرّت به آمنة زوجة أخيه بدر، وقالت: مبروكة، تقطّعها بعرق العافية. فردّ: الله يعافيك ويسلّمك. قالت آمنة: عمّي عامر في الديوان عند بدر. قال: أصحيح ما تقولين ؟ قالت: نعم وصل مع الضحى. فقال: والله أنا ما طلعت، طمرت ثوبي، هذه الحرمة كسلانة، بودّي أن آخذ عليها أخرى، اضرب النسا بالنسا، والهجن بالعصا. فقالت: والله أنتم أيّها الرجال، ما أنتم بفالحين إلاّ في هذه الشغلة، كان الله في عوننا نحن النساء، نشقى وننصب طيلة النهار، وحين يخيّم الليل نطارد للرجال، وكأنّنا مطالبات بدم. ضحك عادل ونادى: هات لي ثوبي يا يحيى.

وصل عادل إلى الديوان، قام عامر ليصافحه، وقد جهّز بدر بكرج القهوة، سأل عامر: علمت أنّك شرّقت على البلقا يا عادل، هات لي القصّة من أوّلها. فقال: قصّة طويلة لا تنتهي في ليلة. قال عامر: أيش ورانا، لا زرعة ولا قلعة، صب له فنجاناً يا بدر، خلّ الكيف يحبك. قال عادل: جاء إلينا رجل، يريد شراء تبن، ومرّة يريد بعيراً صافياً، فأخذته إلى البقع، تفرّج على الإبل ولم يشتر، وظلّ في ديوان العقبي، وبتُّ عند صديقي البلويّ، ولمّا روّحت في الصباح وصلت إلى بيوتنا هذه مع الظهر، وإذ بالناقة ليست في مربطها، فظننت أنّ أحد الجيران قد استعارها، سألت العيال، فقالوا: ظنّنا أنّك حضرت في الليل وأخذتها، فقصصت الجرّة، وإذ بأثر صاحبنا قد حلّ رباطها، وطار بها إلى الشرق، فظللت أتقصّى أخبارها، وأرمي وصفها، إلى أن علمت أنّه باعها في سوق الكرك، مدّعياً أنّه اشتراها من النقب، ثمّ بيعت في البلقا، فتتبّعتها إلى تلك البلاد، فاستشرت صديق قديم عن كيفية التعامل مع هذه القصّة، فأشار عليّ أن آخذها مثلما أُخذت من بيتي لأنّني إن أخبرتهم بالحقيقة فسيقولون: نحن اشتريناها بكذا، فإن كانت ناقتك ومعك شهود، ادفع لنا نقودنا وخذها، أمّا إن فقدت الآن فسيبحثون عن الرجل الذي اشتروها منه، وهو بالتالي سيبحث عن الرجل الذي باعها أوّل مرّة، وهذا بالطبع هو الذي سرقها، وسينتهي عنده البحث، وهم يعرفونه لأنّه من منطقتهم.

تساءل عامر: طيّب، هل وصلت إلى البيت الذي فيه الناقة ؟: نعم، جلست في الديوان

وتناولت عندهم العشاء، وكادت الناقة تفضح أمري بحنينها والتفاتها إليّ حين وصولي، وفي الليل قمت إلى الخلاء وعرّجت عليها، وقرّبت من أنفها جرزة من عشب السعدان الذي كانت ترعاه في بلادنا، كنت قد أحضرته معي في مخلاة، وهي من نصائح رعاة الإبل، فإن اندحر لهم بعير مع قطيع غريب، فإنّهم يعرضون عليه العشب المفضّل عنده، فيترك القطيع، ويعود إلى مرعاه. استفسر بدر: هذه من نصائح صقير ؟ فقال: لا، هذه من نصائح الناجي راعي الوُضَح، ففبّت الضمّة من يدي، وكأنّها كانت نائمة فأيقظتها، انطلقت تعدو إلى الغرب، وعدت إلى منامي.

في الصباح أكلت اللّبة وشربت القهوة، وسمعت حديثاً عن ناقة قد نفشت في الليل، ثمّ استأذنت بالانصراف، وأنا لست متأكّداً من أنّهم سيسمحون لي بالمغادرة، أخبرتهم أنّني ذاهب إلى حمّامات معين لأتداوى، وحين عدت بعد أسبوع وجدتها تجترّ السعدان في مبركها، وكانت قد أُخذت منه قبل أربعين يوماً. قال عامر: هذه حيلة عجيبة، لو أنّك أخذتها وأتيت بها لتبعوك، هم ظنّوا أنّها ذهبت إلى أحد المراعي، ولم يقصّوا جرّتها. علّق بدر: يبدو أنّ أهل الشرق لا يجيدون قصّ الجرّة كأهل بلادنا. أضاف عادل: والله إنّي قصصت جرّتها في وادي عربة، وهي تجري كالنعامة، تصوّر أنّها طوت البلاد في ليلة ويوم !. سأله عامر: كيف بلاد البلقا ؟ قال: صدق من قال: مثل البلقا ما تلقى. بلاد كلّها جبال عذيّة مغطّاة بالأشجار، وبها عيون حلوة والحطب أكوام، الربيع طول الذراع، لم أشاهد الجميّز والبرتقال إلاّ في الغور، وهي باردة في الشتاء، تسقط فيها الثلوج، ويهتمّ أهلها بالقهوة اهتماماً كبيراً، سمعت من أحدهم أنّ رجلاً نزل بأسرته إلى جوار قوم فراعهم ما حمل من بكارج ومعاميل قهوة فتساءلوا أهو كيّيف بالفعل أم هي للمظهر فقط، فقرّروا اختباره، نادوه ذات صباح، وصبّوا له فنجان قهوة، تناوله وأدناه من فمه، وقبل أن يرتشف منه أعاده إلى الصينيّة دون أن يذوقه، وعندما سُئل عن السبب قال: قهوتكم صايدة. فتّشوا بكارج القهوة، فوجدوا في إحداها خنفساء، فسكبوا ما بها من قهوة، وفي اليوم الثاني استقدموه، وصبّوا له فنجاناً شربه فسألوه عن القهوة، فقال: قهوتكم هذه معاش وكيف، فلم يفهموا ما أراد إلاّ بعد أن فتّشوا بكارجهم، فوجدوا في إحداها حبّة شعير محمّسة ومدقوقة مع

القهوة، فدهشوا من تذوّقه، وفي اليوم الثالث أعادوا الكرّة، وصبّوا له فنجاناً من بكرج بكر، قالوا: ما رأيك في القهوة اليوم ؟ فقال: هذا البكرج مصروف منه فنجان ومضاف إليه فنجان. وحين تحرّوا عن ذلك، أخبرهم الذي أعدّ القهوة بأنّه بعد أن أنضجها صرف من البكرج فنجاناً ليذوقها، وأضاف إليه ماء بنفس الحجم، عندها شهدوا له بأنّه كيّيف، بل قاضي كيف. قال بدر: والله هذا زي الكذب، كذا مرّة كنّا نشرب شاياً، وتخش النملة في فم أحدنا فلا يحسّ بها إلاّ بعدما تلسع لسانة، ولا يطعمها إلاّ بعدما يخرجها بيده ظانّاً إيّاها من حتل الشاي. وأضاف عامر: يدمس أحدنا بكرج القهوة في النار، ويحطّ عليه حبّتين من القهوة، يزيدها ماء كلّما خسّت، وأغلبنا لا يعرف الثنوة من الراس، أريد أن أسألك عن موضوع لكنّي نسيته، آه تذكّرت: أيش أخبار أبي حنيك ؟ أجاب عادل: سمعت أنّه يسكن بيت شعر، يجلس وراء بكارج القهوة، وأحياناً يمدّ يده داخل ثوبه إلى إبطه، وكأنّه يمسك بقملة يقصعها بين ظفري إبهاميه، يفلّي ثوبه كما يفعل البدو، وسمعت أحد الجنود يقول: كنت أرعى الغنم والناس يودعون معي شياههم، صدف ذات مرّة أنّني ألقيت بحجر على شاة تأخّرت فكسرت رجلها، وعندما عدت بالقطيع، رآها أبي وضربني كفّاً رغم أنّني أنكرت ضربي للنعجة، وفي اليوم التالي تركت أغنامي راتعة واصطحبت راعياً من قرية ذيبان، وذهبنا إلى الزرقاء، حيث يقابل أبو حنيك المتطّوعين الجدد يوم الاثنين، وصلنا الزرقاء يوم السبت، أذن لنا المسؤول بالمكوث في خيمة مخصّصة للّذين يودّون مقابلة أبي حنيك، قدّموا لنا الطعام، وهيّئوا لنا المنامة، أُدخلنا صباح الاثنين فرداً فرداً عليه، كان يجلس في الخيمة وحيداً، مدّ يده وصافحني فأحسست بأنّه يفرك يدي بين أصابعه، وقلّبني من أخمص قدمي إلى رأسي، فقال: الجيش نعمة، بكرة تستلم الراتب، وتلبس اللّباس العسكريّ، فيحترمك الناس، وتحكم وترسم، وتروّح إلى أهلك، ومعك بندقيّة، تاكل هنا اللّحم والسمك والدجاج، ويصير وجهك زي الباطية. وافق على قبولي فأخرجني الحاجب من باب الخيمة الأيمن إلى داخل المعسكر، لاستلم الملابس، ونقلت إلى معسكر التدريب، في حين أُخرج صديقي من باب الخيمة الأيسر إلى الشارع، وعلمت أنّه لمّا أحسّ يده الطريّة، ورأى هيئته الخجولة، قال له: أيش تريد من الجيش، كلّه تعب وشقاء غداً يذبحونك

وتذهب إلى أهلك في كيس، فتبكي أمّك عليك. فاستنكف صاحبي، وعاد إلى أهله راضياً. نظر عادل حوله فقال: أشوف الرجال نعست، أين ذهب الرجال القرانيس، حيث يظلّ رأس أحدهم كالدبّوس، لا يركز ولا يرقل. علّق بدر: أخشى أن تقضي هذه السنة على ما بقي منّا، سنة السبعة والأربعين سنة مسبوعة، ظهرت فيها النجمة أمّ ذيل، وفيها مات حامد ونصر وعجوزاهما، وقالوا: إنّ اليهود ملؤوا بلاد الشمال والقدس، وانتشر معهم الفساد، الذي عمّ وطمّ يافا أصبحت ملاذاً لبنات الهوى، ولا يشتهر مطرب إلاّ إذا غنّى في يافا، تغيّرت سلوك أهلها وأخلاقهم، تصوّر أنّ المرأة اليافاويّة تقول لزوجها: إمّا أن تروبنّي أو تطلّقني، تريد الذهاب إلى موسم روبين على شاطئ البحر حيث يسود الزحام، فترتع القرعا مع أمّ قرون، وما انتشر الترف إلاّ تبعه دمار. علّق عامر: لا تبعدها ولا تقرّبها، أخبرتنا امرأة من عشيرتنا بأنّ شابّة عاجت عليها لترتاح من عناء السفر وكانت تحمل طفلاً ممقّطاً، قعدت في الخصّ، غسلت وجهها ووجه ابنها، حلّت قماطه فانتعش في الظلّ، أرضعته ثمّ أخذت ترقّصه في حجرها تمسكه من إبطيه، والمصيبة أنّها لم تجد ما تناغيه به إلاّ الشتائم، تشتم أمّه وأبيه و...، فقالت المضيفة: فقلت في نفسي إنّنا لن نكمل هذه السنة في مسكننا هذا.

في الصباح رمى بدر دجاجة كانت تنبش الحبّ بالعصا فوقعت، نادى عادل: دونك دجاجتك يا آمنة. قامت فوجدتها ملقاة على مقربة من مطمارة الحبّ حملتها من رجليها، وأسرعت بها إلى بيتها، كفأت فوقها طنجرة نحاس، وضعت حفنة من الرمل على قاعها، وأخذت تطحنه بحجر فيحدث الطحن جعجعة عالية، ترفع آمنة طرف الطنجرة وتنظر إلى الدجاجة، وأخيراً وقفت الدجاجة، وأخذت تنفض ريشها كأنّها تبترد، ثمّ لحقت بالدجاج بعد أن قلّبتها، فشاهدت دمغة زرقاء على جناحها الأيسر الذي ظلّ مرتخياً، غسلت آمنة يديها وقامت تعجن في صحن الفخّار الضخم، ملّست العجين بقليل من الماء، وهي تقول: أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله. وتخبط بيدها على العجين وتقول: صالح.. صالح لا عذب ولا مالح، مرّ عليك النبيّ بعصاته، وباركك بصلاته وزكاته. ثمّ غطّتها بكيس أبيض، وانصرفت لإحضار مقباس من النار لتخبز، نظرت إلى الشمس

فعرفت أنّ البدر قد تقدّم فتمتمت: قيّلت القايلة على أمّ خنانة سايلة، فرأت ابنها قادماً يحمل في يديه بيضاً صغيراً منقّطاً وكأنّه يتحرّك، فعرفت أنّه بيض أفعى، فصاحت به: ارجع هذا البيض إلى مكانه، وإيّاك أن تلمسه، إنّه بيض أفعى، فهي تلحق من يأخذ بيضها أو يكسره أو يعبث به، أعده إلى مكانه بسرعة قبل رجوعها، واغسل يديك. نظرت إلى زندها وهي مشمّرة كمّها حيث كانت تعجن، فرأت السوار يزين معصمها، فأرادت أن تتباهى به أمام جاراتها الجالسات عند خالتها، فنادت شائحة بيدها لتريهن السوار: أعطي العرب غربالهم. فعرفت ثريا مغزاها، فردّت عليها مظهرة سوارة مبرومة بيدها وقالت: ما عندنا غربال أحد.

(١٠)

لاحظ عامر أنّ حياء الناقة قد تضخّم، ويفرز سائلاً غليظاً أصفر، وغدت دائمة التلفّت والحنين، فقال على مسمع من زوجته: الناقة حائل، سآخذها إلى جمل الهوّاريّ لأطلقه عليها، سار بالناقة إلى أن بلغ مربط الجمل، فعرف الهوّاريّ مرامه، قابله قائلاً: أتريد أن تشبّي الناقة، واضح أنّها تشتهي الفحل، والجمل هائج وله هدير، انتظر لنأخذه إلى الوادي. هناك بركت الناقة، والجمل يمصع هادراً ضمر بطنه من السياق، تخرج لهاته حمراء مزبدة، ويرشح مصنّه، فقعا عليها إلى أن فدر ونزل يتهادى، وعاد عامر بناقته، ولكنّه لم يلاحظ أنّ حياءها قد ضمر وقطف، أو أنّ ذيلها شوّل بعد أسبوعين من عرضها على الفحل، فعرف أنّها لم تنقل وتحفظ، وعادت سيرتها الأولى، برّكها وفتّش حياءها، فشاهد نتوءات بارزة كالثّآليل، فوذمها بقصّ هذه الزوائد، وفرك مكانها بالملح، وبعد أسبوعين أعادها إلى الفحل، فوجده يهدر ويمصع، وحين علاها خلف البيت فردوا عليه مشمّعاً، وسرّ حين شوّل ذيلها بعد مدّة، فتأكّد من لقاحها وقال لامرأته: الناقة شايل لا تجرّوها أو تحملوا عليها حملاً ثقيلاً. بعد ثلاثة أشهر نفش بطنها، وظهر حملها، ومع ميعاد لقاحها تضخّم ضرعها، وثخنت العروق الموصلة إليه، وفي ليلة شاتية لاحظ عامر أنّ الناقة

تقوم وتبرك وتتمرّغ، ورأى أنّ حياءها قد تضخّم، وعرف أنّ الطلق ينتابها، يشخب الحليب من أخلافها مع تمرّغها، قادها إلى الوادي، تركها وابتعد عنها كي لا يزرمها، لأنّه لاحظ أنّها تنظر إليه كلّما بركت وتمرّغت، وكأنّها خجلة منه، تفحص الأرض بأرجلها وتئنّ، ترفع رقبتها وتخبط برأسها، وبولها يسحّ متقطّعاً، قعد خلف شجرة يراقبها، ويدعو ربّه أن يسهّل أمرها، ويفكّ عسرها، جأرت وشدّت وركيها فتقلّصا، فرأى كتلة سوداء تبرز تحت ذيلها، فأغار عليها وأمسك برأس الحوار بيديه، وأخذ يشدّ مع طلق الناقة ودحمها، واضعاً قدمه على نهاية وركها، فاندفع الحوار إلى الخارج ملفوفاً بالسلى، تركه وقعد على بعد أمتار يراقب الناقة، وهي تلحس حوارها لتحرّره من السلى وهي ترزم، وما زالت المشيمة تتدلّى مع وركيها، عاد إلى بيته وأحضر لها دشيش الشعير، يتبعه ابنه عليّ الذي قدم ليرى الحوار، فوجدها قد أكملت تنظيف الحوار، فيقف بأخفاف طريّة وركب مثنيّة إلى أن يبلغ ضرعها، ويمصّ وبر رجليها، فتدفعه برأسها وتهديه إلى الضرع، فيمصّ حلمة الضرع، وهي تحني رقبتها، تشمّه وتلامسه، وتواصل اللّحس لتخليصه من المخاط الذي يجلّل وبره الناعم، تناول عامر قدحه وأخذ يحلب اللّبأ المصفرّ من أخلاف الناقة الواحد تلو الآخر إلى أن ملأ القدح، شرب منه وحلب من جديد إلى أن مسحه، وناوله لعليّ، ضمّ الحوار بين ذراعيه، وسار به إلى البيت تتبعه الناقة ترزم، وأمسى القمر يظهر ويختفي بين الغيوم، تحاول الناقة تخليص حوارها من حضن عامر، وهو يهمّ بالخطو، نادى عليّاً قائلاً: هل تستطيع حمل الحوار يا عليّ ؟ قال: نعم أعطني إيّاه. فقال: لا إنّه ثقيل، وقد تدوس عليك الناقة، إنها تخاف على ابنها، قد تقتل الذئب عنده. قال لعليّ: احزر، ناقتي من نوقها، ريح الهوا يسوقها، ما جابها عمّي عمر، غير شعاع القمر ؟ فقال عليّ: السفينة. قال: صدقت. قال: احزر، ناقتي بنوقها والدقّ في عرقوبها، ما هي ؟ قال: الربابة. قال: صحيح كيف عرفتها ؟ قال: كلّ ليلة نتحزر مع الأولاد. وانطلق عليّ إلى البيت بالخبر.

واظب عامر على زيارة أخته حوريّة التي تسكن أمّ الكلاب، وحين يشرف على المنطقة قادماً من أمّ العوسج، يرى ظهرة الشيخ محمّد فيتذكّر قول الشاعر الذي يحنّ إلى مسقط رأسه:

في خاطري نومتك يا شيخ حموّدة

أورد على الموحلي في ظلّ وبرودة

وزوج حوريّة أبو سالم رجل حييّ طيّب، خلفته من البنات، يتمنّى وزوجته أن يرزقهما الله بغلام، وكبرت البنات، وذات يوم قال خالهن عامر لأقاربه العزبان: من أراد أن يتزوّج فليلحق بي عند أبي سالم لأزوّجه من بنات أختي، وفعلاً لحق به زيدان ومحمّد أبو درويش وسلامة وزارع وعناد، فرضيت كلّ واحدة بمن تقدّم لها، إلاّ نفل فإنّها رفضت عناداً، فقال خالها: إن رفضّته فاختاري بين زاهد الأعرج وسمعان الأطرش، وزاد الطين بلّة أنّها شوهدت ذات مرّة تحدّث رجلاً من قبيلة أخرى عند بئر الماء، وأنكرت ذلك حين استجوبت، فمنعها خالها من الخروج وحجرها في البيت، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن حلق شعرها بالشفرة، في الصباح وجدت ميّتة بالسمّ.

أحضر عامر ابنه غسّان الذي فُطم للتوّ إلى أخته حوريّة، وقال: هذا الطفل وهبته لك منذ ولادته. لاقى غسّان عند عمّته نعيماً ودلالاً لم يألفهما من قبل فلم يعجبه ذلك، بل ظلّ يبكي لساعات طوال حين عاد أبوه إلى بلاده وتركه عند عمّته، وكم قُدّم له من مغريات كالألعاب والحلوى وركوب الحيوانات، رفضها في بادئ الأمر، ثمّ أخذ يسلو شيئاً فشيئاً، ويتعايش مع الوضع الجديد، لكنّ عمته أضمرت أن تعيده إلى أمّه وأبيه بعدما عضّ قلفته طفل متخلّف ذهنيّاً يجاورهم.

رجع عامر ليزور أخته ويطمئنّ على وضع ابنه في حياته الراهنة، قالت حوريّة : إن غسان ما زال صغيراً ويحتاج إلى رعاية أهله، والمكوث مع إخوته أشعر أنّه تلوّع من الوحدة والحنين إليكم، خذه معك، على أن تعيده إلينا بعدما يكبر قليلاً. فأجاب عامر: أنا أعطيتك إيّاه، وأنت حرّة، إن أردت أن نربيه لك نفعل ذلك على نفقتك، وأنا أنصحك إن رُبّيَ عندك صغيراً أفضل لك،لأنه كلّما مكث عندنا زادت روابطه بنا وبإخوته. فردّت: لا أريد أن أقهره، عد به إلى أمّه لا تتصوّر كم خفت عليه حين عضّه جارنا الأهبل، انتظرتك على جمر لتأخذه، كنت أنوي الرحيل به إليكم لو تأخّرت عن المجيء. قال عامر: إلى هذا الحد وصلت عندك الأمور ؟ قالت: نعم. قال: إذن آخذه معي هذه المرّة على أن أعيده إليك

حين يشتدّ عوده. قالت: نعم. فربطت له صرّة، تحتوي على ملابس وفاكهة ولعب، وحين عاد إلى أهله حسده إخوته على تلك المعيشة الرغدة، وتمنّوا لو أنّهم مكانه، أمّا هو فلم ير نعيماً يغني عن العيش مع الأهل.

(١١)

قال صابر: ما هذه البدعة التي ابتدعها أبو موسى، رآه سليمان بن سليم يجرّ كلباً من ذيله، ويدفنه في الكثيب الشرقيّ. قال بدر: يقول إنّه سطا عليه كلب خائن يأخذ كلّ يوم من عنده غرضاً، ويسير به مسافات بعيدة إلى أهله، فتبع جرّة الكب، ووصل إلى أهله، فأنكروا أنّ كلبهم يسرق، فقال لهم أبو موسى: اربطوا كلبكم وإلاّ العتب واللّوم مرفوع إن عاد إليّ، كلبكم هذا جعلنا مضحكة أمام الناس، فقالوا:إن أتاك من جديد افعل به ما تريد.

أحسّ أبو موسى أنّهم مماطلون، ما عندهم حرارة، فعمد إلى حبل مرس ونشطه، وربط طرفيه بوتدين، وحفر حفرة تحت حلقة الأُنشوطة، ووضع فيها فرخ دجاج ميّت، فأتى الكلب وشمّ رائحة الفرخ، فانقضّ عليه مدخلاً رأسه في الحلقة، ومدّ عنقه ليبلغ الفرخ فشدّ الحبل على عنقه، وعندما أراد تخليص رأسه بالرجوع إلى الوراء ازداد ضغط الحبل على عنقه، وظلّ الكلب يعوص إلى أن اختنق، مات وبوله يذرّ على ذيله وساقيه. قال عادل: هذه شنّاقة تعمل بمفردها ولا تحتاج إلاّ إلى حبل ووتد وطعم ! علّق عامر: لا درّت له ناقة ما أجبره !

قام بدر وهيّأ نفسه للانصراف إلى بيته بعد التعليلة وقال: ذكروا أنّ رجل الجراد قد اكتسح بلاد الشرق قادماً من الصحراء الصفراء، والخوف أنّ الريح الشرقيّة هذه تجلبه إلى بلادنا، يقال: إنّه لا يبقي ولا يذر. ردّ عادل: أيخوّف الجراد والناس في بعض البلاد يعبئونه في أكياس، ويخزنونه كمؤن، ثمّ أنّ الجرادة تطهّر الفم أربعين يوماً، وأكله أفضل من أكل اليربوع والقنفذ أو النيص الذي يصيح كالطفل حين يضربونه بالعصا عند صيده،

والله عندما كنت أسمع صوته يقشعرّ بدني، أمّا الجراد فهذا سمك الصحراء، غداً إن جاء سأصنع لكم منه طميرة، وتذوقون طعمه. فضحك الحضور وانفضّ المجلس، ونادى عادل امرأته حين تمدّد في فراشه: يا حرمة، تعالي اقطعي لي عرق الوثّاب.

(١٢)

وقف عودة أمام البيت في انتظار ابنه عجلان ليأخذه إلى السوق، أركبه على الجمل وقاده إلى المدينة، واشترى له من السوق ثوباً وحطّة بيضاء وصندلاً ودفتراً وقلماً وممحاة وقال: غداً سنأخذك إلى المدرسة لتتعلّم عند الخطيب.

صمد الخطيب في هذه المدرسة النائية ؛ لأنّه من نفس البيئة، فقبله قدم مدرّس حضريّ، أراد أن يذهب إلى الخلاء في اليوم الأوّل، كانت الأرض منبسطة على مدّ النظر، لا سواتر فيها، فأعطوه عباءة ليستتر بِها وإبريق ماء، فقعد على مسافة مائة متر من خصّ المدرسة، غطّى جسمه بالعباءة، قضى حاجته فأصاب بغائطه طرف العباءة دون أن يفطن لذلك، ففدت فعلته مضغة في أفواه القوم، فخجل وغادر المنطقة من يومه، أمّا السكان فقد برمجوا أوقات خروجهم، واعتادوا أن يخرجوا ليلاً، أمّا إذا كان لا بدّ من الذهاب نَهاراً، فيقطع أحدهم مسافات وهم يتقنون التستّر بالعباءة والقناع، قد يوحي لك الخارج أنّه ذاهب ليحتطب أو يحشّ أو يزور مكاناً للنّزهة، ويخفي الأثر تماماً ويضلّل المتتبّع.

وصل عودة وابنه إلى المدرسة، التلاميذ يجلسون على الأرض تحت عريش من الجريد، يتراوح عددهم بين الثمانية والعشرة، استقبل الخطيب عودة وصافحه، وطلب من عجلان القعود إلى جوار الأولاد الصغار، واستأنف التدريس وفي يده عصا وصاح: أ فتحة أ، أ كسرة إ، أ سكون أْ. ب فتحة بَ، ب كسرة بِ، ب ضمّة بُ، ب سكون بْ، ثمّ اتّجه إلى ولد وطلب منه أن يردّد خلفه: أبجد هوّز حطّي كلمن سعفص قرشت ثخذٌ ضظغٌ. ثمّ شرع في تدريبهم على لفظ كلمات تعجيزيّة وتكريرها بسرعة فيقول: رغيف غليظ رغيف رفيع. وأرينبة مترنّبة في جحيرها متقنّبة. وخيط حرير على حيط خليل. فيخطئ

الولد ويتلعثم، فيضحك الآخرون، فيقطب الخطيب حاجبيه ويعضّ شفته السّفلى، ويلوّح بالعصا، فيسود السكوت، ويسأل أحدهم: يا قاري يا فهيم: أيّ سورة بلا ميم. فلم يُجب، يهمس آخر بجواره: الكوثر. فضربه الخطيب على قفاه، فترتعش يدا عجلان اللّتان يعلوهما القشف وتتورّد وجنتاه، وسأل آخر: يا حاسب يا فطين نصف الخمس كم يكون ؟ فأجاب الولد: العُشر.

بدأت استراحة الإفطار، وأذن الخطيب للأولاد لتناول الطعام، وأحضر له أحدهم طعاماً وماء، وأفطر عودة مع ابنه، ثمّ طلب الخطيب من سليمان أن يقرأ سورة البقرة في حضور عودة، فلمّا تلا الآية التي تقول: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) قام الخطيب ومهره على ظهره بقبضته وكأنّه يختمه بخاتم، وقال: أنت اليوم ختمت القرآن، يجب أن يذبح أهلك ذبيحة لوجه الله. فقال عودة: أريد أن يصبح ابني مثل هذا. ردّ الخطيب: هذا يحتاج إلى فتّ خبز، سليمان مكث شهوراً وهو يقرأ. قال عودة: عجّل لي به واختصر الوقت، ومرحباً بك خذ ما تطلب. ضحك الخطيب وقال: أخاف أن يحدث معك ما حدث للبدويّ الذي ذهب إلى المدينة ليتسوّق، وأخذ ابنه معه ليتعلّم فعاج على مدرسة وقال للمعلّم: أريد أن تعلّم لي هذا الولد. فقال المعلّم: هل استأجرت له بيتاً قريباً من هنا ؟ فأجاب: لا ولِمَ المسكن أريد أن آخذه معي لدى عودتي من السوق. قال المعلّم: أتريده أن يتعلّم في هذه البرهة الوجيزة ؟ قال له: نعم. وترك ابنه ودخل السوق، فقال المعلّم للولد: ما أذلّ عقل الجاهل. وحفّظها إيّاه، وحين عاد أبوه، أعطى المعلّم أجره، وسأله: هل تعلّم الولد ؟ قال: نعم. فأخذ الرجل ابنه، ولمّا خرجا من ضوضاء المدينة أراد أن يطمئنّ على علمه فسأله: اخبرني، ما القراءة التي تعلّمتها في المدرسة ؟ قال الولد: نسيتها. فقال: ما أذلّ عقل الجاهل. فصاح الولد: تذكّرتها ! فسأل أبوه ما هي ؟ قال: التي قلتها الآن. قال أبوه: صدق. قال عودة: هذا عامر أبو عليّ قرأ في مدرسة الفالوجة يوماً واحداً، وواصل تعليم نفسه بنفسه، وها هو يفتح مدرسة في أمّ العوسج ويكتب الحجج، ويقرأ في المصحف ويصلّي بالناس، وأنا ليس عندي طموح أكثر من ذلك، لو قرأ عجلان كلام الله لكفاني ذلك. قال الخطيب: أبو عليّ حالة نادرة، واتّكل

على الله فهو حسبك.

يلهو التلاميذ عند عودتهم من المدرسة بكرة من شعر الماعز المضغوط، يضربونها بعصيّ معقوفة النهايات، يدفنون هذه المحاجن في طريقهم إلى المدرسة وأحياناً يصيدون اليرابيع، ومن ذكاء اليربوع أنّه يموّه مدخل جحره، ويجعل له عدّة مخارج مخفيّة قريبة جداً من سطح الأرض، مستّرة بقشرة رقيقة، يفتحها بسرعة عند الحاجة، يقوم الأولاد بالبحث عن هذه المخارج إذا ما وجدوا مدخل جحر، يعرفونها إمّا بارتفاع التراب قليلاً عن سطح الأرض، أو بتصدّع عند القشرة، وأحياناً يضغط أحدهم بعقبه على بعد أمتار حول المدخل، فيلاحظ أنّ الأرض تخفس تحت قدمه حين يقترب الجحر من سطحها، ومن أراد صيد اليربوع ترتّب عليه سدّ عيون المخارج بالضغط عليها، وهدم السطحيّ منها، تاركاً مخرجاً واحداً فقط، ثمّ يحفر من مدخل الجحر، ويغطّي المخرج الذي تركه بشبكة أو حطّة، أو يقف صاحبه عند المخرج ليحذف اليربوع بالعصا عند خروجه، وحين يحسّ اليربوع بالخطر يسرع ليتفقّد المخارج، فيجدها مهدّمة أو مغلقة، وتحتاج إلى حفر كثير، فيتركها إلى أن يعثر على السليمة، وهي التي عندها الكمين، فيخرج منها محاولاً الهرب قافزاً على رجليه الخلفيّتين كالكنغر، فيُصطاد أو يظلّ يجري فيتبعه الصيّادون للقبض عليه أو للتسلية، فيتعب من الجري فيجثم عليه أحدهم، ويمسكه، وإن كان الصيّاد غشيماً ولم ينتبه لدفن الجحور المجاورة يجحر اليربوع في أحدها، فيحتاج الأمر إلى تعب جديد، وهم يذبحونه بعد صيده على عجل، ويسلخون جلده ويخرجون أمعاءه، ويلقونه في النار.

ذات مرّة وجد الأطفال ثعباناً يتعارك مع ورل، الورل ينفخ جسمه ويضرب الثعبان بذيله الذي يشبه الكرباج، في حين يحاول الثعبان تفادي ضرب الذيل وتنويب الورل في رأسه، استمرّت المعركة زهاء الساعة بين كرٍّ وفرٍّ لم تحسم لصالح أيّهما، وكانت الرمضاء تزيد من استعار اللقاء، فملّ الأطفال وشرعوا في إلقاء الحجارة على المتصارعين فغابا في الجحور القريبة، أبرقت غيمة وأمطرت رغم أنّ الشمس كانت حارقة فقال سليمان الذي كان يكبر رفاقه سنّاً: عرفت أنّ هذه الشمس مطرودة، أسرع التلاميذ إلى بيوتهم وهم يغنّون:

يا مطرة زيدي زيدي بيتنا حديدي شعر كلبتنا في بيت جدّتنا.

فضّل الأطفال في بداية ليلة مقمرة أن يلعبوا لعبة اللّفخ، فسار أحدهم على يديه ورجليه، وهم يشاغلونه، يحاولون همزه بأيديهم، ويتقافزون من فوقه، وهو يحاول لفخ من يقترب منه برجله، وإذا لمست رجله أحدهم قعد من لُمس محلّه وحذا حذوه وتستمرّ اللّعبة، وبعد أن ملّ اللاّعبون اقترح أحدهم تغيير اللّعبة بلعبة عظيم راح، فأحضر عجلان عظماً أبيض، ودسّه في كوم رمل، ورسم دائرة تتّسع لوقوف اللاّعبين الذين انقسموا إلى فريقين، فيحفر الجميع في كوم الرمل بحثاً عن العظم، وجده أحدهم فدار دورة كاملة داخل الدائرة وقذف به بعيداً وصاح: عظيم راح في المسراح، وأين لقّى وأين راح ؟ وانطلق الجميع للعثور عليه، لحظه سليمان فخشي أنّه إن حنى جسمه والتقطه خلّصه منه القريبون إليه من الفريق الثاني، دعس عليه ليخفيه في الرمل، وظلّ يحوم حوله، فلمّا أنس فرصة مناسبة أمسك بالعظم بأصابع رجله ثمّ لقفه بيده، خبّأه وتظاهر بأنّه يبحث عن العظم، فلمّا ذهب في اتّجاه دائرة البداية اشتبه به أحد أفراد الفريق الثاني، وهمّ بالانقضاض عليه وتفتيشه، فرمى بالعظم لأحد أفراد فريقه، وهو أسرعهم عَدْوَاً فانطلق به إلى الدائرة، فربح فريق سليمان هذه الجولة، ومن حقّهم الآن رمي العظم، فرماه الشابّ الذي استطاع إيصاله إلى نقطة البداية، وبإمكانه تقدير مكان سقوطه أفضل من الآخرين، لذلك تشدّد عليه الرقابة من الفريق الثاني.

خُتم اللّعب هذه اللّيلة بالمباطحة، وقف كلّ واحد أمام نظيره، ولفّ كلّ منهما ذراعه خلف ظهر ندّه، على أن تكون إحدى ذراعيه فوق ذراع صاحبه، وتوضع الذراع الأخرى تحت ذراع الآخر، وإن استطاع أحدهما أن يبطح صاحبه ويلقيه أرضاً ويجثم فوق صدره عُدَّ منتصراً، أمّا إن وقع الاثنان جنباً إلى جنب فلا غالب ولا مغلوب وتعاد اللّعبة ليحدّد الفائز، وتمنع العرقلة بالرجل من الخلف.

(١٣)

علم عامر أنّ أبناء أخيه سليم قد أُصيبوا بالحصبة، وكانت إصابتهم شديدة فأخذ ثلاثة من أبنائه إليهم، وتركهم هناك ليباتوا ويلعبوا ويأكلوا مع المرضى ؛ ليُعدَوا بالحصبة، لأنّ لديه قناعة راسخة أنّ من أُصيب بمرض شديد فإنّه يعدي عدوى خفيفة، والعكس صحيح، غشي الديوان وكان الحديث يتمحور حول مقابلة شيوخ عشائر النقب للمندوب السامي البريطاني في القدس، الذي استقبلهم في صالة كبيرة، وأجلسهم على كراسي وثيرة، واستمع إلى طلباتهم التي تبلورت في نقاط أهمّها: وقف الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين، الإذن للبدو بحمل السلاح للدفاع عن النفس من الوحوش والأقوام المغيرة، السماح لسكّان النقب بزراعة التبغ العربي وتدخينه. فوعدهم المندوب السامي برفع هذه الطلبات إلى حكومته، على أن يعود وفد الشيوخ بعد شهرين لسماع رأي الحكومة، ولدى عودتهم استقبلهم بجفاء، أُدخلوا إلى صالة خالية من المقاعد، لا يوجد سوى مقعد وحيد يجلس عليه المندوب فاحتجّ الشيوخ على سوء المقابلة، فقال المندوب: ها أنتم لم تطب لكم الإقامة بلا كراسي، قياساً على ذلك، فاليهود حتّى لو قدموا إلى فلسطين إن لم يجدوا لهم مواقع يستقرّون فيها فإنّهم سيرحلون. فقال الشيخ فارس: أنتم الذين توفّرون المراكز لليهود، أعطيتم اليهود كلّ الأراضي الحكوميّة. فلم يردّ المندوب، فأضاف الشيخ: أنتم تسلّحون اليهود، وتدرّبونهم ويخدمون معكم في الحراسات وكافّة المواقع، في المقابل من تجدون عنده طلقة فارغة من العرب تعدمونه. امتعض المندوب من كلام فارس، فرفع يده طالباً منه التوقّف عن الكلام، وقال: سمحت لكم حكومتي بما يلي، ولا أريد مقاطعة من أحد: يسمح لكم بحمل السكّين والعصا للدفاع عن النفس من الحيوانات المفترسة، وتدخين الدخّان العربي على أن يكون ذلك جنوب سكّة القطار الواصلة بين غزّة وبئر السبع، أحذّركم من مساعدة المجرمين الفارّين من العدالة، لقد امتدّ نشاط هؤلاء إلى منطقتكم، حيث حدث اعتداء على مستعمرة السرّ والدنقور، وسلب هؤلاء أسلحة مخفر العوجا، أو أنّ الشرطة العرب أعطوا أسلحتهم عن طيب خاطر للأشرار، انتهت المقابلة. وغادر المندوب

الصالة، وانصرف الشيوخ مغتاظين يتمتمون.

استيقظ الناس صباحاً مرتاعين، فقد حجب الجراد الشمس، وظهر في الجو بساط شفّاف متموّج أصفر كالغبار، يُسمع له دويّ يلجّ في كلّ ناحية، غطّى الجراد الأشجار والأعشاب والبيوت، الأرض كلّها تدبي، أسراب تطير على وجه الأرض، وأفواج مرتفعة لا نهاية لها، أصحاب المزارع وأولادهم وجيرانهم نهضوا للذود عن المزروعات والكروم، كلّ يحمل صفيحة، يطرق عليها بعصا أو حجر لتجفيل الجراد، قال عامر: هذا الجراد الطيّار ضرره بسيط، أمّا الخطر الداهم فهو الذي يدبّ على الأرض، فهو يضع بيوضاً، وغداً يفقس البيض ويسبح على الأرض ليحلق الأخضر واليابس. قال بدر: أين عادل كي يشوي له وجبة جراد ؟ هذا الجراد يزهق الروح ويضيّق الخلق، يقع في العجين والطبيخ، وأخرج إن كنت تستطيع أن تُخرج، إنّه يقزّز النفس، ويُغلّث الخاطر، منعنا من الأكل والشرب، لا نعرف النهار من اللّيل، أمّا براز الجراد المتساقط من الجو فقد لوّث الملابس والأغذية، الحيوانات عافت الطعام وتغيّر مزاجها، ماعدا كلب سلاّم الذي يقضي يومه في أكل الجراد وهجر بيت أهله، وشرع الناس في حفر الخنادق، كوّموا فيها الحطب وأشعلوا النار، ليمنعوا الجراد من الزحف وهو ماضٍ في حكّ كلّ شيء إلى أن وصل إلى شاطئ البحرّ رغم كافّة التدابير المتّخذة لإيقاف زحفه، وأفسد كلّ نبات أخضر حتّى شجر الغرقد الشائك لم يسلم من الحلق.

قدم إلى الديوان أبو ماجد يرافقه رجل أنيق يرتدي ملابس نظيفة، فحدّث الحضور بعد العشاء قائلاً: نشبت منازعات بين العرب واليهود في وسط البلاد، ويقف الإنجليز موقف المتفرّج إن كانت كفّة اليهود راجحة، أمّا إن كانت الغلبة للعرب تدخّل الإنجليز لصالح اليهود، لقد قام الإنجليز بتدريب اليهود رجالاً ونساءً ورتّبوهم في سرايا وكتائب، وفي سلك الشرطة والأمن لحماية الطرق والمستوطنات وسكك القطارات، ولحماية أنبوب النفط القادم من العراق والذي يصبّ في حيفا، وأنشأ الضابط الإنجليزي ونجتون فصائل قوّات مغاوير من اليهود لمهاجمة القرى العربيّة، ولقطع الطرق بينها، وكان ظنّ الناس أنّه بمجرد رحيل الإنجليز فاليهود لا يشكّلون عبئاً يُذكر، وهاجم اليهود قرية

دير ياسين، واقترفوا فيها مجزرة لم يستثنوا طفلاً أو امرأة أو شيخاً، ودبّ الذعر بين سكّان البلاد بأسرها على أثر هذه المجزرة، وبدأ الفرار من القرى والمدن، ووصلت طلائع النازحين إلى المجدل وغزّة. وأضاف أبو ماجد: مع رحيل الإنجليز في منتصف آيار عام ١٩٤٨ م دخلت الجيوش العربيّة على غير هدى قليلة العتاد والعدّة في محاولة منها لإنقاذ الموقف، لقد كان الحماس ينتاب كثيراً من ضبّاطها وجنودها، ولكنّها لا تملك مقوّمات النصر، وكانت تجهل تضاريس المنطقة ويعوزها التخطيط والتنسيق، وتفاجأت الجيوش العربيّة بعدوّ منظّم ومدرّب، يمتلك أسلحة متطوّرة وطائرات، وأسلحة كيماويّة، وكانت المستوطنات ما هي إلاّ دشمٌ محصّنة، فيها الملاجئ وكلّ وسائل الدفاع والمؤن، ويمكن إمدادها جوّاً إن تعذّر الإمداد البرّيّ لبعض الوقت، لقد كان هدف البريطانيين تكوين جيشٍ يهوديٍّ قويٍّ، يمكنه صدّ زحف رومل إلى فلسطين، إذا ما نجح في اختراق جبهة مصر، ومقاومة إنزال الماني على سواحل فلسطين، والإنجليز خذلوا العرب وخانوهم، ونكثوا بوعودهم للشريف حسين بعدما حالفهم ضدّ الأتراك، وبدلاً من إنشاء دولة عربيّة واحدة، مزّقوا الوطن العربي باتفاقيّة سايكس بيكو، فهم الآن لا يتوقّعون مساعدة العرب لهم، بل آثروا الاعتماد على اليهود خصوصاً بعد تعبئتهم ضدّ هتلر، لقد كان عند اليهود مصانع أسلحة ومصفّحات ومدافع وطائرات، وشركات أوروبيّة متطوّرة تصنع لهم ما يحتاجونه من سلاح، وتدخله إلى فلسطين وبلاد الشام عبر الموانئ على أنّه معدّات زراعيّة للعرب، ومن المفارقات العجيبة أنّ البعض كان مشفقاً على مصير اليهود لأنّهم قتلوا في مناوشات إلى الشرق من غزّة ثلاثة من أبناء البدو، فقيل يومها: ويلٌ لليهود لقد غدا للبدو عندهم ثأر، ولم يتيقّن الناس من الحقيقة المرّة إلاّ بعدما فشل هجوم كتيبة مصريّة معزّزة بمجموعات من الإخوان المسلمين المتطوّعين، وما انضمّ إليهم من مجاهدين محلّيّين وخمسة من الألمان المحترفين، أخفقوا في اقتحام مستعمرة الدنقور، عندها أعاد الناس حساباتهم، وأدركوا أنّهم قد خُدعوا في قوّة اليهود، فاليهود أنفسهم كانوا دائماً يتظاهرون بالضعف وقلّة الحيلة والمسكنة، وذلك لأمرٍ كانوا يبيّتونه ليفاجئوا به الناس.

ثمّ تحدّث الرجل الأنيق: انخرط بعض الشبّان والكهول في صفوف قوّة تشكّلت

محلياً للدفاع عن أراضي النقب، وتزعّم المتطوّعين المجاهد عبد الله أبو ماجد، وقد انضمّ إلى هؤلاء أفراد الشرطة والهجّانة الذين كانوا يعملون مع الإنجليز، ومكث الجنود المصريّون الذين نزلوا بئر السبع أسبوعاً كاملاً لا يكلّمون أحداً من أبناء المدينة، ولم يخالطوهم ولم يستشيروا أحداً منهم، ومن الغريب أنّ بدوياً أتاهم ليخبرهم عن احتشاد اليهود في أحد المواضع القريبة من المدينة، فاتّهموه بالغدر والتجسّس واعتقلوه، كما اعتقلوا أحد عشر مناضلاً ينتمون إلى فرق الجهاد المقدّس، ولمّا هاجم اليهود مركز الشرطة اشترك هؤلاء المناضلون المسجونون في القتال، وأبلوا بلاءً حسناً، كما استخدم القائد المصريّ عبد المنعم عبد الرؤوف ابن عقيل لزرع ألغام على طريق اليهود بعد أن اختبره، وتأكّد من إخلاصه وشجاعته وخبرته بالأرض، وعندما نُقل هذا الضابط بفرقته إلى منطقة الخليل، استمرّ ابن عقيل في تأدية مهمّته مع الفرقة الجديدة، وتمكّن ذات مرّة من نزع عددٍ من الألغام التي وضعها اليهود في طريق الجيش المصريّ، وحملها فخوراً في كيس على كتفه، وأمّ مقرّ القيادة المصريّة ليسلّمها إلى ولاة الأمور، ولكن ما كاد الحرّاس يرونه حاملاً ألغاماً حتّى صرخوا: جاسوس جاسوس. وسرعان ما أُدين من لدن محكمة عسكريّة مصريّة بالخيانة العظمى، وحكم عليه بالإعدام، وشاء الله أن يسخّر له الشيخ الصانع، وكان مطّلعاً على حقيقة الأمر، فقصّ على ولاة الأمور قصّة ابن عقيل الشجاع المخلص الأمين، فأُعيدت محاكمته وطلب ابن عقيل شهادة الضابط الذي استخدمه، فجاء وأدلى بشهادته، وأقسم بصحّة ما يقول على القرآن الكريم، وقال: لولا ابن عقيل لقضي على أحمد سالم ورتل من السيّارات العسكريّة التي كانت معه، فأرشدهم ابن عقيل إلى اللّغم الهائل الذي زرعه اليهود في طريقهم، فما كان من المحكمة إلاّ أن برّأته، ولولا ذلك لقضى المسكين نحبه وراح ضحيّة الوهم وسوء الظنّ شأنه في ذلك شأن الكثيرين، وعليكم الانتباه والاستعداد لأن زحف اليهود لن يتوقّف.

وقد تأثر الشاعر سليمان القطّي عندما قطعت الطريق، ولم يتمكّن من الوصول إلى أحبّته في الشمال، وظلّ في الجنوب القاحل منفيّاً فقال:

ولد يا مشمّل ع الشمال سلّم ع هدبا وهدّوبهْ

وقل لها سليمان القنيّـن حالت عليه الحروبةْ
قاعد في البر وجهه مغبر ماء الحناظل مشروبهْ

تقاطرت أنباء إلى أمّ العوسج تفيد بأنّ الناس في السبع قد أجبروا على الرحيل، فوصل قسم منهم إلى قطاع غزّة، وآخرون إلى الخليل، وهام البعض على وجوههم في سيناء، وظلّت العشيرة في ترقّب وقلق، لم يصلها خطر بعد، ولكن يسمع رزيم مدافع من بعيد، وتشاهد طائرات مغيرة على انخفاض، يكاد صوتها يطرح الكائنات الحيّة أرضاً، قال زاهد الأعرج: إن حلق جارك بلّ راسك وإن احترق خصّ جارك أحضر لخصّك ماء.

عند الزوال وصلت ثلاث سيّارات جيب عسكريّة، ترجّل منها بعض الجنود، في حين ظلّ آخرون يلبسون الخوذات، ويصوّبون رشّاشاتهم إلى القوم قابلهم الرجال من الديوان بوجل، طلبوا بيض دجاج، فجُمع لهم البيض من البيوت ثمّ صبّوا لهم القهوة المرّة، فقال أحدهم بلكنة أجنبيّة: لماذا تسكنون هنا ؟ فأجابه عامر: هذا مسكننا لم نتزحزح منه، انظر تلك مقابرنا. فردّ الجنديّ الأحمر: أصبحت هذه منطقة عسكريّة، ارحلوا عند ابن ربيعة، هناك يتمّ إحصاؤكم، وتحصلون على بطاقات معكم ثلاثة أيّام للرحيل من يتخلّف يعرّض نفسه للخطر.

بقي القوم في حيص بيص، فمن قائل: اللّه لا يجيب الساعة التي جاءت بهم. وآخر يقول: انصرفوا وما أظنّ أنّهم يرجعون، أعتقد أنّهم عثروا علينا بالصدفة لا تصل إلينا طريق ولا اسفلت. قال زيدان: حامت طائرة أمس، يجوز أن تكون هي التي أخبرتهم بمكاننا، ماذا نفعل عند ابن ربيعة من أين نأكل ونشرب إذا تركنا أرضنا ؟ علّق عامر: هذه معجزة كمعاجز البسوس، إذ قالت لجسّاس يوم قتل كليب ناقتها حين رتعت في حماه: أنا جارتك، فلولا استهتار كليب بك ما تجرّأ على قتل ناقتي، فقال جسّاس: اختاري من إبلي عشر نياق بدلاً منها. فقالت: هذا لا يرضيني. فقال: ما الذي يرضيك ؟ قالت: إمّا ناقتي على أربعها تقوم، أو يملأ خرجها بالنجوم، وإمّا رأس كليب في الدمّ يعوم. فما كان من جسّاس إلاّ أن قتل كليباً، لأنّ قتله أهون الشروط.

سهرت العشيرة، وخيّم القلق والترقّب، باتت النيران مشتعلة إلى الهزيع الأخير من اللّيل، وأخرجت المدافن الثمينة، وعبّئت الأغراض المهمّة لتبقى على عروة وشظاظ، وظلّ زاهد الأعرج يحرّض الذين لم يكترثوا، فيقول: البدويّ أنذره وخذه، لأنّه لا يحمل الأمر على محمل الجدّ.

وقبل أن يميّز المرء الكلب من الذئب اعتلت سيّارات عسكريّة التلّ المشرف على مساكن القوم من الشمال، وأمطرتهم بوابل من الرصاص، نفر الناس وهم نيام، لا يلوون على شيء، جفلت الإبل والأغنام، وبعد أن جروا مئات الأمتار، واختفوا في بطون الأودية وراء التلال عن الرصاص، تذكّروا الأطفال، فمن وجد طفلاً قريباً حمله على ظهره وأسرع به، وألقت دولة صرّة بيدها، وعادت إلى البيوت لإحضار ابن أختها غسّان الذي نسوه في منامه ؛ إذ حملت أمّه النفساء أخاه الصغير، قابلها أخوها صبح يحمل غسّان على كتفه، سألها عن نيّتها، فقالت: أتيت لهذا الطفل، أين وجدته ؟ فقال: يسير مع جديه في هذا الوادي. قالت دولة: أنّ اليهود قد انصرفوا ولم يقتربوا من البيوت. فقال صبح: إنّهم يريدون أن يُجفّلونا فقط. فتشجّع الناس وعادوا إلى بيوتهم لحمل ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، وساروا إلى الغرب إلى أن بلغوا عقدة مهابة، حيث الأرض الوعرة في سيناء، وعمدوا إلى الرجوع إلى أماكنهم، وأحضروا الكثير من أمتعتهم وبيوت الشعر، بل ذهبوا تحت إلحاح الحاجة إلى أبعد من ذلك، فوصلوا إلى بئر السبع، حيث الدكاكين والمحلاّت التجاريّة المهجورة، فأخذوا يجلبون الدقيق والحبوب والزيتون، لأنّ اليهود لم يتمكّنوا من إحكام سيطرتهم على البلدة بعد، لهم نقطة محلّ قسم الشرطة الإنجليزي، يكتفون بالمرور بدوريّات محمولة ليلاً حول المدينة، وهذا لا يحول دون وصول الجياع إلى مراكز الطعام، ولم يثنهم سقوط الكثيرين الذين أُطلقت عليهم النار وقضوا نحبهم، وهم يحملون أشياء تافهة جدّاً، لا تسمن ولا تغني من جوع.

تفرّق الناس في المسكن، فمنهم من واصل الرحيل إلى الجنوب، ومنهم من ظلّ قريباً من الحدود ؛ أملاً في العودة القريبة، ومنهم من اجتاز إلى قطاع غزّة، وانضمّ إلى مخيّمات اللاّجئين، ورعت فتاة غنمها على كثيب مطلّ على مراعيها السابقة، نظرت إلى

الشرق، فتذكّرت المراعي الخصبة، وحركة الرعاة وهدوّ البال، وطرأ على بالها الغناء واللّهو والوعود التي ذهبت أدراج الرياح، فشرعت صوتها بالغناء:

شوقي طلبني حبّةْ ومن الجهل عييتّهْ

اللّه يجازي قليبي لمّا طلب ما أعطيتهْ

ظنّي نصيبي يجيبهْ وأغدو حليلة بيتهْ

ومن أغرب الجلب ما يقوم به الأعمى خميس من فكّ أسلاك النحاس الخاصّة بالهاتف التي تركها الإنجليز تعلو الأعمدة مع طول الطرقات، فكان يربط حجراً بحبل، ويقف إلى جوار العمود، يرمي بالحجر إلى أعلى، فإن أحسّ بأنّه علق بأحد الأسلاك نتعه عدّة مرّات إلى أن يقطعه، ثمّ يسعى يتحسّس إلى أن يعثر على طرف السلك الذي قطعه ملقى على الأرض، فيجذبه من العمود الآخر، يقطعه ويلفّه كدائرة، ويواصل العمل، أحياناً كثيرة يقضي سحابة ليله يبحث عن طرف سلك أضاعه أو لفّة خبّأها ولم يهتد إليها، فيتّهم الآخرين بسرقتها، وجلب الأسلاك هذا ينطوي على مخاطر جمّة، فإن سلم كاسبها من اليهود، فإنّه من المشكوك فيه أن ينجو من الجنود المصريّين حين نقلها وبيعها، فقد حدث أن ضبط حرس الحدود صبح بن حامد، يحمل على جمله لفّة أسلاك نحاسيّة، كان في طريقه إلى بيعها في سوق النحّاسين بالعريش مع آخرين، ليمتار لأهله طحيناً، فأودعوهم سجن أبي زعبل، وحكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقّة لمدّة عشر سنوات، ومات قبل أن يكمل عامه الثاني، وولدت زوجته طفلاً بعد شهور من سجنه، وأسمته حبيساً.

أمّا بدر فقد حمل كيس سكّر من بئر السبع إلى العريش، وظلّ ينقله أسبوعاً، يخفيه عن أنظار أقاربه وجيرانه كي لا يطمعوا فيه، أو يشاركوه في ثمنه، لأنّ من حضر الصيد فحقّه لازم، وعندما عرضه على تاجر هناك، ضحك التاجر بتهكّم، وقال: هذا ليس سكّر. فدهش بدر وأمسك بشارب الكيس يريد إخراجه من المتجر، وقال: ما هو إذن ؟! أمسك التاجر حفنة من الكيس بيده، وضعها أمام عينيّ بدر، وقال: إنه سماد كيماويّ، ذق. وضع بدر بعض البلّورات البيضاء على طرف لسانه، أحسّ بلذعتها وتنهّد، فترك الكيس وخرج من الحانوت، سأله صابر الذي قابله في السوق: ألم تذق منه قبل أن تحمله هذه

المسافة ؟ فأجاب: صدّقني أنّني ذقته قبل أن أحمله فوجدته حلواً. فقال صابر: هذا يعني أنّك حين عثرت عليه ارتبكت من الفرحة فذقته حلواً، أو كان فوقه كيس سكّر، لا يهمّ كم مشوار راح على البدويّ ببلاش.

حين صعُب إحضار شيء من محلاّت السبع، بعد وصول المستوطنين اليهود إلى المدينة، وتشديد الحراسة، آثر الناس جني اللّوز من الكروم التي تركها أصحابها العرب ولم يكترث بها اليهود بعد، اعتاد سلامة سليم أن يملأ كيساً من اللّوز اليابس، ويبيعه في سوق رفح بقروش قليلة، وذات مرّة وجد كرماً محاطاً بسياج صبر محمّلاً بالثمار الناضجة، فأمضى ليلته وهو يأكل من هذه الثمار المفقودة في سيناء، وعاد في اللّيلة التالية بعد أن ملأ كيسه من اللّوز إلى صريف الصبر، وأعمل سكّينه في التقشير، فشبع من ثمار الصبر للّيلة الثانية ولم يأكل أثناء ذلك أيّ شيء، فحين امتلأ بطنه أحسّ برغبة ملحّة في التغوّط، فقعد القرفصاء ، وأخذ يروي قصّته: أحسست للوهلة الأولى كأنّ صبّة رصاص في بطني، أخذت أدحم ليخرج رأس هذا العمود، وأضغط بيديّ على جوانبه، وأخذت أنكش الحبّ المرصوص، وأخرجه حبّةً حبّة مستخدماً الأعواد، ثمّ استخدمت طرف شبريّتي الرفيع، وحين شعرت بأنّني قد تأخرت وبات الوقت يدركني، وعاد كلّ رفاقي ارتبكت، واستعجلت فجرحت مؤخرتي، فأمسيت أخشى أن أمدّ يدي إليها، وهي تبرز إلى أسفل دافعة الجلد، فبدت كفم الجراب الموكى، الدم يقطر منها، وشرعت في الأنين من الألم، وكم تمنّيت أن تحضر دوريّة إسرائيليّة لتأخذني في الصباح، إنّه يهون عليّ الموت إذا ما أُخرج هذا البزر من بطني، لم يحضر أحد، ولم أقو على الحركة، وحين ارتفعت الشمس واشتدّت الرمضاء، كوّمت كوماً من الرمل الساخن، وقعدت عليه، فشعرت براحة ما، فكوّمت عدّة أكوام لأجلس عليها، كلّما برد واحد انتقلت على آخر، فلاحظت سقوط بزرات على كوم الرمل، وكأنّها حُلّت بالحرارة، كما شعرت بأنّ المنطقة السفلى قد تخدّرت من الرمضاء ونضجت، فعدت إلى النبش بالأعواد فحصلت على نتيجة مشجّعة، داهمني النعاس عصراً، وأنا جالس على أحد الأكوام وأسند رأسي على راحتيّ المرتكزتين على ركبتيّ، أيقظني حلم فوجدت جسمي مبللاً بالعرق، حاولت القيام فلم أستطع ذلك باعتدال بل ظللت مقعياً، سرت بضع فحجات

فشعرت بمغص شديد فقعدت تحت شجرة، وإذ بها شجرة خروع، وصحت: الحمد لله يا كريم. قشّرت حبّتين ممّا وجدت تحت الشجرة، قرطتهما ونمت قليلاً، وكنت قد وضعت طرف ثوبي في حزامي مشمّراً عن مؤخّرتي، أحسست بحركة غير عاديّة في أمعائي، إنّها توشك أن تتقطّع، زحفت من تحت ظلّ الشجرة، وإذ بسائل يندفع إلى أسفل وبزر منتشر ليرسم دائرة لا يقلّ قطرها عن المتر، تنفّست الصعداء، وهذا آخر عهدي بأكل الصبر وسرقة اللّوز.

أصبحت حرفة التسلّل إلى الوطن المحتلّ مقتصرة على بعض المحترفين، وظلّ زيدان يزرع أرضه المحتلّة القريبة من الحدود، يحرثها ويبذرها ليلاً أول موسم الشتاء، ويراقبها إلى أن يحين حصادها، فيأخذ معه معينين من أقاربه ويحصد ما زرع، ويحمل ما جنى ويكوّمه عند بيته، وظلّ كذلك إلى أن أطلقت دوريّة عليهم النار، فأصابت زوجته بجروح، واهتمّ اليهود بمراقبة المنطقة، فحالوا دون زراعة زيدان لأرضه.

ذهب عامر يرود مسكناً مناسباً للرعي، وبه متّسع للتحطيب، فسار سحابة يومه، وبات عند خضر، وفي الصباح انطلق إلى الغرب، فوجد كثيباً رمليّاً يشبه الكثيب الذي كان يسكن بجواره في أمّ العوسج، جثا عليه وقال:

يا خسارة الرمل عدّه من برصنا جاي ودّي أنقله في عباتي ما أقدره والراي ؟

بلّ عامر لحيته من الدموع، وهو جاثٍ على هذا الرمل، ومضى لإحضار أهله ليجاور الكثيب، فرحّب به خضر واستأنس بجواره.

قدم رجل ممن بقوا في النقب متسلّلاً، وحلّ ضيفاً على خضر الذي تربطه به علاقة معرفة وجوار في السابق، بقي عنده إلى المساء ثمّ انصرف، وبدا من تصرّفه أنّه لا يريد أن يعلم أحد بمقدمه، أو يعرف الجهة التي قدم منها، فقدّر خضر أنّه متخوّف من رجال الأمن، فلو عثروا عليه قادماً من الأرض المحتلّة لاعتبروه جاسوساً، وعزا حذره وتخفيّه لهذا السبب، فكتم أمره، وفي الصباح تفاجأ خضر بوصول جماعة من عشيرة السبيعيّ، يقصوّن الأثر قرب بيته، فسألهم عن غايتهم، فأخبروه بأنّ رجلاً قام من عنده البارحة، وسألوه عنه فقال: الذي قام من عندي هو العالول، تغدّى ورحل في المساء، ولم

أسأله عن وجهته. فطلبوا من خضر مرافقتهم، وأخبروه عند خروجه معهم: إنّ هذا الرجل الذي اختبأ عندك وتستّرت عليه قد خطف امرأة من نسائنا، ولولا أنّك وفّرت له الملجأ الآمن لما تمكّن من ذلك. كتّفوه واقتادوه معهم فاعترض طريقهم جاره عامر، سألهم عن سبب احتجازهم لجاره، فقالوا: هذا الرجل دسّ اللّص الذي اختطف امرأة من عندنا. فسأل: كيف لرجل أن يخطف امرأة من وسط عشيرة، ويسير بها كلّ هذه المسافة دون أن تصرخ أو تستغيث أهي أرنب؟ أطلقوا الرجل. وضع يده على مقبض سيفه، ولكنّهم سرعان ما أحاطوا به من كلّ جانب، وانتزعوا سلاحه وقيّدوا يديه واستاقوه معهم، حضر سليم لتقصّي الخبر، وذهب لمقاضاة عشيرة السبيعيّ بشأن انتهاك حرمة بيت خضر وأسره وجاره، فسعى لذلك والتقى الطرفان عند القاضي العقبيّ، وكان محور النقاش: هل تلحق بخضر مسؤوليّة عن خطف المرأة أم لا؟ وقد حضر الميعاد خلق كثير، وأُحضرت الرهينتان، وأتت محرزة زوجة خضر تقود فرساً، ودخلت إلى رفّة النساء، وحين احتدم النقاش، وأدلى كلّ طرف بحجّته أمام القاضي، حلّت محرزة رباط الفرس وقادتها إلى رفّة الرجال وقالت: أنت ياسبيعيّ مثل الذي يرى الذيب ويقصّ مع أثره، امرأتكم ذهبت مع العالول بمحض إرادتها ، صحيح إنّه عرّج علينا، ولكنّه لم يطلعنا على مكنون صدره، لعلّك أبصرت أثرها وهي تجري أمامه كالغزال، أنت بحبسك رجلي وجاره كمن لم يستطع ركوب العير فيركب البرذعة التي على الأرض إشفاقاً من الوثوب على ظهر الحمار، وما دمت قد عجزت عن مطاردة غريمك، فنحن نطيّب عنه، خذ هذه الفرس الأصيلة مبيّضة العروض، فهي خير لك من المرأة الجامح. وربطت رسن الفرس بوتد البيت أمام الجميع، وعادت إلى رفّة النساء، فبهت القوم من منطق محرزة، وقام الشيخ السبيعيّ وقال: خذ فرسك يا خضر، وروّح إلى بيتك، واطلب حقّك بلسانك، وفُضّ المجلس، وعلّق الخطيب والقوم سكوت كأنّ على رؤوسهم الطير فقال: قطعت جهينة قول كلّ خطيب.

(١٤)

حدث صقيع في السنة التالية للهجرة، ترافق مع مجاعة ومحل مدقع، فاتّجهت الجموع إلى المخيّمات في قطاع غزّة للاتجاء فيها، إذ كانوا قبل ذلك يصرّون أغراضهم أملاً في العودة إلى بيوتهم، أخذوا في تسجيل أنفسهم وعائلاتهم في سجلاّت اللاجئين، للحصول على التغذية والرعاية الصحيّة، وقاموا بتسجيل أبنائهم في مدارس وكالة الغوث، أعطى موظّفو الوكالة عامراً بطاقة تمكّنه من العمل في تنظيف المراحيض العامّة وكنس الشوارع الترابيّة بين الخيام، لأنّ أسرته سبعة أفراد، ولكنّه خجل من هذا العمل، وكيف لا يخجل وقد عيّنته العشيرة قاضياً منذ موت القاضي حامد، مع أنّه ندم عليها لاحقاً حين عضّه الجوع وسجل عودة عائلته في سجلاّت الوكالة، واستلم خيمة في مخيّم رفح أسكن فيها ابنه عجلان إلى جوار خالته سالمة، ليدرس في مدارس الوكالة، في حين ظلّت أسرته تسكن سيناء وحصلوا على الجنسيّة المصريّة فيما بعد، أمّا بدر فقد تأخر وعادل في الانضمام بأسرتيهما إلى المخيّم، ولم يشملهم الإحصاء، فحُرموا بالتالي من التمتّع بخدمات الوكالة الصحيّة والتعليميّة والسكنيّة، فأبلغهم مدير التموين في رفح بأنّ الوكالة ليس في مقدورها استيعاب أعداد جديدة، فمن يرغب في ذلك فعليه أن يشي بعائلات سجّلوا أفراداً زيادة على من عندهم في الحقيقة، أو مات منهم أحد بعد الإحصاء ولم يبلّغ عنه فظلّ مقيّداً في بطاقة العائلة، وبالفعل بلّغ بدر عن تسعة أفراد، وأعطوه بطاقة بتسعة أشخاص أي بعدد أفراد أسرته، أمّا عادل فلم يحذُ حذو أخيه، وبقي وأسرته محرومين من خدمات الوكالة كافّة رغم أنّهم سجلوا أسماءهم في الملاحق، وآثر السكن في سيناء.

كانت الخيام متلاصقة، فاضطرّ من يملك عنْزاً أو بقرة أو بعيراً أو أي دابة إلى أن يودعها لدى أناس خارج المخيّم، أو يعزب بها في الخلاء ليرعاها أو يحشّ لها، أو يتخلّص منها ببيعها، وترك البعض الخيام المكتظّة، وضاقوا ذرعاً بالازدحام، وعمل الكثيرون مزارعين لدى أصحاب الأراضي، التي تعتبر قاحلة مقارنة بالتي فقدوها، ولكن من اعتاد طيلة عمره على ممارسة الزراعة، لا يستطيع المكوث في الخيمة، فهو يفضلّ

المزارعة مرابعاً أو ناطوراً عن السجن في الخيمة، فترى سكّان المخيّم ينتشرون كلّ يوم في المزارع المحيطة بالمخيّم هم ونساؤهم وأبناؤهم، وكثيراً ما يسفر ذلك عن منازعات بين سكّان المخيّم وأصحاب المزارع المجاورة الذين لم يألفوا هذا الزحام المتعطّش للتجوال في الكروم والمزارع وتشقّق الهواء النقيّ، وكان يزعج أصحاب المزارع ما تثيره حركة الناس حول مزارعهم من غبار، وأحياناً يدعسون بأرجلهم البذور، ويمدّون أيديهم إلى الثمار غير الناضجة، ممّا يثير حفيظة الزارع، فيحمل بين يديه الثمار الملقاة على الأرض، يدور بها على التجمعات الجالسة في الهواء الطلق بجانب مزرعته قائلاً: أليس حراماً أن تقطف هذه الثمار وتلقى على الأرض لا يستفيد منها أحد. ثمّ يبعثرها أمامهم ويعود إلى داخل مزرعته حانقاً.

خيّم النازحون من القرية الواحدة متجاورين، وكذلك أبناء كلّ عشيرة، إلاّ من تأخّر في النّزوح والوصول إلى المخيّم، فتعذّر عليه السكن بجوار أقاربه، فكان الرجال يجتمعون كلّ ليلة للتسامر والتحدّث وتحليل الأخبار، وقد بنت خدمات وكالة الغوث مراحيض عامّة في الشوارع، لكنّها بدون مياه، خصّص بعضها للرجال والآخر للنساء، أمّا الأطفال غير المميّزين فيستخدمون أيّها يريدون، ولكن انتشار الأمّيّة لدى الكثيرين حال دون التعرّف على ما يخصّ الطرفين منها، وكانت هذه الدورات بدون أبواب، واكتفوا ببناء حائط أمام المرحاض يحول دون رؤية العابر القصير أمامه لمن بداخله في حالة جلوسه، وكثيراً ما يُرى أحد الناس يجري ليلج أحد المراحيض تحت إلحاح الحاجة رغم أنّه ليس شاغراً، ويجلس إلى جوار السابق دون إحم أو دستور، ممّا يتسبّب في نزاعات متكرّرة، وأحياناً يبول ولد عن بعد تجاه المرحاض، دون مراعاة خلوّه من عدمها، فيسمع الشتائم الغاضبة تأتيه من الداخل، وأحياناً يخرج رجل من الداخل وهو ملثّم بطرف عمامته، فيجري وراءه بعكّازه وفي يده إبريق مائه، وكان عطوة يقول: الرجل الحرّ لا يدخل هذه المراحيض القذرة أبداً، ولو اضطرّ للمشي مئات الأمتار ليقضي حاجته بعيداً عن الناس، على مهل دون منغّص. ويزور الكنّاس هذه المراحيض بسطل ماء ومكنسة مرّة يوميّاً، علماً أنّها تحتاج إلى تنظيف على مدار الساعة.

يأتي عودة كلّ أسبوعين ليستلم التموين، ويحضر حمل بطيخ لابنه فيشوّنه في خيمته، ويفلق منه يوميّاً ويطعم أصدقاءه الذين يتردّدون عليه لهذه الغاية، واشترى عودة حذاءً جديداً لابنه وآخر له، فعمد إلى الفردة اليسرى منه، وقوّر جزءاً منها يسمح لإصبع رجله الصغير بالخروج من الحذاء لأنّه نافر عن أخواته، يضايقه جدّاً إن حشره في زمرتها، وهذه عادته مع كلّ حذاء جديد يشتريه.

يسلّم موظّفو الوكالة سراج كاز لكلّ عائلة تُقدّم شكوى من كثرة البراغيث، يُوضع هذا السراج في صحن يُملأ بالماء، ويُغطّى وجه الماء بطبقة من الكاز، يُشعل السراج مساء، ويُركن في أحد زوايا الخيمة، وفي الصباح يجيء موظف الوكالة ليكشف على صحن السراج، فإن أصبحت البراغيث تطفو بكثافة على وجه الإناء قرّر الموظف رشّ البيت وساكنيه بمادّة: د. د. ت. لذا يجتهد سكّان البيت في اصطياد أكبر عدد من البراغيث، ووضعها في السائل، وربّما عاونهم جيرانهم في ذلك، لأنّهم قد يحظون برشّ أحد أبنائهم معهم، إذا ما تقرّر رشّهم، ويأتي موظّفو الوكالة يرتدون القبّعات والمعاطف البيضاء، يضعون على وجوههم الكمّامات، يُدخل الموظف طرف البخّاخة الحديديّ في الردن والصدر والظهر، وغالباً ما يُجرح ظهر المرشوش أو إبطه، والمسنّون يمقتون رائحة هذا الدواء، ويفضّلون أن يغلّوا ملابسهم أو يُقلّبوها على اللّهب، فيتكّوا وينفضوا أثوابهم ليقع ما علق بها من براغيث في النار.

أمّا عودة فلا يقوى على المبيت في الخيمة ليلة واحدة، فكان يقول: أكثر ما يزعجني هو حركة البرغوث ومشيه ودبيبه على الجلد، أمّا لدغه ومصّه للدماء فهما هيّنان، والذي ينكد على بدر فهي الآثار التي تُخلّفها البراغيث على الملابس البيضاء من لطع حمراء تلطّخ الأثواب والحطّات، وقال أحد المعلّمين لموظّفي الوكالة القائمين على رشّ الناس بالدواء: لقد أزعجت هذه البراغيث العرب منذ القدم، حيث تكمن لهم في البيوت والمعاطن الرمليّة، فجعلتهم يحرفون ألسنتهم، ويحدثون لها لغة جديدة، فقالوا: أكلوني البراغيث.

اشترى عادل زجاجة سموم تستخدم مخفّفة لرشّ المزروعات، وأعطى هذه

الزجاجة لابنه عبد الله وابنته جائدة، وهما يعزبان بغنمهما في نقع متاخم للحدود مع النقب، فرشّ عبد الله ملابسه بالدواء للتخلّص من القمل، ودهنت جائدة شعرها منه ليلاً ولفّته ونامت، فوُجدت ميتة في الصباح، ويُسمّي عبد الله بحمار القمل من كثرة ماعليه منه، وكان عادل يقول: إنّ القمل يبحث عن عبد الله داراً بدار.

عاد عجلان من المدرسة عند الظهر، سار محاذياً للمخيّم، وإذ به يرى كلباً يرقد على قارعة الطريق، وكان الشارع ضيّقاً، فخشي أن يستيقظ الكلب ويعقره أثناء مروره بقربه، انتظر مرور أحد ليقطع برفقته هذه المسافة الخطرة، فمرّ رجل وابنه فسار معهما، ثمّ تراخى في مشيته بعد أن تجاوز الكلب، وجد عصا ملقاة على الطريق، فقال: لو كانت هذه العصا بحوزتي ما خشيت الكلب قبل قليل، سأدفنها في الطريق، وأتسلّح بها غداً حين أمرّ من هذا المكان. ولم يلبث إلاّ قليلاً، وإذ به يجد على حافّة الخندق الذي يسند صريف الصبر جحراً صغيراً، وشاهد الدبر يدخل إليه ويقلع منه، خطر بباله أن يغلق فوّهة الجحر بالعصا ليرى تصرّف الدبر حين يُغلق بيته، صعد الخندق، ودحش العصا في الجحر إلى أن تعذّر عليه دفعها إلى الأمام، ففاع عليه الدبر، وأخذ يهاجم رأسه الحليق، فيصرخ وهو يجري نافضاً الدبر بيديه عن رأسه وأذنيه ووجهه، ولم يتركه الدبر إلاّ بعدما دخل بيت مزارع غير مكترث لنباح الكلاب، قابله صاحب البيت ضاحكاً ممّا شاهد من ذعره وقال: لا تناغش الدبر والدبر ساكت، لولا أنّك شاغلته لما لدغك أو اعترض طريقك.

رجع عجلان إلى الطريق، تابع سيره إلى خيمته، أورام محتقنة لامعة تعلو رأسه، وانتفخ وجهه ودفنت عيناه، من رآه قبل قليل لا يُصدّق أنّه هو، تعمّد أن يتريّث إلى غياب الشمس كي يتفادى المساءلة من جيرانه.

في اليوم الثاني غيّر طريقه، فاجتاز أرض بور تحيط بالمخيّم من الناحية الغربيّة، شاهد شيخاً كبيراً خرج من خيمته ليقضي حاجته، فلحق به حفيده الصغير متعثّراً في مشيته، يصيح من الرمضاء، فقام الشيخ ولاقى الطفل، غرفه بين يديه، ثمّ أقعده تحت شجرة التين، التفت الشيخ يمنة ويسرة باحثاً عن شيء يُلهي به الطفل ويسليّه، فلم تعثر يداه ولا رأت عيناه سوى خصيتيه، فأخذ يشدّ جلدتهما ويطلقها، فتعود إلى وضعها السابق،

وهو يقول للطفل: ها هه. يستغرب الطفل المشهد، ويحاول مدّ يده لتلامس هذا الكيس الجلديّ الذي يشبه زغلول حمام حديث التفقيس، ولم يكتسِ بالريش بعد، فوقه أنبوب رخو كعرف الديك الروميّ الذي يغطّي منقاره حين ينفش ريشه متبختراً، استحيى عجلان ودار من بعيد، خشي أن يراه الشيخ.

عند عودة عجلان من المدرسة قرّر أن يصنع سراجاً لينير له الخيمة ليلاً، أحضر زجاجة وملأها بالكاز، ثقب سدادتها وأدخل فيها سحيلاً من قميص بالٍ، وأخرج طرف الخرقة من السدادة وأشعله، فاشتعلت ذبالة أمست في مهبّ الريح، ستّر عليها بكيس الملابس وكرتونة الكتب، وأبقى ثغرة لرأسه، ومكاناً للدفتر، كان السناج يحوم ليمسح المنطقة، وكلّما خبت الذبالة نكشها عجلان إلى أعلى برأس دبّوس، لا بدّ للناظر إليه أنّه سيقدّر أنّ هذا السناج سيدفن خياشيمه، وهذه الذبالة المتذبذبة وسط الظلام الدامس ستأتي على عينيه إذا ما استمرّ الوضع على ما هو عليه بقيّة العام، كلّ حشرات المنطقة أخذت تدبّ نحو الذبالة، النمل المجنّح والفراش، والجعلان تتطاير، والخنافس تتقاطر من كلّ صوب، وكانت الخيالات المتشكّلة من حركة الذبالة ترسم صوراً مخيفة على جانب الخيمة أو خلفها، وإن أراد أن يتحقّق من صورة أهي حقيقيّة أم خياليّة، كان عليه أن يخرج من الخيمة، ويغمض عينيه لفترة من الزمن، ثمّ يفتحهما وينظر إلى أن تبدو له المناظر المألوفة التي يراها أمامه حين يطفئ السراج لينام، وغلباً ما يبات عنده أحد أبناء خالته، ليجد عند عجلان الطعام الشهيّ كالتمر والبطّيخ، ولفقدان الكاز من البيت يحلّ أبناء خالته وظائفهم على ضوء القمر.

وكان يتردّد على عجلان جمعة العبيد، وأكثر ما يثير الغرابة من سلوكه أنّه كان يسحّي بالشفرة شظايا من لحم قدمه الميّت، ويأكل هذه القطع مبرّراً ذلك بقوله: كيف ألقي بلحمي على الأرض ؟. وكان عجلان يقول له: كيف تستطيع أكل لحمك ألا تعافه ؟ فيردّ: إنّه طيّب المذاق وأنا قرمان.

سمع عجلان بعض النسوة يتحدّثن وراء خيمته، فقالت إحداهنّ: معارك ولد هدباء، سلّمه الله شاطر، يسرق الكحل من العين، أول أمس غاب مدّة بسيطة ثمّ عاد ومعه

لعب ورغيف غير مأكول منه إلاّ جزء يسير، هذه المراجل ولا بلاش الرزق يريد سعياً، درب المعاش عوجا. قاطعتها أخرى: اسكتي يا شيخة، بيت النتّاش ما يعلاش، هذا العمل يقعد له لمّا يكبر، ينتش شيئاً بسيطاً، ويدوّد في الحبوس، من يسرق البيضة يسرق الجمل، انظري ولد سلاّم ما شاء الله، يشتغل في مسلخ، يعود كلّ يوم ومعه قطعة لحم أو راس وكرش، وآخر كلّ شهر له راتب معلوم، ليت أولادنا يرافقونه، رافق المسعود تسعد، ورافق المقرود تقرد، والمراجل نقل، ونفس الرجال يحيي الرجال. علّقت ثالثة: كلّ ذلك قرقضة فارغة الرزق في الزراعة، الزراعة تجارة بدون راس مال، على الأقلّ المزارع يوفّر طعامه، والخبز مسامير الركب. قالت الأولى: الناس في هذه البلاد لا يعاملون الشريك معاملة حسنة، يحاسبونه على الجلد والسقط، صدق من قال: لا تحصد عند من كان حصّاداً، ولا ترعَ عند من كان راعياً. حصدنا أمس شعيراً عند الأغا وأعطانا كرانا من الزرع الواقف لكلّ حصّاد لجنة زرع، يحصدها ويغمّرها ويحملها، قرب البيت دققت القشّ وأخرجت منه الحبّ، وقسمته إلى قسمين، الأخضر قليته في الصاج وطحنته بالرحى، نخلته وصنعت منه بسيسة للأولاد، وبدل أن نبسّ البسيسة بالسمن أو زيت الزيتون نبسّه اليوم بسمن الوكالة، أمّا القسم اليابس فطحنته وخبزته، أعددت منه عشاء، وسأطحن باقيه. التفتت إلى جارتها وسألت: هل عندك دقيق تموين لتقرضينا صحناً ؟ فأجابتها: والله التموين لا يكفينا أسبوعاً، أمس اشترينا رطل ذرة والشعير أطيب منها، الشعير مأكول ومذموم.

استبدلت وكالة الغوث الخيام المهلهلة بغرف من الإسمنت، وسقفتها بالقرميد، سلّمت لكلّ عائلة غرفة، وكانت كلّ أربع غرف تشكّل كتلة واحدة ، وتسكنها أربع عائلات، ثمّ بنت قواطع بين الغرف وأحواشاً لتفصلها عن بعضها البعض، اعتاد عجلان أن يقف كلّ ليلة بجانب غرفة عطوة، مستكنّاً عن الريح الغربي، ويسمع ما يدور بين عطوة وزوجته حمدة من نقاش، فقد أصيبت بمرض نفسيّ بعد أن أنجبت مباشرة، وكان عجلان قد شاهد قبل عامين والدها المرحوم سليمان، وهم يربطونه بالحبال، فيظل يحدو طيلة اللّيل: يا أخي يا سلامة اللّيل ما أنامه. فيقول عجلان: إن بقيت حمدة على ما هي عليه الآن نعمة كبيرة الخوف أن تلحق بأبيها، وتلعب في الخرق، يسمعها تقول لزوجها: أسمعت ما

قالت خضرا ؟ فيجيبها: ما سمعت شيئاً ولا أريد أن أسمع. فتقول: سمعتها تحدّث ابنتها وتقول لها: إنّ الجدي سمين. هي تقصد ابني ولا تقصد الجدي ! فيحاول زوجها تبديد شكوكها: بسيطة، حتّى لو قالت إنّ ولدك سمين، فابن آدم لا يُؤكل ولا يباع إن سمن. فتضيف حمدة: سمعتها تقول العنْز صارف. فسأل عطوة: أيش صارف ؟ فتقول: صارف يعني بودّها أن تعشّر. قال: خليّها تعشر، نامي. صرخت: لا أريد النوم، يجب أن نرحل من هنا، فهؤلاء الناس لا شغل لهم سوى غيبة عباد الله، آه لو نجاور أناساً خرساً لا يتكلّمون. قال: والله أنت لو تجاورين جنّاً ستظلّين تشكّين، أما قلت ذاك الرجل يؤشّر لي ؟ سألت: أيّ رجل ؟ أجاب: بيّاع التوت، وهو ينشّ الذبّان عن توته، وقلت إنّ صالحة تنشر غسيلها على الحبل وتجعل الثوب الأسود يلينا، وقلت هي تتمنّى لنا الأحزان، لا داعي للنبش أكثر دعي الطابق مستوراً. فيتعجّب عجلان من خصوبة خيالها، ويقول في سرّه متعجباً من تصرّفها ليلاً: إنّك لو أتيتها في النهار لوجدتَ حديثها متّزناً، وهي كريمة وتقوم بالواجب، حبّذا لو أنّ الزمن عند حمدة كلّه نهار.

(١٥)

بينما كان التلاميذ يردّدون وراء المعلّم نشيد (بلادنا) وحين أتمّوا مقطع:

من رفحٍ لصفدِ خريطةٌ لبلدي رسمتها في كبدي أورثتها لولدي

فهلّلت أمجادنا بلادنا بلادنا

طُرق باب الصفّ، فساد السكوت، وحملقت عيون التلاميذ على الباب بفضول وترقّب، أسند المعلّم المؤشر الخشبيّ على الجدار، واتّجه نحو الباب، دخل مدير المدرسة يتبعه طبيب بيده سمّاعة، ولحقت به ممرّضة بمعطف أبيض، فقال المعلّم: قيام. وقف التلاميذ، ثمّ أمرهم المدير بقوله: جلوس. فقعد التلاميذ، وسار الطبيب بين المقاعد يتفرّس الوجوه، ويشير إلى الممرضة كي تسجل أسماء الذين يشير إليهم، فترى التلاميذ يتهالكون في مقاعدهم، ويتذكّرون وصايا أهلهم: إن جاء الطبيب الذي يسجل أسماء

التلاميذ النحفاء، اعرك عينك بيدك لتبدو حمراء كالجمرة، وأغمض الأخرى، تظاهر بالحول، اخفض رأسك بين كتفيك، واخفس في المقعد. ومن حسن حظّ محمد عامر أن رشّحه الطبيب للإعاشة، وكان قد حشر في مقعد بين أثنين من زملائه يكبرانه سنّاً وحجماً، طار مع قرع الجرس ليزفّ البشرى إلى أهله ناسياً حذاءه في درج المقعد.

سُلّمت بطاقات التغذية للتلاميذ المرشّحين، فأصبحوا في موقع حسد من رفاقهم الذين لم يحالفهم الحظ هذه المرّة، وغدا بإمكانهم تناول الغذاء لمدّة شهر كامل عدا أيّام الأحد المقيته لدى المنتفعين، وكم من محاولات ذهبت أدراج الرياح قام بها تلاميذ ليقنعوا زملاءهم ليعيروهم بطاقة التغذية لمرّة واحدة، في حين نجحت حيل ووعود قليلة في إحراز ذلك في نهاية الشهر، حين ملّ أصحاب البطاقات، وعانوا المشاقّ الجسام في الحصول على هذه اللّقمة، إذ يتّجه صاحب البطاقة إلى مبنى التغذية، حيث تفوح روائح المطبوخات، ويُسمع دويّ البوابير الضخمة وهي تنضج القدور، وبإمكان من يصل باكراً إلى هذا المكان أن يرى العربات التي تجرّها البغال والحمير، وهي تفرغ حمولتها من بيض وخضار وفواكه أمام هذا المبنى، وينبغي لطالب الغذاء أن يصل قبل شروق الشمس كي يحجز دوراً، فيتزاحم الأطفال هناك، ويدفع بعضهم بعضاً قبل أن يفتح باب المبنى أو يصل العمال والموظّفون، وبعضهم يرافقه أحد أفراد أسرته يراقبه عن بعد، ويذود عنه بلسانه إن تعرّض لخطر جائر، فيقف الطفل في صفٍّ طويل بين حائطين متقاربين لا يتّسعان إلاّ لسير نفر واحد في اتّجاه المدخل تعلوهما الأسلاك الشائكة، فيحشر الأطفال بين ضغط المزاحمين من الخلف وضرب الموظفين من الأمام، يدسّ كلّ واحد بطاقته في جيبه، ويضع يده فوقها خوفاً من أن يخطفها أحد منه، ويفرّ بها، وحين ينضج الطعام يقف موظّف على رأس الصفّ وبيده عصا غليظة، يتهدّد ويتوعّد من يثير الفوضى ولا يلتزم بالدور، وغالباً ما يطرد الواقفين بعيداً ثمّ يدخلهم واحداً إثر آخر في الممرّ الإجباريّ بين الحائطين، بعد أن يضرب كلّ داخل ضربة على ظهره، وقد يصبح في أول الدور من وصل أخيراً، أمّا الذي سرى باكراً فيقف آخر الدور، ولا يسمح بالاعتراض، ضف إلى ذلك أقارب هذا الموظّف ومعارفه، فهؤلاء بالطبع لهم الأولويّة، ويأمرهم بإخراج البطاقات والتلويح بها قائلاً:

رفرف كرتك.

يُناول الداخل حصّته، وهي في العادة نصف رغيف وبيضة وقليل من اللّبن المصفّى، وأحياناً يُعطى صحن طبيخ من الخضار أو سلطة وحبّة فواكه، وعليه أن يلتهمها في ثوانٍ معدودة، كي يفسح المجال لغيره لضيق المكان، وعند باب الخروج يقف موظّف سمين يحسّ جسم الخارج من رأسه إلى أخمص قدمه، كي لا يُهرّب شيئاً ممّا استلم، أو يسرق ملعقة، وإن وجد بحوزته شيء أُخذ منه وربّما سحبت البطاقة أيضاً، أمّا إن فشل الموظّف في إخراج ما دُسّ بإتقان وبراعة، كأن يضع أحدهم البيضة في يده أو جيب جاكيت فضفاض، أو ربّما تغاضى الموظف عن التدقيق أو ملّ من الانحناء على الصغار لصعوبة ذلك عليه لفرط ضخامته، فإنّ هذا الخارج سيخضع لتفتيش أدقّ، حيث تنتظره ثلّة من الأولاد الشرسين، ومعهم كلاب عقورة، فإن اكتشفت البيضة أو حبّة الفاكهة فإنّ صاحبها سيُضرب ويسلب، وتعقره الكلاب، ويطرد وهو يلحس أصابعه التي حاولت جاهدة التشبّث بالمسلوب دون جدوى، وكثيراً ما يشترط أصحاب الكلاب على البعض إخراج ما يستلم من النواشف إليهم وإلاّ تعرّض للضرب، وهم في انتظاره خارج المبنى، فيعود السليب ليقصّ على أهله ما جرى له، وإنّه لولا الملاعين لأحضر معه شيئاً من الطعام لأخيه الصغير، الذي يسيل لعابه وهو يستمع إلى تفاصيل ما استلم أخوه، فيقطب جبينه حين يصل الراوي إلى مقطع السلب والضرب، ويظلّ الأمل قائماً في إمكانية النجاح لإحضار شيء من الطعام.

فتح عامر بطاقة التغذية المطويّة، نظر إلى الثقوب التي تشير إلى عدد الأيّام المنتهية قلّب البطاقة ولأوّل مرّة يقرأ على ظهرها عبارة كُتبت تحت راحتين تتصافحان تقول: الجوع يهدّدهم، والموت يترصّدهم، ساهموا في إغاثتهم.

أمّا غسّان فأصعب ما يواجه في المدرسة يوميّاً هو شرب الحليب الإجباريّ وابتلاع حبّة زيت السمك، وكم من مرّة يُكرهه مربي الفصل على شرب الحليب، وما يلبث أن يتقيّأ كلّ ما في معدته، حتّى هذا لا يشفع له ويعفيه من تجرّع الحليب في اليوم الثاني، لاعتقاد المعلّم أنّه سوف يعتاده مع كثرة التكرار، لكنّ غسّان عمد لاحقاً إلى حيل منها سكب الحليب خفية أو إعطائه إلى أحد أصحابه ممّن يشربونه في طرفة عين، وأحياناً يأخذ

الكأس فارغة مستغلاً الزحام موهماً المعلّم أنّه ملأها بالحليب، وما يلبث أن يعود ليسلّم الكأس، فيقول المعلّم: ها أنت قد اعتدت على شرب الحليب، أليس كذلك ؟ فيجيب: بلى يا أستاذ.

(١٦)

حدّث سليم جلساءه في الديوان قائلاً: أخرجت حبّاً من جهير بقي لي عند مسكننا السابق في سيناء، فوجدت أنّ الرطوبة قد لحقت بالوجه العلويّ للحبّ فأزحته جانباً، وعبّأت الحبّ الجيّد في كيس، وأخذته إلى المطحنة، ولم تمض إلاّ أيّام قليلة حتّى نفد الطحين، فأخذت الحبّ المطمر الذي لحقه البلل إلى المطحنة، فخلطناه بدقيق المؤن وأكلناه. حدث لنا كما حدث للعبيد حين شبعوا من التين وبطروا بالوا عليه، ولمّا جاعوا عادوا إلى التين يفرزونه: هذه الحبّة أصابها البول وهذه ما أصبها. إلى أن أتوا عليه جميعاً. سأله عامر: ما أخبار جيراننا في سيناء ؟: والله هم في مسكن شرح، أمّا محشرنا هذا فلا يمكن تصوّره، وجدت صقيراً عاد إلى رعي الإبل، يغامر برعيها في الأرض المحتلّة، ويقول إنّ الربيع هناك يخفي الخروف، وأتى معي إلى بئر المالح ليسقي الإبل، فأرعبني حداؤه وهو ينشل الماء بالدلو من البئر، ويصبّه في الحوض وهي تتزاحم لتشرب ويحدو:

حمرا لبنها ذوبةْ تسوى معطّر ثوبةْ

ويضيف : عسلوج لا تردنّه خايف عليكن منّه

أمّا صاحبه الهوّاريّ فقابلته يسقي من بئر الحلو، وقد اجتمع عليه خلق عظيم، وهو يسقي ذوده تساعده ابنته ويقول:

معهن صغيّر جلوي ومصدّرات العلوي لقيت أثيره يلوي

ويغنّي: صبّ إلها صبٌ وهي تشربْ

واتّجه بكلامه إلى أخيه عامر متبسّماً: لقد سمعت عنك قصّة ما صدّقتها هناك. فقال عامر: أخبروك بها، كلمة السوء مسموعة، قصّة لا تتمنّاها لصديق. قال سليم: نعم،

أخبروني، وزعلت كثيراً، يا رجل ألا تميّز بين التبغ والسيكران ؟! قال: هذا الذي جاءك. تدخّل بدر: عسى ما شربت السيكران ؟ قال عامر: نعم قد شربته. سأل بدر: وكيف كان ذلك ؟ قال: مررت بواد وكان معي صادق وسلاّم، وكنّا مفلسين ليلتها من التبغ، وقبل أن نجتاز الوادي، قعد صادق يبول، وإذ به يحضر شتلة تبغ يابسة وقعت يده عليها، فركنا هذا التبغ وملأنا علبنا منه، ورمينا بجذوله، لفّ كلّ واحد منّا سيجارة، وأشعلها، ونحن متوجّهون إلى ديوان العمريّ، وطرحنا عليهم السلام، وأخذنا نتحدّث معهم قبل العشاء، فقاموا إلينا وشدّوا وثاقنا، وفتّشوا ملابسنا وعاملونا بقسوة إلى أن عثروا على علب التبغ، وفتحوها قرب النار، وشمّوا ما بها، عندها عرفوا أنّنا شربنا نبات السيكران ظنّاً منّا أنّه تبغ، فضحكوا وأمرونا بالنوم بعد أن أسقونا زيداناً من القهوة، فتقيّأ سلاّم وثاب إلى رشده، وأخبرهم بقصّتنا، وفي الصباح انصرفنا خجلين. قال بدر: يا رجل السيكران له رائحة مميّزة. علّق سليم: المنقرس لو دخّن ورق خروع ما ميّزه عن التبغ. قام بدر وبدا أنّه يريد الانصراف إلى بيته، فقال عامر: ما بك تريد ترك التعليلة باكراً هذه اللّيلة ؟ قال: أشعر بوعكة صحيّة. سأله صابر: ماذا تحسّ، أتشعر بصداع ؟ قال: لا. سأل: أتحس بحمّى ؟ قال: لا. فسأل: ألمٍ في العظام ؟ أم ليّةٍ في البطن ؟ قال: لا. فقال: قم إلى بيتك بلا أعذار واهية، وتذكّر أنّ الغرفة مليئة بالأطفال، لقد جنّت صالحة، فقد استيقظت ليلاً فهيّئ لها أنّ أباها يخنق أمّها، فصرخت مذعورة، ولم يترك أهلها طبيباً أو درويشاً إلاّ وزاروه، نسأل الله أن يشفيها، لذا على الرجل أن يحترص في هذا المحشر.

يُسمع غناء وصخب في طرف المخيّم الشرقيّ، تزوّج العاصي بعد أن تحرّر من الأسر، وقد شاع خبر أنّ اليهود عذّبوه، وفدغوا خصيته فقطعوا ولده، أدخل المختار العاصي على زوجته سلوم في بيت من الأكياس قرب غرفة أهله، تجمهر الأولاد من جديد بعد أن طردهم المختار، وهتفوا على مقربة من البرزة:

يا حسرتك يا سلوم هنُ العاصي ما يقوم

ويصيح آخرون: يا فرحتك يا سلوم شيّ العاصي كالقدّوم

فلحق بهم المختار، يضربهم بعقاله، فتشتّتوا في أزقّة المخيّم.

(١٧)

كان عجلان يهمّ بالخطو ليدرك المدرسة قبل قرع الجرس، فرأى قلم حبر يسقط من حقيبة تلميذ يجري أمامه، تناوله وظلّ ممسكاً به، نظر إليه وقال: أنّه مبندق، سأعطيه لصاحبه، قد لا يملك غيره، فيعاقبه المعلّم إن لم يكن بحوزته قلم للكتابة. لحق به وهو واقف في الصف، همزه في كتفه وناوله القلم، نظر إليه، قلّبه ومدّ يده داخل حقيبته ليتفقّد قلمه، فخرج إصبعه من إحدى زوايا الحقيبة.

حدّثهم المعلّم عن صديق له، كان له شعر طويل يرجّله إلى الخلف، سهر عند أصحابه البارحة، وكان محور الحديث الجنّ والعفاريت وأرواح القتلى التي تتراءى للناس وتضايق المسافرين بما تتشكّل عليه من صور، وما تحدثه من أصوات، فلمّا فرغت السهرة عاد إلى بيته، وكان عليه أن يجتاز بستاناً خالياً من الدور السكنيّة، وبه أشجار عنب ولوز، فأمسى يتخيّل الكرمة إنساناً يجثو على ركبه، وشجرة اللّوز بعيراً واقفاً يقصع الجرّة، ولمّا وصل إلى القناة التي تتوسط البستان رأى عموداً يصعد من الأرض إلى السماء، تسمّر في مكانه، تعوّذ من الشيطان، تلا المعوّذتين، فتصبّب جسمه عرقاً، مسح جبينه، ومسّد شعره إلى الخلف، فاختفى ذلك العمود، وواصل السير إلى بيته، لم يدُرْ بذهنه أنّ العمود الذي كان يشقّ عنان السماء مجرّد خصلة شعر تدلّت من غرّته، فأزاحها بيده حين مسح العرق عن وجهه.

انضمّ عجلان وهو عائد من المدرسة إلى حشد من التلاميذ، وهم يطبّلون على حقائبهم بأيديهم، يزفّون معتوهاً، يهتفون بصوت واحد: هوس هوس طالع له ذنب. فيطردهم عنه رجل ويشتّت شملهم، ثمّ يلتئم الحشد من جديد، فيتركهم الرجل قائلاً: هذا جيل دع دع، إن أكل ما يشبع، وإن نهيته ما يسمع. فيلتفت إليهم المعتوه، وكان قد اقترب من حنفيّة ماء عامّة، عندها جمع من النسوة يملأن جرارهنّ، شمّر المعتوه ثوبه إلى أعلى، وأمسك بذكره وقال: هذا هو الهوس. فيزداد صخب الأولاد، وتستحي النسوة ويقعن على بعضهنّ، ويواصل مسيره والهتاف لا ينقطع.

أصبح ضجيج الباعة عالياً حين ينادون على بضائعهم أمام المدرسة، وهم خليط من الرجال المسنّين والنساء والأطفال، يُعدّون هذه البضائع في بيتهم من الدقيق والحليب المجفّف والسكر والأصباغ، الذباب يحوم فوق مواعينهم، ويمتصّ من رحيقها، وأكثر ما يروع المرء أنّ طفلاً لا يتجاوز السابعة، يجيء في الصباح الباكر إلى المدرسة، لا ليدخلها ويتعلّم فيها شأن الآخرين، بل ليضع على رأسه صينيّة يمسكها بيديه، ليتبوّأ له مكاناً ملائماً قرب باب المدرسة، لكنّ الباعة يطردونه ويمنعونه من وضع بضاعته بقربهم، وأثناء البيع ينتش منه الأولاد قطعاً دون أن يدفعوا له شيئاً مقابل ذلك، وأمّه المشلولة لا تجد من وسيلة للعيش سوى أن ترسله إلى حيث مزاحمة الأقدام، ويصيح أحد الباعة: حلّ ضرسك، تحفظ درسك. ويغرس آخر على ضلع من الصبر أعواداً على رؤوسها تفّاح صغير مغطّس في صباغ أحمر، وينادي: شنابر مأكول الأكابر. وتختلط الأصوات: بلميّ يا جميّز. سحلب حليب سخن. ترمس يا لوز. نابت يا فول. بليلة بليلة.

يخرج الأولاد الخبز من حقائبهم ليشتروا أشياء يسيرة من هذه المعروضات بكسر خبز، يمدّ غسّان رغيف الصاج إلى بائع الهريسة، فيأخذه البائع ويلقي به في الكيس، ويقطع لغسّان قطعة صغيرة بالسكّين، فيحتجّ غسّان: برغيف كامل هذه القطعة فقط بينما تعطي هذا بربع رغيف ضعفها ! فيصرخ البائع: أتسمّي هذا رغيفاً ؟! وتنتابه نوبة سعال يقذف على إثرها بكرة بلغم أصفر من صدره بحجم حبّة الجوز، يدملها في التراب قرب ركبته، ويظلّ خيط رفيع شفّاف يصلها بجوفه لا زال ملتصقاً بزاوية فمه، في حين أخرجت يده اليسرى الرغيف من الكيس، ولفّه بين أصابعه وقال وهو يضعه في فمه: تسمّي هذا رغيفاً سامحك الله ! ثمّ أخرج كردوش كماج محمّراً من الكيس بسمك كفّه وتساءل: إذن ما هذا ؟ رغيفك يعادل لقمة من هذا. فاقترح جليس غسّان على مقعد الدراسة أن يبدله كلّ يوم نصف رغيف فرن برغيف صاج، ليشتري ما يريد، لأنه رأى أنّ البائع قد غمطه حقّه، وهو يفضّل خبز الصاج عن الفرن، لكن غسّان فضّل أن يعود برغيف الفرن إلى أهله بدل أن يشتري الحلوى، إلى أن أصبح الجميع يخبز على الفرن.

رجع يونس بدر باكراً من المدرسة على غير عادته، فسأله أبوه عن السبب، فقال:

طردني الأستاذ، لأنّ شعري طويل، وقد نبّهني لذلك عدّة مرّات. فقال أبوه: لا أملك نقوداً لأعطيك، اذهب وفتّش عن حلاّق مسنّ، وبعد أن يحلق لك شعرك اهرب من عنده، وزغ في أزقّة المخيّم، وما دام شيخاً فلا يقوى على اللّحاق بك حتّى لو طاردك. فعاد يونس إلى السوق، يدور في الشوارع، ويطلّ داخل دكاكين الحلاّقين فلم يعثر على ضالّته المنشودة، وعرض الفكرة على ذهنه عدّة مرات، فبدت له غير مقنعة، فعزف عنها، لاحظ أبوه أنّه لم يحلق شعره فبادره: لماذا لم تحلق شعرك ؟ فقال: لم أجد حلاّقاً شيخاً. ضحك عامر وقال ليونس: بلّ رأسك واقعد هنا، سأحلق لك رأسك بهذا الموسى. جلس يونس على الأرض وأخذ عامر يقشّر رأسه حتّى غدا كالبصلة، ويحدّثه: في الأصل كان هذا الموسى شظيّة قنبلة، أخذته إلى الحدّاد، فطرقه وجلخه وثقّبه، وأنا صنعت له نصاباً من الخشب. قام يونس وقعد مكانه شاهين، وقال لعيد: قطّ لي اللّحية والرأس. ثمّ وجه كلامه لبدر: كنت أوّل ما طلعنا من البلاد أحلق عند الفالوجيّ بقرش، ومنذ أيّام زرته وأعطيته قرشاً فقال: الحلاقة غليت وأصبحت بقرشين. فقلت له: ما سبب غلاء الحلاقة ؟ لم يتغيّر شيء، وأنا لن أدفع إلاّ قرشاً في الشهر، كنت أحلق مرّة في الشهر، أمّا الآن فسأحلق مرّة كلّ شهرين، حين غدت بقرشين. ويضيف شاهين: ورأيت أنّ اهتمامه قد قلّ، أو إنّه ربّما بطر على النعمة، والنقود التي يأخذها الحلاّق هي خسارة محضة، لا يُأكل منها ولا يُشرب ولا يُتعالج ولا يُركب، بعدها أخذت أحمل شفرة ومكنة حلاقة، أينما وجدت من يحلق لي رأسي ولحيتي غشيته، ووجدت من يقرم على الحلاقة قرماً، ويشعر بمتعة وهو يحلق للمرء رأسه، أمّا عامر فيده خفيفة لا يجرح، ولكن لا جلد له على الغضون التي في الوجه، دائماً يكرّر: انفخ فمك، ضع لسانك كلقمة وادفع به الشدق الأيسر أو الأيمن، ولا تطيب له الحلاقة إلاّ على الصفر، ويترك لك عرفاً إن طلبت منه ذلك وكان باله رائقاً، ثمّ يطلب من المحلوق أن يجرف شعره في حجره ويكبّه بعيداً. وكان عامر يصغي لكلام سلميّ ويبتسم، وقال لبدر وهو يخبّئ موسى الحلاقة: علمت أنّ عادل ينوي أن يجدّد، ويردف مع ثريا امرأة أخرى فما رأيك ؟ أجاب بدر: لا تصدّق، فعادل مثل حصان العامريّ، يصهل وهو في مربطه إن رأى أفراساً من بعيد، ولكنّه يستكين ويخفض رأسه إن دنّوا منه فرساً ليشبّيها، كأنّه لا يراها.

أخلى صادق وأخوه صابر غرفتيهما في المخيّم، ورحلا في الأراضي البور شمال رفح، طلباً للعمل في المزارع، وحذا حذوهما الكثيرون، عمل صادق في إخراج نبات النجيل من الأرض لإعدادها للزراعة، يحمل فأسه ومحفاره كلّ صباح ويتّجه إلى المزرعة التي يعمل فيها، حملت إليه زوجته طعام الغداء ظهراً فلم تبصره، أخذت تبحث عنه عند أماكن الحَفْر، عثرت عليه في حفرة عميقة، يتبع بالمحفار عرق نجيل تغلغل إلى أسفل ليلحق بالثرى، فنادته: اخرج من هذه الحفرة، يوشك أن ينهار عليك الرمل ويدملك، أنسيت السطريّ الذي طمره الرمل وهو ينجّل ؟ قال: انتظري قليلاً، أوشكت أن ألحق برأس الشرش. قالت: لو انهار عليك هذا الرمل لا قدرة لي في انتشالك، وسّع الحفرة، واجرف الرمل بعيداً، واعمل براحتك. قال: الحمد لله سحبته، انظري رأسه.

خرج صادق من الحفرة، مسح يديه بصدره، مدّ يده اليمنى، صبّت عليها زوجته قطرات من الماء، فرك أصابعه وقعد يتغدّى، كان العرق يبلّل جسمه، والأجزاء التي جفّت منه تركت حزوزاً وبقعاً بيضاء على أطرافه وثوبه الملاصق لظهره، أنهى الطعام وشرب الماء، ثمّ شرع بحفر جديد ليستأصل كرس نجيل استفحل على مقربة من مقعده، كان يراقبه أثناء تناوله للطعام، وخاطب زوجته التي أخذت تجمع عُقَل النجيل التي أخرجها من الأرض: لا تدعي عقلة واحدة، لمّيها في الكيس وخذيها إلى الحمار أخاف أن تضغثها الحيوانات في الأرض، وتنبت من جديد السنة القادمة، فنضطرّ إلى إخراجها ثانية. اضطرّ إلى خلع عود ذرة وهو يحفر ليبحش عن أوّل كرس النجيل وشرع في البدع:

عيرك لو طبّ ذرتنا　　من آخر ذيل لأجبعهْ
عيري يرعى النجيل　　وعِرْق النجيل بينفعه
أيش وصف عيرك　　حتّى إن جاني ما أقرعه
عيري أشهب قصير　　ومن فوق ظهيره برذعة
وإن نهَّق في العريش　　من شرق غزّة تسمعه
يطلق زانة من صلبه　　خامس رجليه الأربعهْ

وقال البيت الأخير همساً، ونظر إلى الطريق خوفاً من أن يسمعه أحد، ثمّ التفت إلى زوجته

التي كانت تحمل كيس النجيل على رأسها، وقال: ذيلك وراك، وربّك يرعاك، أرسلي لي الولد بإبريق ماء مصقّع.

(١٨)

لم يفلح غسّان في ارتقاء جذع شجرة الجمّيز الضخمة دائماً بأمان، حيث يحزمها غانم سعد بلفّات من الجنْزير، فتخرق بنطال الراقي أو قميصه، فيكتفي غسّان أحياناً بأن يستلقي تحت شجرة الجمّيز ينتظر أن تسقط عليه حبّات منها، إمّا لفرط نضجها، أو لعبث منقار عصفور بها، وإذا ما اعتلى الجمّيزة العالية فبإمكانه مشاهدة ساحات البيوت المتناثرة، فسمع صوت صابر يسأل زوجته وضحاء: غسلتِ الثوب أم لا ؟ فقالت: ها هو في اللّقن مايص.

إنّ أسنان أولاد غانم صفراء مسودّة من كثرة أكل ثمار الجمّيز، حتّى الصغار منهم، ويتذكّر أنّ هذه الجمّيزة لم تثمر لسنين خلت أيّ حبّة، فقدم إليها في الصباح الباكر إخوة غانم، يحملون الفؤوس والشروخ والبلطات، كان الندى يغطّي كلّ شيء، ويحجب الرؤية، فأخذوا يشدخون جذع الجمّيزة بأسلحتهم، وحليبها يقطر من لحائها المتجرّح، وغانم يتظاهر بالبكاء ومحاولة صدّهم عن جمّيزته، وبعد هذه التمثيليّة أثمرت سبع مرّات في السنة، وثمرها صغير حلوٌ لا يدخله الدود ويمكن تذبيله وتجفيفه فهي من النوع البلميّ، ولم يقتنع عامر بأنّ تلك المسرحيّة التي قام بها إخوة غانم – حين تظاهروا وكأنّهم يريدون قطع الجمّيّزة – تخيفها لذا فهي تحمل من الخوف، فكان يقول لهم: إن أردتم أن يحمل الجميّز حملاً وفيراً اتركوا إحداها سبيلاً للناس ليتفيّؤوا ظلّها ويأكلوا ثمرها، أمّا أن تجعلوا واحدة سبيلاً فإن رأيتم حملها جيّداً أبدلتموها بأخرى فلا يجوز. يبتسم غانم ويقول: نحن لا نمنع أحداً أن يأكل في بطنه، ولكنّنا نتضايق من الأولاد الذين يجردون الثمر قبل نضوجه، ويدوسون المزروعات. فيعلّق عامر: هذا كلام مفروغ منه، أنتم في الواقع تتضايقون من العصافير، وأولادكم يضعون أعواد الدبق في عبّ الجمّيز ليصطادوها، ثمّ

من الذي يأتي الجمّيز غير أولاد أقاربكم، لكن وجه الغول ما هو مقبول، والقلب غليل على أمّ خليل.

كما اعتاد غسّان ورفاقه أن يعتلوا كترة بارزة أو كثيباً رمليّاً مرتفعاً مع العصر، على مقربة من خطّ الهدنة، ويرسلوا طائراتهم الورقيّة، مستفيدين من الريح البحريّة، لتحلّق في الفضاء وتتجوّل فوق بلادهم التي حُرموا من التجوّل عليها، وهم ينظرون إليها أمامهم، فكانوا يمدّون الطائرات الورقيّة بعدّة شلل من الخيوط، حتّى لربّما رفعت الطائرة أحدهم إلى أعلى، أو جذبته إلى الأمام، وإذا ما انقطع خيطها سقطت هناك، أمّا عن ذيولها المتذبذبة الملوّنة فقد ملأت أراضي البور داخل الحدود، وقبيل الغروب يتدحرج الأولاد على الكثيب الرمليّ، أو يجلسون على ذروته فيحملهم الرمل المنهار إلى قاع الكثيب من الناحية الشرقيّة.

(١٩)

وصل سلاّم من المدينة ترافقه زوجتاه، وكان المطويّ يتمدّد مع عودة على مرتفع من الأرض قرب البيوت، قال المطويّ: مسكين سلاّم كم من مرّة راح إلى الطبيب ليتعالج وزوجتيه، وكم زار الدراويش من أجل الإنجاب، وإلى الآن لم تتيسّر أموره. فقال عودة: سلاّم هذا مخروع. سأل المطويّ: من الذي خرعه. قال: خرع يوم الجفيل، حين شاهد اليهود يخرجون أناساً مختبئين في بئر ويقتلونهم، فغدا رأسه أبيض ككفن الميّت، ولم يعثروا عليه. سأل المطويّ: ألم يشرب في طاسة الرعبة ؟ قال: بلى، قد شرب ولم ينفع فيه طبّ ولا دواء. قال المطويّ: أيش رأيك نخرعه مرّة ثانية، وخرعة تطرد خرعة. سأل عودة: وكيف نخرعه ؟ قال: هذا أمر هيّن، آتيه اللّيلة وهو نائم، وأطلق طلقة عند رأسه وما عليك إلاّ أن تخبر زوجتيه بذلك، كي لا ترعبا أيضاً، أوصهما أن تكتما السرّ وإلاّ فشل العلاج.

تسلّل المطويّ مع منتصف اللّيل إلى منام سلاّم، وكان القمر مضيئاً، فرآه ينام وقد تغطّى بلحاف أبيض أمام خصّي زوجتيه المعتمين، وإبريق ماء قرب رأسه، والندى

يموج في المنطقة كالضباب، تمدّد المطويّ إلى جوار سلاّم، وأطلق رصاصة في الجو، فقحص سلاّم مذعوراً، فارّاً إلى الجنوب دون أن يلتفت حوله، ومال في منخفض يشبه الوادي عاري الرأس، يرتدي ثوباً أبيض قصيراً، ضحك المطويّ ونادى سلاّماً الهارب، واستيقظت المرأتان، وتوافد الجيران، وأُشعلت النار، وعاد سلاّم وقد عرف اللّعبة، ولم يبد غيظاً، بل تقبّل ما حدث حسب نيّة فاعله، وصل عودة تتبعه زوجته وعلى ظهرها طفل في المزفر وحدّثت أنّها تعرف امرأة تداوت عن العقم بنبتة الخامشة، طبختها في وعاء وقعدت فوقه تاركة البخار يصعد من أسفل إلى أعلى، وهي تكمر نفسها فوقه، وبالفعل أنجبت بعد سنين من العقم، فقال المطويّ: صحيح أنّ الخامشة تفيد المرأة في حالة العقم، ولكنّها تضرّ بالرجل إذا استعملها. وقال شاهين: حدّثنا شيخ مغربيّ فقال: إنّ من خُرع في النهار عليه إلاّ أن يكمر نفسه فوق ديك أبيض مطبوخ، يأكل لحمه ويشرب مرقته، أمّا إن خُرع في اللّيل فيُكمر فوق ديك أسود، وإن كان لا يعلم إن خُرع في نهار أم ليل فعليه أن يُكمر على ديك منقّط. علّق سلاّم: كم أكلنا من ديوك، ما أظنّ إلاّ أنّ المطويّ قد خرعنا اللّيلة، فعليه إحضار ديوك سوداء لكلّ الجيران، ولكنّ اللّيلة قمراء، تلزمنا إذن الديوك المنقّطة.

علم قصّاد أنّ والده المطويّ ينوي الزواج بحجّة أنّ أمّه مريضة، وحرّضه أخواله على أبيه: ها أنت قد بلغت سنّ الرشد، فإن كان أبوك يريد حقاً أن يأتي لأمّك بمساعدة، فليزوّجك أنت، فقد أصبحت رجلاً، أم أنّك لا تنفع للزواج ؟ فشُحن قصّاد، ولحق بأبيه إلى الديوان، جلس مقابلاً له كالديك، فقال له: سمعت أنّك تريد الزواج. فقال: نعم. فأخرج قصّاد هنه أمام الناس وصرخ: وهذا أين أذهب به ؟ فستره أبوه وقال: أوصلت بك الأمور إلى هذا الحدّ، لماذا لم تخبرني، سأسعى لك في الزواج منذ اللّيلة، وخرج من المجلس.

اعتاد سلاّم أن يعمل في كرم ملاصق للحدود، وتعسكر على مقربة منه دشمة بها بعض الجنود، وتعدّ هذه الدشمة نقطة استطلاع متقدّمة، يزورهم سلاّم ويتحدّث إليهم ليتسلّى، وأحياناً يأتي لهم بشيء من القثّاء أو البطّيخ، وهم يعطونه بعض الخبز، وأغراهم أثناء تردّده عليهم بجنديّ إسرائيليّ، يأتي كلّ صباح من مستوطنة مقابلة، ويكمن في دار كانت قبل النّزوح مدرسة، ويعود قبل الغروب، يقول سلاّم لرقيب الموقع: هذا اليهوديّ يأتي

كلّ صباح، ويلبد هنا مقابلاً لكم، يستطلع بمنظاره موقعكم، ويسجّل ويصوّر كلّ داخل وخجار عليكم، أرى أن تعبروا الحدود قبل قدومه، وتكمنوا له على الطريق، فتقتلوه وتسلبوا سلاحه، وبعدها لن يفكّروا في إرسال أحد غيره، وأخيراً وافق رقيب الموقع على الخطّة، اختار جنديّين وأخذ معه سلاّم الأعزل من السلاح، وكمنوا خلف ساتر ترابيّ يمرّ بقربه الجنديّ، وحين اقترب منهم حرضّ سلاّم الرقيب كي يطلق عليه النار قائلاً: هيّا أطلق عليه، لا تفوّت الفرصة وتعطه المجال لقتلنا، فلم تطلق بندقيّة الرقيب، فأدرك سلاّم أن لا فائدة ترجى منه، وأيقن بالهلاك حين سمع صوتاً ينبعث بقربه، فزحف إلى أقرب الجنديّين إليه وحرّضه على إطلاق النار، فدوّت رصاصة، وطارت بندقيّة الإسرائيليّ من يده، فقفز سلاّم وأخذها، وأسرع الرقيب والجنديّان إلى الحدود، ولحق بهم سلاّم، وعند اجتازه الحدود وجد أنّهم قد نصبوا له كميناً، اقتادوه إلى موقعهم وكأنّهم لا يعرفونه، واتّهموه بالتجسّس لحساب إسرائيل، حيث أُلقي عليه القبض وهو خارج من الأرض المحتلّة ويحمل بندقيّة إسرائيليّة، أذاقوه ألوان العذاب، ونُقل إلى السجن الحربيّ، وانتظر أن يُنفّذ فيه حكم الإعدام، ومن حسن حظّه أن قابله ضابط كبير، أعاد معه التحقيق، فأدلى بالحقيقة كاملة، فاستدعى هذا الضابط الجنود الذين رافقهم سلاّم لتنفيذ المهمّة التي اقترحها عليهم، واعترفوا بما حدث، وعرف أنّ الرقيب لفّق التهمة لسلاّم لخشيته من مسؤوليّة عبور الحدود، وتنفيذ مهمّة دون علم القيادة، عندها أُفرج عن سلاّم، ومنع من مباشرة أرضه المتاخمة للحدود.

(٢٠)

كبست شرطة مكافحة المخدّرات بيت خضر،فلم يجدوه في البيت، فأخذوا ابنه حمدان الذي لم يتجاوز السادسة عشرة،لم يثنهم توسّل أمّه وتضرّعها، ولا بكاء إخوته الصغار وأخواته، فدلّهم على الطريق أثناء عودتهم حين تاهوا في الصحراء، لانعدام الطرق المعبّدة، وأحضر لهم صفيحة بنْزين من عند أحد أقاربه لمّا نفد وقود سيّارتهم، كما

أحضر لهم خروفاً، ذبحه وسلخه وشواه على جمر الرتم، وأكلوه على ضوء القمر، وعندما أتمّ مهمّته أعادوا قيده، وحملوه معهم في السيّارة إلى العريش، ظنّ أنّهم سيفرجون عنه ويطلقون سراحه قبل وصولهم إلى البلدة، كان يجلس في الخلف بين الحرّاس، ويجلس قائد المفرزة بجانب السائق، وأنس من حرّاسه غفلة ؛ لما حلّ بهم من تعب ونعاس لشبعهم من اللّحم ولاهتزاز السيّارة وانتصاف اللّيل، رأى أضواء مدينة العريش خافتة ذابلة، فوجل قلبه وأمسى نهباً للأفكار، وتواردته الهواجس: لا أحمل شهادة ميلاد، وليس معي بطاقة، يتّضح من كلامهم أنّهم يتّهمون أبي بتجارة المخدّرات، وأقل عقوبة هي ربع قرن من الحبس، لم يشفع لي طعام ولا بنْزين ولا هداية طريق وقد أجني على أبي لأنّه ربّما سلّم نفسه لإنقاذي، لم أعلم أبداً أنّ له علاقة بالتهريب، إنّه صائم قائم، وسبب فراره حين رآهم قادمين من بعيد معرفته ماذا سيفعلون به، لم يتوقّع أن يأخذوني معهم، فهو الذي طلب منّي المكوث في البيت عند الأطفال والنساء كي لا يرتاعوا، يا ويل أمّي كم كانت تقول: كم في السجون من مظلومين. والموت عندي خير من الحبس والتعذيب. هكذا شحن نفسه وحرّضها، فقفز من السيّارة حين تباطأ سيرها لاجتيازها مرتفعاً، فوقع على كثيب موالٍ للطريق على مرافقه، ولم يفطن إليه أحد، وظلّت السيّارة تواصل سيرها، وثب يعدو مبتعداً عن الطريق بين الكثبان، وقال: سامحهم الله، كنت أظنّهم يمزحون معي، وسيطلقونني بعد الذي فعلته معهم، ولكن اقترب الذبح للنبح، ولم يخطر لهم ببال عتق رقبتي، ينامون بجانبي ويشخرون في السيّارة، وقلبي ينفطر من الخوف !.

عرّج على شاهين فوصل إليه مع الفجر فقصّ له القيد، وأعطاه جملاً ليلحق بوالده في الجبال الوعرة، الذي انضمّ إلى الكفّ الأسود حيث أصبحوا ملاذاً للمطاردين والمطلوبين، حدّث أباه ومن كان عنده بما جرى له، تعجّب من اهتمام وتركيز أحدهم كان رجلاً نحيلاً ظاهر عروق اليد، وكان كالموحى إليه، إن أخبره أحدهم بوجود أثر بعير في المكان الفلانيّ، فيقول: هذا ينتظر صحباً له، أو يقول هذا تائه، وحين يرصدون المكان يتبيّن لهم صدق حدسه، يعرف طبيعة من معه معرفة أكيدة، وكان لا يتورّع في نهب قافلة، وقد يخسر من جرّائها جهداً ودماً، ثمّ يوزّع ما نهب على الفقراء والمحتاجين دون أن يستأثر

بشيء، ويردّد دائماً:

إن قيّلت ربعي بظلّه ونفناف تلقى مقيلي عاليات الرجومِ
إن قلّت الوزنة وربعي مشافيق أقسم عليهم أمّا نفسي تشومِ

وكان يقول: مصيبتنا أن الجنود الذين يأتون إلى منطقتنا لا يعرفون طبيعة الناس هنا، هناك تباين في العادات والتقاليد واللّهجة المحكيّة، ويقعون في أخطاء فاحشة يتفادى الأعداء الوقوع فيها، تصوّروا أنّ أحدهم قطع مسافة طويلة عن موقعه، ليصل إلى راعية أغنام، فيقول لها وهو يُنْزل بنطاله إلى أسفل: انظري أنا حلقت الآن! دون خجل أو خوف، ولو فعل ذلك إنسان من أهل المنطقة لقطعوا ذكره حتّى لو كان معتوهاً، ولا يتورّع الواحد منهم أن يلج البيت من الأمام دون أن ينادي أو يستأذن، ويعرّج آخر على امرأة وهي تقضي حاجتها وهي مسدلة ثوبها في الوادي ليسألها عن ماء فيقترب منها، وهي تقول له: انتظر مكانك، سآتيك حالاً وأدلّك على الماء، ولم يفطن لما تفعل، بل هو خالي الذهن تماماً، يظنّها جالسة تتنَزّه في الهواء الطلق.

أمّا إن وجدوا أثر كيّ أو تشويهاً خلقيّاً في رجل، أو وجدوا على جسده أيّ علامة اتّهموه بالتجسّس، لأنّ هذه العلامة وضعت للتعرّف عليه من قبل الأعداء،

وإن صادفوا رجلاً يلفّ تبغاً محليّاً قالوا هذا حشيش كيف، وإن قابلوا أحداً يحمل رحى أو صاجاً، لم يعرفوهما، وظنّوا أنّها تستخدم لإرشاد طائرات العدو! وضبطوا ذات مرّة مرآة مع رجل يخبّئها في حافظته، فاتّهموه بأنّه يعكس بها أشعة الشمس، ليدلّ بها الأعداء على مواقع الجيش، ومثل هذه الأمور حدّث ولا حرج.

فقال خضر: كلّ هذا هيّن مقارنة مع ما حدث مع شاهر الأطرش، فقد قطع على نفسه عهداً، وأخذ ميثاقاً من الشيخ عيد أبي جرير أن يؤذّن لكلّ صلاة، في أيّ مكان تحلّ عليه فيه، فأدركه الفجر وهو في طريقه من سيناء إلى رفح، فرفع الآذان، ومن سوء حظّه العاثر كان بالقرب منه موقع عسكريّ، نزل حديثاً بجانب الدرب ولم يعلم بنُزوله، فأسرعوا إليه وأحاطوا به من كلّ جانب، يصيحون عليه وهو لا يسمع كلامهم، إذ كان سمعه ثقيلاً جدّاً، ولا يلفظ أغلب الحروف إن تحدّث فأخذوا يركلونه ويضربونه، ويطلبون منه إخراج جهاز

اللاّسلكيّ الذي يكلّم به العدو، وهو لا يعرف ماذا يريدون، فقط يقول لهم أنا أُؤذّن وهم لا يصدّقونه، ويسألونه: أين المسجد إن كنت صادقاً، وهم يظنّون أنّ أجهزة الإرسال كلّها مثل الأجهزة التي بحوزتهم، يجب أن يصرخ المرسل فيها ويبحّ صوته كي يسمعه المستقبل في الجهة المقابلة، فكسّروا عظام شاهر الأطرش، ومكث ثلاثة أشهر في سجن العريش، إلى أن كتب الشيوخ عريضة وسلّموها للمتصرّف، وأفرج عن شاهر على أن لا يعود ويؤذّن في الخلاء، أو يتجوّل قرب المواقع العسكريّة. وقال أحد الحضور: أما سمعتم بما حدث لأبناء سعد، فقد أخبر أحد الجنود شابّاً منهم أنّه يريد بيع بندقيّة، وأعلمه أنّ هذه البندقيّة له خاصّة ولا علاقة للجيش بها، وطلب من الشاب ثمناً زهيداً ومغرياً لها، فوافق على شرائها، وقبض الجنديّ ثمنها وسلّمها للشاب، ودفنها هذا تحت شجرة بعد أن لفّها بعدّة خرق سوداء، وبعد ساعات قامت القيامة على العشيرة، طوّقتهم الكتيبة وضرب الجنود الرجال ضرب غرائب الإبل، ولم تشفع لهم جيرة أو معرفة، وأمسكوا بغانم الذي كان يرتقي جمّيزة واتّهم بأنّه يستطلع مواقع الجيش، وسجنوا كلّ بالغ، ووجّهت إليهم تهمة سرقة سلاح الكتيبة ومحاولة الاستيلاء عليها، ولم تُعرف الحقيقة إلاّ وقد شربت كلّ أرض بللها.

(٢١)

بعد أن ردّدت فرقة النشيد أمام طابور الصباح:

إسرائيل لا تغالي لا تقولي الفتح طاب

سوف تأتيك اللّيالي نورها لمع الحراب

ألقى مدير المدرسة خطبة عصماء، وأعلن أنّ الضبّاط الأحرار في مصر قد استولوا على زمام الأمور، وأنّ عصر الملكيّة الذي تسبّب في الهزائم والتخلّف قد ولّى إلى غير رجعة، وإنّ هؤلاء الضبّاط قد نازلوا اليهود في الفالوجة والخليل والنقب، وهم يعرفون كيف التعامل مع هذه الشراذم.

وتلاحقت الأحداث وحملت قطارات الرحمة دقيق الذرة الصفراء، وُزّعت على اللاّجئين هبة من محمّد نجيب، ثمّ استلم القيادة جمال عبد الناصر، وأعلن تأميم قناة السويس، وأصدر مرسوماً يقضي بانتزاع الملكية من الإقطاعيّين، وتوزيعها على فقراء الفلاّحين، وطلب إجلاء القوّات البريطانيّة عن مصر، وتحقيق الاستقلال الوطنيّ وكسر احتكار السلاح، وتعاقد على صفقة سلاح تشيكيّة وطالب القوات المسلّحة بالردّ على العدوان الإسرائيليّ على غزّة، حيث قتل عشرات الجنود المصريّين والمدنيّين، وأنشأ مصطفى حافظ كتيبة من الفدائيّين، فزار السجون وأخرج من فيها من نزلاء خصوصاً الذين اعتقلوا وهم في طريقهم لعبور الحدود أو الخروج منها ممن توسّم فيهم الجرأة والشجاعة، كما شكّل المجاهدون الأوائل اللّبنة الأولى فيها، وأرسل كلّ مجموعة إلى موطنها الأصليّ، لأنّهم يعرفون طرقه وتضاريسه، وأثارت هذه المجموعات الرعب في قطاعات المستوطنين، لقتلها بعض الأفراد وجلبها لآذان ضحاياهم كي يثبتوا للمسؤولين إنجازهم للمهمّة بنجاح، وتمكّنت الموساد من اغتيال مصطفى حافظ برسالة ملغومة بعثوا بها مع عميل مزدوج، وطلبوا منه إيصالها إلى قائم مقام قطاع غزّة فأخبر حامل الرسالة مصطفى حافظ بها، فظنّ بالقائم مقام ظنّ السوء، وشكّ في أنّ له علاقة باليهود، ولولا ذلك لما بعثوا له برسالة، فتح الرسالة ليقرأ ما بها فانفجرت بين يديه فقتلته، وسملت عينيّ محضرها، وبذلك خسر الفدائيّون قائداً مبدعاً.

(٢٢)

بدأت العطلة الصيفيّة، لملم عجلان أغراضه، وتوّجه إلى سوق رفح، ليعود إلى بيت أهله في سيناء، وقبل أن يصل إلى حاووز الماء نادته امرأة كي يذبح لها ديكاً، فناولته الديك والسكّين السنينة، ودخلت بيتها لتسخّن الماء، وتسلق الديك لتمعط ريشه، فأخذ السكّين بيد، ووضع الديك على الأرض، ووطئ على رجليه، وأمسك رأسه بيده الأخرى، حاول أن يشدّ جلدة الرقبه ليتمكّن من قصّها بسرعة، وضغط على جناحيه بمرفقه، وأخذ يحزّ رقبته بالسكّين، انفلتت إحدى الرجلين، لتغرز مخالبها في اليد القابضة على السكّين، وتمكّن عجلان من حزّ الرقبة عدّة مرّات، ورمى بالديك بعيداً كي لا يرشقه الدم ويلوّث ثيابه، وهو على نيّة السفر، فانطلق الديك يجري، فظنّ عجلان ذلك من حدّة السكّين، وإذ به يكبس دجاجة، وينفض ريشه، ويقفز على الحائط ويصيح، طرح عجلان السكّين على الأرض، وأدرك أنّ العمليّة لم تسفر إلاّ عن جرح في كفّه، ضغط عليه بالوسطى، وانصرف على عجل قبل أن تخرج المرأة.

قابلته زوجة أبيه بالزعيق، ومنعت إخوته من السلام عليه أو التحدّث معه وحين سألها عن أبيه عقدت كشرتها، وأنكرت معرفتها بمكانه، فسار عجلان إلى الزاوية لعلّه يجد أباه هناك، وجده يستمع إلى درس دينيّ، يلقيه شيخ الزاوية، وطلب منه القعود بإشارة من يده، وعاد به إلى البيت بعد انتهاء الدرس.

لم يعجبه المقام عند أهله، فسار في سيناء على رسله متّجهاً إلى الجنوب، يحلّ ضيفاً على من وجد في طريقه من سكّان، فهو لا يحمل زاداً ولا ماء، وحين أدرك الجبل بعد ثلاثة أيّام من سيره، أبصر رجلاً يقعد على مقربة من الدرب، فعاج عليه ليشرب، وينال قسطاً من الراحة، ويسأله عن الدرب وأسماء المناطق لأنّه لم يعرفها، فقال: يبدو أنّك تمشي على غير هدى، هذه طارة العَمْرو. وخرج أبناء صغار للرجل من مغارة بملابس رثّة متّسخة، فسأله عجلان: أين تردون ؟ قال: حتّى الآن نرد خبرا ليست بعيدة، من قام عند طلوع الشمس يصلها ظهراً، أمّا موردنا الأساسي فهو مكسّر الفناجين، يحتاج من

ورد إلى تصدير إلى يوم كامل. فسأله عجلان: لماذا تسكنون هذه البلاد المظمأة الوعرة ؟ فقال: يا ولدي كلّ بلاد عند أهلها شام. عرض على عجلان المبيت عنده وتهيئة عشاء له، ولكنّه أبى وواصل سيره، أدركه الظلام، فأبصر سنا نار في سفح جبل، اقترب منها ونادى: يا أهل البيت. نبح كلب، فسمع صوت أنثى يزجر الكلب، ويناديه: اقترب، تفضّل. دنا عجلان من صيرة حجارة وقال: السلام عليكم، دستور. فأجابته المرأة عينها: وعليك السلام ورحمة الله، ادخل. ألقت له بكيس قرب النار فجلس عليه وسأل: أين راعي البيت ؟ قالت: وسيحضر بعد قليل، خذ راحتك، لا تتحشّر. أحضرت له خبزاً ولبناً وماء، كما أتت له بإبريق الشاي، لقّمته ووضعته قرب النار، وقالت: تعشَّ واشرب الشاي وإن نعست نم، ومتى حضر زوجي أيقظك، إنّه ذهب إلى جيراننا في الوادي. قال: صفي لي مكانهم لأذهب إليهم. قالت: الأرض وعرة، وما أراه إلاّ في الطريق إلينا تريّث قليلاً، لم يعتد أن يتأخّر هكذا، تصبح على خير.

أخذت ابنها وتوارت في خصٍّ بعيد، ونام عجلان ولم يستيقظ إلاّ والشمس قد أوشكت على البزوغ، وإذ بالمرأة تحضر له كأس حليب وخبزاً طازجاً وبيضاً مقليّاً، فسألها: ألم يحضر الرجل ؟ فقالت: والله أنا عرفت منذ البارحة أنّك غريب وخجول، لذا قلت لك إنّ زوجي سيحضر عمّا قريب، لتطمئنّ وتمكث اللّيلة، أنت تدري لو لم أستقبلك، ولو حدث لك مكروه لا سمح الله، لن يتزوّج بناتي أحد، سيقولون: لو أنّها بنت رجال ما طردت الضيف، ثمّ إنّي أحافظ على سمعة قبيلتي وأصون عرضي، وقد جعلتك تنتظر وأنا متأكّدة من عدم حضور زوجي، لأنّك لو مضيت البارحة ربّما وقعت على موكرة الضبع، أمّا الآن فامضِ على رشدك، ها هي الدرب مع كتف ذلك الجبل، ستقودك هذه الدرب إلى سدرة وسط روض واسع منبسط، ومن هناك يمكنك مشاهدة بيوت بلي ومزينة، إن كانت لك مصلحة قضيتها وإن أردت العمل عملت، سهّل الله عليك وأطلق دربك مع السلامة. فردّ عجلان: سلّمك الله، وخلف الله عليك، وسترك دنيا وآخرة.

تمنّى عجلان لو أنّه يملك نقوداً أو طعاماً لترك لها شيئاً، ومضى لطيّته وهو معجب بهذه المرأة الكريمة العفيفة الواثقة من نفسها، والتي تتحلّى بمكارم الأخلاق،

وحسب وصفها وجد غلاماً يسوق أعنُزاً، سأله عن الديوان، فدلّه عليه وبعد أن أمضى ليلة قال لصاحب الديوان: إنّي أبحث عن أيّ عمل، في الرعي أو غيره. فقال: يا ولدي، الرعي صعب، ولكن لا بدّ أنّك محتاج للعمل، وإلاّ لما قطعت هذه المسافات الشاسعة، وتجشّمت هذا العناء، دونك هذه الذود أطلقها مع الرعاة، وعد بها عند المساء، وخذ معك الزاد والماء، وبعد الحول لك عليها قعود، وبالإضافة إلى أكلك وكسائك لك عشرة جنيهات، أيكفيك أم تراه قليلاً ؟ قال: تكفيني المقابلة الطيّبة والأكل والشرب، ولا أريد غير ذلك. قال: لا، يجب أن تتقاضى أجراً نظير تعبك، أنت متغرّب عن أهلك، وتبذل مجهوداً، الأجر من حقّك، وإذا أودع أحد إبله معك، فلك أجرتها أيضاً.

كان عجلان يفكر في غضون ذلك بالعناء الذي يلاقيه عند أهله، وهيّئ له أنّ أيّ أناس هم أفضل معاملة له من أهله، وتعرّف أثناء عمله على راعٍ، ونشأت بينهما محبّة وألفة، وكانت لهذا الراعي ابنة عمّ جميلة، وهو يبحث عن الزواج، فسأله عجلان: لماذا لا تتزوج ابنة عمّك إنّها جميلة ومهذّبة. فقال: والله إنّي أحبّها حبّاً لا يضاهى، لكنّ أباها توفي وليس لها إخوة وليس لنا أقارب دانين، فلو تزوّجتها وحردت عند من تريد أن تلتجئ ؟ فأنا عزمت أن أكون لها سنداً وملاذاً. قال عجلان: مادمت تحرص عليها إلى هذا الحدّ فلا تزعلها إن تزوّجتها. فقال: هذا الأمر ليس بيدي، قد تزعل أو قد ينشب بيننا خلاف، وأنا وليّ أمرها الوحيد، ولن أفكّر في الزواج منها أبداً، فأنا لها بمثابة الأب والأخ والوليّ.

فزاد إعجاب عجلان بهذا الشاب، وظنّ أنّه لا يستطيع العيش بعيداً عنه، وقد أخبر عجلان ذات مرّة أنّه قد زعل من والده قبل سنين، ورحل إلى منطقة القنطرة، وهناك عمل راعياً عند شيخ فترة زمنيّة، ثمّ ترك العمل، وذهب إلى مكان آخر، وعمل في النخيل، يجبل العجوة ويضعها في أكياس من الخوص، وعند انتهاء الموسم غادر المنطقة ومرّ في طريقه على مساكن مخدومه السابق، وطرأت على ذهنه فكرة أن يسرق سيفاً عهده به معلّقاً في خصّ بعيد عن مسكن العائلة، وحين اقترب من الخصّ قابله الكلب يبصبص بذنبه، وكأنه فرح لرؤيته من جديد بعد فراق طويل، فقال: خزاك الله يا إبليس، هذا الكلب أكثر وفاء منّي ما زال يذكرني ويحفظ الودّ، وأنا أريد أن أسرق هؤلاء الناس وبيني وبينهم

خبز وملح، فعاد أدراجه.

تشاجر عجلان في يوم قائظ مع أحد السقاة، فعيّره بأنّه راعٍ غريب، فعزّ عليه ذلك، وقرّر العودة إلى بلاده وقال: نار أهلي ولا جنّة الأغراب. بعد العشاء قال لمعلّمه: والله يا معلّمي البلاد طلبت أهلها. سأله: ما الذي حدث لك ؟ هل ضيّق عليك أحد ؟ لقد اعتدنا عليك، ويعتبرك الأولاد شقيقاً لهم. فقال: أبداً لم يحدث إلاّ كلّ خير، ولكنّي أريد أن أزور أهلي. سأل: كم شهراً مكثت عندنا ؟ أجاب: لا يهمّ سأعود لأكمل سنتي. فقال: أخاف أن تحدث لديك موانع فلا ترجع على كلّ حال المقابلة نصيب، يجب أن تأخذ حسابك كاملاً. قال عجلان: لن آخذ شيئاً أريده موفّراً لي إلى حين عودتي. فقال الرجل: طيّب خذ هذه النقود، واشترِ لك ملابس جديدة، ولأهلك هديّة، وخذ هذا اللّبن المجفّف، فهو قليل في بلادكم، وأهلاً وسهلاً بك متى رجعت، لا أستطيع أن أخبر الأولاد برحيلك، بل سأقول لهم إنّك لن تغيب أكثر من أسبوع، يا ولدي إن رأيت منّا تقصيراً أو عيباً فاستره.

(٢٣)

تمكّن عيد أبو جرير من جمع شعث القبائل المتناثرة المتباغضة، فأنشأ الزوايا في كلّ مكان، وهي على غرار الزوايا الصوفيّة في المغرب العربيّ، وعيّن لكلّ زاوية إماماً يطلق عليه اسم زمام، وتوسّعت هذه الزوايا على حساب الدواوين، حيث تقام فيها الصلاة، ويبات فيها الضيوف ؛ إذ لا يحقّ لأحد أن يأخذ ضيفه إلى بيته إلاّ إن كان نسيبه أخا زوجته أو أباها، حينها فقط يمكنه اصطحابه إلى البيت للسلام عليها، وتبنى هذه الزوايا من الزنك أو الخشب أو الأحجار المصنوعة من الطين أو الإسمنت، وتعرّش بالأخشاب والطين أو الجريد والزنك، وعلى السكّان المجاورين أن يتبرعوا للزاوية بكلّ ما يلزم من ماء وحطب ودقيق وسكّر وشاي وقهوة، وغدت هذه الزوايا تحكم السكّان المجاورين لها فهي بمثابة مركز البوليس أو المحاكم الشرعيّة والجنائيّة، وحذر أبو جرير وأتباعه على النساء ارتياد الأسواق، وأصبح جميع الناس يقيمون الصلاة، الرجال والغلمان يصلّون في الزاوية، وتعقد

حلقات الذكر ليلة الاثنين والخميس من كلّ أسبوع فيذكرون قياماً وحين يتعبون يقعدون، ويردّدون:

يا لطيف الطف بنا من نار جهنّم نجّنا
باب الجنّة للإسلام وباب النار للكفّار
الله دايم باقي حيّ ما في الدنيا يبقى شي

ويقرؤون سورة الواقعة والكهف ويس قراءة جماعيّة، ويحفظ كثير منهم القرآن عن ظهر قلب، كما هو شأن الشيخ عيد والمقرّبين منه.

وقد حلم الشيخ عيد ذات ليلة حلماً، وقرّر الذهاب إلى القاهرة لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر، ورفض أن يقول شيئاً إلاّ للرئيس نفسه، وحين استقبله الرئيس أخبره بأنّه حلم أنّ أحد الطهاة في القصر أسمر اللّون قد أعدّ سمّاً وسيضعه للرئيس في القهوة، عندها أمر الرئيس بتفتيش مطبخ القصر، فعثر على السمّ، وأطلق الرئيس يد الشيخ في سيناء وعدّه من المخلصين، وأعطاه سيّارة وبنى له مسجداً في العريش، وتقصّى أخباره فعلم أنّه لم يكن له علاقة بالإخوان المسلمين، وأنّه شيخ طريقة قضى شطراً من حياته في الجامع الحسينيّ وتربطه بشيوخ الأزهر علاقة تلمذة، وبذل الشيخ عيد جهوداً مضنية في ليؤلّف بين الناس، وقام بإطعام الجيوش وإرجاعهم إلى مصر بواسطة أدلاّء من أتباعه إبّان الحروب، وكان يقدّم لهم الطعام والشراب، ويوفّر أماكن الاختباء، وللشيخ عيد كرامات جليّة فقد يأتيه إنسان فيقول له الشيخ عيد: أنت أتيت من أجل الخلفة، خذ اشرب هذا الماء. فيناوله كأس ماء بعد أن ينفخ فيها، ويضيف: ستلد مولوداً إن شاء الله، وليكن اسمه ابراهيم. ويقول لآخر: أنت فقدت شيئاً، وتتّهم أناساً بأخذ هذا الشيء إنّهم أبرياء منه، ابحث عنه جيّداً، وستجده بعون الله. وقد غالى الأزمّة في تطبيق الأحكام، وكانت اجتهاداتهم تختلف عن اجتهاد الشيخ، ممّا جعل الحكومة تتدخّل للحدّ من سلطاتهم حين تكرّرت الشكاوى، فتمرّد الكثيرون على نظام الزوايا وقد انفصل عن الشيخ عيد أحد أتباعه وهو أبو أحمد الفالوجي، الذي حاول أن يستأثر بامتيازات أوسع، ورحل إلى قطاع غزّة، وأنشأ الزوايا هناك، ولكنّ حركته سرعان ما خبت وتشتّت أتباعه.

قدم شاهين وشاهر الأطرش وعودة إلى عامر في رفح، وباتوا عنده ليلة محاولين إقناعه للذهاب إلى الشيخ عيد أبي جرير لأخذ البيعة، فقال شاهين: اسمع منّي يا عامر، أنا أريد للرجل الطيّب أمثالك الفائدة، وأتحسّر إن لم أجده في المقدّمة، هيّا معنا إلى زاوية الشيخ عيد، وبايعه على الالتزام بالصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صدّقني إنّه رجل صالح، ويجب أن تزوره وتقطع عهداً على نفسك بتنفيذ ما يكلّفك به من أوراد، تصوّر أنّني طلبت منه أن يدعو لي الله كي أحفظ القرآن، والحمد لله فإنّي أحفظه الآن عن ظهر قلب. فقال عامر: يا رجل العبادة لا تحتاج أن تبايع شيخاً، أو رجلاً صالحاً، العبادة هي علاقة بين العبد وربّه، لا تحتاج إلى وساطة أحد، الملايين الذين عبدوا الله قبل أن يظهر أبو جرير، أو بعد أن يموت، والذين هم في مناطق نائية لم يسمعوا به، أيعقل أنّ كلّ هؤلاء عباداتهم ناقصة ؟! اتّقوا الله يا ناس. فعلّق عودة: أأنت أكثر فهماً من الآلاف الذين بايعوا الشيخ ؟ فأجاب: ألم تسمعوا بقصّة القرويّ الذي دخل الجنّة وهو عاصٍ ؟ اعترض شاهين: الجنّة لا يعلم من سيدخلها إلاّ الله سبحانه وتعالى. فقال عامر: هذا صحيح، لكن اسمع هذه الحكاية: مات رجل في إحدى القرى، فذهبت زوجته إلى شيخ المسجد، طالبة مساعدتها في غسل زوجها وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، فقال لها الشيخ: إنّنا لم نشاهد زوجك يركع في حياته ركعة واحدة في المسجد، فكيف تريدين منّا أن نصلّي عليه، هذا لا يصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين. ولم يفلح رجاء المرأة في تغيير رأي الشيخ، فعادت إلى بيتها مهيضة الجناح كسيرة الخاطر، فمرّ بها بدويّ، فنادته وطلبت منه مساعدتها في دفن الميّت، فسألها: لماذا لم يساعدك أهل قريتك ؟ فأخبرته ودمعها يسيل على خدّها بما قال شيخهم، دخل على المتوفّى فغسله، وحفر له قبراً والمرأة تساعده، ولفّه بكفن أبيض ودلاّه في الحفرة ثمّ قعد عند رأسه ملقّناً: أيّها المتوفّى أنت ذاهب إلى ربٍّ كريم رحيم. هال عليه التراب، وانصرف لشأنه، وفي اللّيل حلم شيخ القرية أنّ رجلاً توفّي من القرية ودخل الجنّة، فذهب إلى زوجة المتوفّى وسألها: هل كان زوجك يعمل صالحاً ويتعبّد في السرّ ؟ فقالت: لا. وأخبرته بما كان من شأن البدويّ، فضرب الشيخ جبهته بيده وقال: صدقت يا رسول الله: ربّ أشعث أغبر مدفوع على الأبواب لو أقسم على الله لأبرّ قسمه. ولعلّ الله

تعالى قال: أنا عند حسن ظنّك بي، ولن أخيّب ظنّك أيّها الأعرابيّ. قال شاهين: هذا لا يمنع أن تأخذ البيعة، أما سمعت أنّ العبادة لا تصح إلاّ بمبايعة إمام؟ فقام عامر يسعل.

قدم على الديوان سلامة سليم فسأله بدر عمّا حدث للمطويّ، فقال: بات المطويّ في أرض بور إلى جانب الطريق في منطقة المورد، وكانت أعداد من الحمير تجول همالاً حوله، ونبشت جحشة كيس شعير المطويّ، طردها عدّة مرّات، ولكنّها ما تلبث أن تعود إلى الكيس، فربطها بحبل إلى حطبة، أتى صاحبها في الصباح واتّهمه بالاعتداء على البهيمة، بدلاً من أن يدفع له ثمن ما أكلت من الشعير، وأخذه إلى الديوان، وفرض عليه الشيخ أن يحضر للجحشة برذعة جديدة ورسناً وشبكة وجرّتين، ويقودها من مربطها إلى بيت صاحبها. فضحك الحضور وعلّق عادل: يستأهل أكثر من ذلك، ضاقت عليه الدنيا ليبات هنا وبينه وبين السوق مقرط عصا، وقال صادق: ما طقّ إلاّ من حقّ، لعلّه اقترف العاطلة، ربّما أعداه الجنود فهم في هذه المنطقة قد ذعّروا الحمير إناثاً وذكوراً، وغدت حبرة، تجفل من اللّبّاس الكاكيّ، ترفس وتعنفص ولا تقف لغريب. فقال عامر: أنت يا بدر لا تأتي إلاّ بالقصص الفارغة، وعلى كلّ حالٍ لو أخذوه للزاوية لرجموه.

ركب زيدان جمله وتوجه إلى سوق الخميس ليبيعه، فقد قرّر بعد مشاورات مع عائلته ذلك قبل أن يهزل، فقد أثّر عليه المحل وقلّة العليق، وصل السوق فشاهد رجالاً يعرضون حيراناً صغيرة، وهناك وقف رجل بناقة عجفاء، وآخر معه جمل أدبر، فقال في نفسه: جملي أفضل المعروض. فرأى التجّار يحومون ويتهامسون، والدلاّل يتجوّل ويعاين البعير، فقال زيدان: الله يسوق لي ابن الحلال كي يقنى هذا الجمل، فلولا العازة ما أوقفته هذا الموقف. صفع الدلاّل الجمل على وركه بكفّه، رفع الجمل رجله وخبطها على الأرض، مبعداً إيّاها عن مكانها الأوّل، فسقط قراد وظلّ منكمشاً، وكأنّ الحياة قد فارقته، شدّ الدلاّل الجمل حين أشاح برأسه، وقال: كم تريد في جملك؟ قال زيدان: سُمْه أنت. قال: هات يدك. ناوله يده النحيلة السمراء، فأحكم الدلاّل قبضته عليها، فتجمهر الناس حوله، قال: خمسة وأربعون. قال زيدان: يبعث الله. فقال: ستّة وأربعون. ردّ زيدان: الله يبعث، ما زلت بعيداً عن ثمنه. فقال الدلاّل: لا تكن طمّاعاً، لم يُسم أيّ بعير هذا اليوم، أعطيناك

سبعة وأربعين. فقال : كلّ يأخذ نصيبه. ظلّ الدلاّل البربخيّ السمين يرفع سعر الجمل إلى أن بلغ خمسين جنيهاً، وحين رفض زيدان البيع، أمسك الدلاّل بإبهامه، وحاول أن يفسخه عن كفّه بيده اليسرى، وهو ما زال يحكم قبضته على يد زيدان، وصرخ في وجهه وهو يلوي الإصبع: بع بع قل الله يبارك لك. ولم يترك الضغط واللّوي إلاّ بعد أن سمع كلمة مبروك التي طلعت من فم زيدان قبل أن تطلع روحه بلحظات، قعد زيدان على الأرض، وأحضر الدلاّل النقود من الرجل الذي اشترى البعير، وعدّ على زيدان المبلغ، واقتطع جنيهاً له وأعطى محصّل الضرائب جنيهاً أيضاً، ووضع زيدان الباقي في صفنه، وخرج من السوق، وتصادف خروجه مع خروج جمله يقوده شابّ سمين وقابله عادل قائلاً: بعت الجمل ؟ قال: أي، نعم. فعلّق: يا له من جمل جيّد، ألم تجد من يشتريه غير هذا الجزّار ؟! سأل زيدان: أهذا الذي اشتراه لحّام ؟ قال: أما تعرفه ؟ قال: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

انطلق زيدان يركض خلف الشابّ الذي يقود الجمل، فأدركه قبل أن يلج الحوش الذي يضع فيه الجزّار الإبل التي يشتريها، كانت دموع زيدان تخضّل لحيته، مسح وجهه بطرف عمامته، بلع ريقه ليسلّك صوته أو يستحضره بعدما اختفى، وخاطب الجزّار بصوت متهدّل: والله لا أقبل أن تذبح هذا الجمل الصافي زريقان، هذا الذي ينقلك إلى البلاد البعيدة لا يكلّ ولا يملّ، هذا ليس بعير لحم. فزعق الجزّار بصوت رفيع لا يتناسب مع ضخامته: أطلق رسن الجمل، أنت بعته وقبضت ثمنه، وأنا حرّ في ملكي أذبحه أفتتيه أبيعه، لا شأن لك في ذلك !. فصرخ زيدان: ندمت على بيعه، خذ نقودك، اعتبر البيع باطلاً. أخرج ما بصفنه من جنيهات، وتدخّل الناس وأقنعوا الجزّار بإرجاع الجمل إلى صاحبه واستعادة نقوده، فقال الجزّار: نزولاً عند رأيكم أعيد له الجمل على أن يربحني عشرة جنيهات فوق الذي دفعت، وأنتم تعرفون هذا بيع وشراء في السوق ليس لعباً والقرش صيّاد فلولاه باعني جمله ربّما اشتريت جملاً أرخص منه. وظلّ الجدل محتدماً بين الطرفين، وتوسّط الوسطاء وبالكاد استطاعوا إقناع الجزار بأخذ خمسة وخمسين جنيهاً، فاستدان زيدان خمسة جنيهات من عادل وكان معه جنيهان بدل اللذين دفعهما باجاً وللدلاّل.

خرج زيدان من السوق يرافقه عادل، يقود جمله ينظر إليه بين الفينة والأخرى،

ويقول: والله أوشكنا أن نضيع جملنا في ضحكة ولعبة، كلّ مصاري الدنيا ما تساوي وقفته أمام البيت وهو يجترّ. تبسّم عادل وعلّق: سوِّ لك لقمة لوجه الله الذي أعاد إليك بعيرك، أمّا الخمسون جنيهاً فتأكلها في خمسة أشهر، والجمل تحرث عليه وتدرس ولو شلت عليه رملاً لطلّعت عليه مصروف بيتك وعليقه، الإبل ما لها ثمن يا شيخ، حتّى إنّ الله سبحانه وتعالى طالبنا بالتأمّل في خلقها وقدّمها على السماء والجبال، كما قال الشيخ زكريّا في خطبة الجمعة الفائتة ووالدي رحمه الله بكى عندما رأى أناساً يحملون بعيراً في سيّارة، وقال: هذا الجمل الذي يحمل الظعن والماء والمتاع إلى البلاد البعيدة يُحمل هكذا في سيّارة. ما كان يتوقّع أن يرى ما هو أكبر وأقوى من الجمل. قال زيدان: صدقت والله لو بعته ما نمتُ. ملّس على رقبته، ونزع عوداً علق بوبره.

سرى صادق باكراً يركب ناقته إلى منطقة الشوكة ليحرث قطعة أرض اعتاد حراثتها كلّ سنة ليزرعها بالبطيّخ شراكة مع صاحبها، وحين وصل سكّة القطار التي تعلو الأرض بحيث لا يستطيع أن يصعد إليها وهو راكب ناقته، نزل عنها وقادها بمشقّة ليجعلها تعتلي قضبان السكّة، كانت تهبّ ساعتئذٍ ريح من الغرب، والسكّة ملتوية تحيط بها الكثبان الرملية من الجانبين، وقبل أن يتمكّن صادق من إجبار الناقة على نزول المنحدر ليتجاوز خطّ السكّة، وهو الآن معلق مع ناقته على أرض بعرض متر واحد إلى جانب القضيب الحديديّ، والسكّة هنا مرتفعة عن مستوى الأرض خصّيصاً كي لا تطمرها الرمال، سمع صادق صفّارة القطار الذي غدا على بعد أمتار عنه قادماً من الشرق، نزل صادق عن القضيب على الأرض المائلة، وعمل جاهداً على جذب رسن الناقة كي تهبط المنحدر لتنْزل عن القضيب، ولكنّها لم تستجب له بل جفلت راجعة بمؤخرتها إلى الوراء، فحطمها القطار وهرس عظامها، وانبعث غبار كثيف، وبقي صادق يمسك بالرسن بيديه، فتح عينيه بعد أن أغمضهما لحظة مرور القطار، كان الشحم يَدْنِسُ على الفلنكات وتكوّمت الناقة على طرف القضيب وخرج من بطنها حوار صغير اضطجع جوارها، مرّ على صادق رجل من المارّة وقال: عوضك من جملك قيده زغ من هنا كي لا يراك أحد ويشي بك. المأساة ماثلة على وجه صادق فغدا أسمر عابساً، وغار ريقه ويبس لسانه، لم يصدّق أنّ ناقته ضاعت في

طرفة عين، تجمّع حوله متفرّجون جدد، واقترح عليه أحدهم أن يذهب إلى مركز الشرطة في رفح، ويبلّغ عن الحادث ويطلب تعويضاً من الحكومة عن ناقته، لأنّه إن لم يبلّغ لن يحصل على شيء، وقد تترتّب عليه مسؤوليّة، راقت له هذه الفكرة وطوى الرسن ووضعه في عبّه، وسار إلى المركز، وأدلى بإفادته، وكتب الشرطيّ محضراً ، كلّفوه بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات وخمسة قروش، لأنّه عرّض حياة الناس للخطر، أفرج عنه بكفالة، وتعهّد بعدم السير مع سكّة القطار.

زاره الأقارب والجيران في بيته، واستمعوا منه إلى الرواية، وتساءل أحدهم: ألم تسمع دويّ القطار ؟ قال: لا والله كانت الريح غربيّة، وهو أتى من الشرق. سئل: ألم تره ؟ أجاب: كلاّ لأنّني قطعت السكّة من المنعطف. وكانت الغصّة تسكته فيجيب باقتضاب، سأل آخر: كيف صعدت الناقة معك إلى السكّة ولم تنْزل علماً أنّ النّزول أسهل من الصعود ؟ قال: كان الانحدار أشدّ ميلاً من الناحية الثانية، والأرض دقعة، ولو انتظر القطار قليلاً لنَزلت على مهل، ولكنّها جفلت من صفير القطار وهديره. سئل: لماذا قطعت السكّة من هذا المكان، ألم يكن من الأفضل لو أنّك باريتها وقطعتها من على المزلقان ؟ قال: أنا قلت أقطعها من هنا، إذ رأيت أثر ممشى للناس، وفضّلت أن لا أقترب من المخيّم حيث الازدحام، وكلّ شيء قسمة ونصيب.

أكثر الحضور انفعالاً كان سعيد الأطرش، حيث كان يتابع حركات الأيدي والإشارات، ويستقرئ ما يرتسم على الوجوه من انفعالات، ليعرف الحقيقة بالضبط وهو لا يسمع الكلام، وكثيراً ما يخز سليمان الجالس إلى جنبه ليستفسر منه بإشارات سريعة عمّا غمض عليه، وكان هذا يشرح له ويفصّل، ويخطّ على الأرض خطوطاً منحنية، ويحرّك يده بحركة لولبيّة، ويشير إلى بعير واقف، ووصف له مكان الحادث، فكان عندما يفهم ما استعصى عليه يطلب من سليمان الكفّ عن الشرح والإسهاب في التفاصيل، وينصرف لمتابعة حديث الناس، ويعضّ شفته السفلى، وينفض يده، ثمّ يغير على صادق ويحضنه حين اكتملت عنده الصورة، ويرفع إصبعه إلى أعلى، فيفتر وجه صادق عن ابتسامة إرضاء للأطرش، وكأنّه فهم من حركاته ورطنه أنّه يقول: الحمد لله على سلامتك، والمال معوّض.

تأثّر الحضور من حركات الأطرش ورطنه، فانسلّ من المجلس، ولم يظنّ أحد أنّه ذاهب إلى مكان الحادث ؛ ليستجلي الأمر عن كثب، وعندما وصل إلى المكان راعه مشهد الكلاب وهي تقوّر بطن الناقة، وتسحّي اللّحم من العظم، وصفر القطار مرّة أخرى، وصرخت امرأة وأشاحت بيدها محذّرة، وغاب الأطرش في عَجّة القطار.

في اليوم نفسه وردت أخبار للعشيرة من سيناء، تتحدّث بأنّ طائرة إسرائيليّة أغارت على الإبل التي يرتع بها صقير قرب حدود سيناء مع النقب، وقتلت هذه الطائرة صقيراً ومعظم الإبل، ولم يبق للعشيرة ذود ولا راع، فقال بدر: عدّ ناقتك يا صادق ضمن هذه الإبل التي قتلت.

بات صابر يفكّر بمأساة أخيه صادق، فأغفى قليلاً فجاءه في المنام شيخ بملابس بيضاء، ووجه فليح، فخيّره بين اثنتين قائلاً: تريد الهداية أم الهذاية ؟ فقال صابر: أجبته على عجل ورهق بآخر كلمة تلفّظ بها لأنّني قد نسيت الأولى، فقلت: الهذاية. فأصبح صابر شاعراً، يهذي بالشعر ويسيل على لسانه البدع، حتّى كلامه أصبح موزناً ومقفّى، فكان يقول: لو فكّرت قليلاً لقلت الهداية، وأصبحت شيخاً صالحاً، لكن هكذا أراد الله، كان يحدّث امرأته وهي تبحث في صررها عن عقلة ذئب لتعلّقها على رقبة ابنها الذي يصيح كالديك، فقال صابر: عقلة الذئب كلام فارغ، قرّبيه. فأشعل طرف عطبة وكواه بها على النحر، حتّى انضج الجلد، والطفل يصرخ ونام على ركبة أمّه، وقال صابر لزوجته: أنا أخذت بيعة من أبي جرير على أن لا أبدع في السامر، ولكنّي أصبحت أحسّ القول يريد أن يخرج من جنبي، فما العمل ؟ قالت: أبدع نفّس عن حالك هنا في البيت ولا داعي للذهاب إلى السامر، عندما تحسّ أنّ القول يضايقك أخرجه ولا تكتمه في صدرك، الزود يفزر البارود. فقال: صدقت. وأخذ يفتل المثنان ليصنع منه شبكة جرار، وهو يهذي بهدوء.

(٢٤)

اجتاحت القوّات الإسرائيليّة قطاع غزّة وسيناء، مشتركة مع بريطانيا وفرنسا في العدوان على قناة السويس، فتعاملت مع سكّان القطاع من لاجئين ومواطنين بوحشيّة فظيعة، واتّخذ الإسرائيليّون من عمليّات التسلّل التي حدثت كجلب ما ترك الناس من أغراض في بيوتهم، وما قامت به مجموعات مصطفى حافظ من أعمال، اتّخذوا من هذه وتلك ذريعة للفتك بالناس، فبعد أن أحكم اليهود قبضتهم وتمكّنوا من إنهاء جيوب المقاومة، حاصروا المخيّمات والبلدات ومنعوا تجوال الناس، ونادت مكبّرات الصوت طالبة من الرجال ما بين سن الثامنة عشرة والخمسين التوجّه إلى المدارس، وفاع جنود الاحتلال في الطرقات والأزقّة، وصفّوا الرجال والغلمان على الجدران رافعي الأيدي، وأطلقوا عليهم الرصاص من الخلف، وأمست الجثث أكواماً في شوارع رفح وخانيونس ثمّ فتّشوا البيوت فقتلوا من وجدوه من السنّ المطلوبة بحجّة أنّه لم يمتثل للأوامر العسكريّة باستثناء عبد الله الرضاوين الذي منعه أبوه من الخروج، وكان طالباً في الثانويّة يناهز عمره الثامنة عشرة، سأله أحدهم: لماذا لم تخرج إلى المدرسة والطلب يشملك ؟ فقال: لم يبلغ سنّي الثامنة عشرة بعد، وأنا طالب في المرحلة الإعداديّة وهذه بطاقتي. فجرّه الجنديّ من قبّة قميصه، لم يثنه توسل أبيه الشيخ ولا بكاء أمّه العجوز، أوقفه على عتبة البيت وصوّب بندقيّته إلى رأسه، أغمضت أمّه عينيها، وضغط على الزناد فلم تثر الرصاصة، فرفع البندقية إلى أعلى فانطلقت، ثمّ أعاد المحاولة مرّة ثانية فلم تثر أيضاً، فوضع فوّهة البندقيّة في المرّة الثالثة على صدره وضغط على الزناد فلم تخرج، فقال: ادخل إلى بيتك لن تموت هذا اليوم.

وصلت أخبار هذه المجازر إلى الشاعر القطّيّ في قلقيلية فقال:

يا ويلي بهّتوا حيلي يوم قالوا غزّة احتلّوها
ياما بين رفح والخان ياما شباب قتّلوها
المدنيّات يمشن زفّات والكلّ تنوّح ع أبوها

فشل العدوان الثلاثيّ وصمدت بور سعيد، وانسحبت إسرائيل من قطاع غزّة وسيناء بعد أن حرثت الطرق المرصوفة، وأخذت العديد من الأسرى، ودخلت القوّات الدوليّة، فعمّت المظاهرات العارمة القطاع، وصعد شابّ على سارية ليرفع علم فلسطين بدل علم القوّات الدوليّة، فأردوه قتيلاً، فاتّجه المتظاهرون إلى مراكز وكالة الغوث وأضرموا فيها النيران، وهتفوا:

فليسقط وعد بلفور ومشاريع إزنهاور

في ١٢/١١ لمّونا في اتركّاتهم شحنونا على عتليت ودّونا

وهتف آخرون:

بن غريون يا عرف الدّيك حلفت مراتك ما تغدّيك

غير حرذون المداميك والحرذون خسارة فيك

فعلّق أحدهم: هل بن غريون ينتظر امرأته كي تغدّيه، يتغدّى في أحسن مطعم.

وعندما سمع عجلان الهتاف تذكّر الحرذون الذي يصطاده الأولاد بالحجارة، وهو يرفع رأسه ويخفضه كأنّه يركع في صلاة، وكيف أنّ التلاميذ الكسالى يعصرون من دمه على أيديهم وأرجلهم ويقولون: إنّ من يفعل ذلك لا يحسّ بضرب العصا.

انطلقت الجماهير من عقالها، ورشقوا القوات الدوليّة بالحجارة، فوصلت على الفور قوّات الردع المؤلّفة من فرقة سودانيّة تمتطي الجمال البيضاء، وجلدت المتظاهرين بكرابيجها، فوقع الكثيرون وداستهم أخفاف الإبل وتفرّق الحشد.

ذهب الشاعر الفريحيّ إلى مركز البوليس بثياب رثّة، وطلب مقابلة الحاكم ليهنّئه بعودة الإدارة المصريّة، فقابله شرطيّ نيابة عن الحاكم، وأخبره أنّ الحاكم مشغول، وسيقابله مرّة أخرى، فعطس الفريحيّ فقال له الشرطيّ: يرحمك الله. فقدّر الفريحيّ أنّ الشرطيّ اعتقد أنّ منيّته قد دنت، وإلاّ لما دعا له بالرحمة، لأنّ الرحمة عنده لا تجوز إلاّ على الميّت ولم يسمع بالتشميت، فقال: هذه العادة ملازمة لي منذ الصغر، ولا تثير قلقي، إنّها ظاهرة طبيعيّة، لا أكترث بها، ولكنّي نظمت قصيدة أريد إيصالها إلى الرئيس جمال عبد الناصر. فقال الشرطيّ: هيّا أسمعني. فأنشد:

ولد يا مقبّل ع القبلة سلّم ع مصر أمّايتنا
وأكثر ما تسلّم ع جمال اللّي ع يدّه نصرتنا
اللّي أنقذنا من اليهود وأحيانا بعد ميتتنا
في بور سعيد نار الحديد قال الخواجة كلتنا
في القنال سوّى الأهوال أخباره مع الصحف جتنا
يا ريّس ودنا تبريعة وما تكفيّنا مونتنا

تردّد الفريحيّ على المركز باستمرار سائلاً: هل أتاني ردّ من الرئيس؟ فيقولون له: إلى الآن لم يأتِ شيء. وأخيراً ملّوا من كثرة تردّده وسؤاله، فقال له أحدهم ذات مرّة: نعم وصل الردّ والرئيس يشكرك على القصيدة. فسأل الفريحيّ: ألم يرسل لي شيئاً؟ فأخرج الشرطيّ من جيبه ربع جنيه، وناوله للفريحيّ قائلاً: هذا الذي بعثه لك. فأخذه الفريحيّ وانصرف، ويقول لمن يسأله عن مكافئة القصيدة: لقد أرسل لي الرئيس مبلغاً كبيراً، ولكنّه ضاع في الطريق؛ كلّ واحد يأخذ منه جزءاً إلى أن وصلني في نهاية المطاف ربع جنيه. ثمّ يتساءل: هل يعقل أن يبعث لي الرئيس بربع جنيه فقط؟ فيجيبه عودة الذي أمر ابنه عجلان أن يكتب القصيدة على ورقة للشاعر بقوله: ليس من المعقول أن يبعث الرئيس هذا المبلغ الزهيد، خوف الله أنّهم لم يرسلوا القصيدة للرئيس، ولمّا أكثرت التردّد عليهم أعطاك أحدهم ربع الجنيه ليقطع رجلك عن الذهاب للمركز، هذه ليست عطيّة رئيس، قصتك تذكّرنا بقصّة السائس. فعاجله الفريحيّ: هات ما عندك. فتابع عودة: اعتاد سائس أن يتجوّل في البلدان منادياً: سائس.. سائس. فسمعه والي مدينة، فأمر بإحضاره، وحين مَثُلَ بين يديه قال له: نريد أن تسوس لنا هذا الحصان، وتعلمنا إن كان أصيلاً أم هجيناً، فإن أصبت أثبناك، وإن أخطأت قتلناك. حاول السائس التنصّل من المهمّة، لكن الوالي أمر بحجزه وأعطاه مهلة ثلاثة أيّام، فأخذ يتأمّل الحصان، ويجرى له الفحوص والاختبارات، ثم استدعاه الوالي بعد انقضاء الأجل الذي ضربه له، وسأله: كيف وجدت الحصان؟ فأجاب بثقة وحبور: هذا الحصان ليس أصيلاً. استشاط الوالي غضباً، وطلب من السائس إبراز البرهان على صحّة رأيه تحت تهديد السلاح، فما كان من

السائس إلاّ أن أخذ الحصان وانتحى به جانباً، وصفر له وحرّضه حتّى أدلى، وقال للوالي: انظر هذا الغرمول لا يكون للحصان الأصيل، فهو عند الأصيل لا يتجاوز مرفق اليد، هذا الحصان فيه عرق من الحمير. سكت الوالي على مضض، وطلب من مسؤول الاسطبل التحقّق من أصل الحصان، وإحضار أوراقه وحججه، فتبيّن له بعد البحث والتحرّي أنّ أحد آبائه نكرة غير معروف، فصدّق كلام السائس، وأمر بحجزه داخل بوّابة القصر، على أن يزاد غداؤه رغيفاً، وهكذا نجح السائس في الاختبار الأوّل، وناداه في اليوم الثاني وطلب منه أن يسوس زوجته، فاعتذر بحجّة أنّه مختصّ في سياسة البهائم لا البشر، فأصرّ الوالي على طلبه، وأخلى القصر مع حاشيته وذهب إلى رحلة صيد، وترك للسائس حريّة التحرّك في القصر وما أن غادر الوالي بوّابة القصر حتّى ارتفع صوت الغناء والصخب، وظلّت الاحتفالات قائمة من غناء ورقص وقصف ليل نهار إلى أن رجع الوالي، فهدأ كلّ شيء وعاد وتيرته الأولى، فطلب الوالي السائس وسأله عن رأيه في المرأة، فحاول التنصل من إبداء الرأي الصريح، فهدّده بالقتل، حينها قال: إنّ زوجتك من أصل غجريّ. فبهت الوالي، وطلب منه البرهان فقال: أيّها الوالي، بمجرّد أن غادرت القصر لم يهدأ الغناء والصخب والرقص إلاّ عند عودتك، فلو كانت هذه المرأة أصيلة ومن محتد طيّب لالتزمت الهدوء والسكينة طيلة غيابك، داعية لك برحلة ميمونة وعودة بالسلامة، وتظلّ في قلق إلى أن تعود، فتبيّن لي أنّ هدوءها بحضورك مصطنع، وتعود إلى طبيعتها بخروجك. خرج الوالي قلقاً وأخذ يتحرّى عن أصل زوجته، فاكتشف أنّ أهلها قدموا من جهة مجهولة، وكانوا على قدر من الثراء، فخطبها الوالي الأب لابنه لما تتّصف به من جمال، وتبيّن للوالي صدق ظنّ السائس، فزاد له في الطعام رغيفاً واستبقاه في القصر وفي المساء طلب منه ما لم يكن في الحسبان، وهو سياسة الوالي نفسه، فاعتذر بشتّى الوسائل وحاول التهرّب لكن الوالي كان له بالمرصاد، وأشهر سيفه، فاستوى عنده الأمران، وقرّر النطق بما يستدعي الكتمان، وأيقن بمفارقة الأهل والخلاّن، وقال: أنت أيّها الوالي فرّان بن فرّان، فذهل الوالي وطلب البرهان، فقال السائس: تهدّدني بالقتل إن أخطأت، وحين يتبيّن لك سداد رأيي وصحّة ظنّي تكافئني بزيادة رغيف، وهذا جود خبّاز، أمّا الوالي فعطاؤه جزل، فلمّا

تكرّر عطاؤك الرغيف أيقنت أنّك لست سليل ولاة. حجزه الوالي وعاد إلى والدته ليستجلي الأمر، وهدّدها بالقتل إن كذبته، وأخيراً اعترفت له بأنّ زوجها لم يكن منجباً، فخافت ضياع الولاية، فراودت طاهي القصر، فعاد الوالي إلى السائس، وحذّره من البوح بأيّ سرّ قد اكتشفه، وأمره بالانصراف من هذه البلاد وعدم الرجوع إليها. همهم الفريحيّ وقال: نعم، يجب أن تكون عطيّة الزعيم جزلة.

عاش الناس في فقر مدقع سنة الحرب، وشوّهت الألغام والقنابل الكثيرين ممّن يبحثون عن النحاس والرصاص، ليبيعوه في الأسواق ويقتاتوا بثمنه، وراجت تجارة العظام، وقيل إنّهم يستخدمونها في تنقية السكّر، فوجد أحد الجائعين عظام جدث على أحد الكثبان الغربيّة سفحتها الريح، فحملها إلى سوق العظام، وزنها صاحب الدكّان فارتاب من ثقلها، ثمّ كبّها من الكيس، فرأى جمجمة قد حشتها الرمال، فقال لحاملها باستغراب واستهجان: حرام عليك، هذه عظام إنسان، خذها عنّي. فعبّأها في الكيس وحملها على ظهره، وانتحى في زاوية مخفيّة ودقّ الجمجمة بحجر، وتلكّ أسنانَها فخفيت معالمها، وأخذها إلى تاجر آخر فلم يفطن إليها، وأنقد حاملها تسعة قروش، فكان يقول: بعت رجلاً بتسعة قروش، ما أبشع الفقر وأرخص الإنسان. ورغم هذه الضائقة كانت نجمة أمّ زاهد الأعرج تقول: أنتم لم تروا فقراً ولا جوعاً، مرّت علينا سنون أيّام الأتراك كنّا نبحث عن الشعير في بعر الجمال وروث البقر، فنغسله وننشّفه في الشمس، ثمّ نطحنه على الرحى ونقتات به.

غدت الفرصة سانحة لزاهد الأعرج، ليجمع المزيد من أحذية الجيش الجلديّة الطويلة، إذ يلفّها بالمشمّع كي لا يفسدها الثرى، ويخزنها تحت شجرة الأثل بعيداً عن بيته، فهو يخاف من تبعاتها، يخلع نعل الواحدة، ويحوك له منها حذاء، يمسك رجله الملفوفة، ويجبر عظم ساقه الرفيعة التي يشفق عليها من رآها عارية من حمل هذا الجسد المتهدّل، فهي رفيعة كقصبة الغليون، أمّا الملابس العسكريّة فيصبغها، ويقطع أزرّتها النحاسيّة، ويرقّعها بألوان شتّى مع أنّها لم تمزّق، ولكنّها وسيلة للتمويه، فهو يخاف من الدول خوفاً شديداً، رغم أنّه أعرج القدمين، ومن رآه يمشي برجلين ملوّيتين إلى الداخل لا يستطيع أن يرفع نظره عن قدميه، ويتعجّب كيف لا ترتطمان ببعضهما وتتعثّران، والجنود الذين يمرّ

بهم لا يلتفتون إليه بل يرحمونه وهم يرونه يقزل، إنّه مثار للشفقة، كان والده أشجع منه بما لا يقاس، كان صحيح الجسم يرتدي سترة عسكريّة بأزرّتها ولونها، يركب جمله ويذهب إلى المسابخ ويحضر حمل ملح، ويدور به على القرى في فلسطين، مع أنّ الإنجليز حذروا تجارة الملح، ويحكمون على من يمارسها بالسجن والغرامة والمصادرة، وسأله شرطيّ بريطانيّ مرّة: ماذا تحمل على جملك أيّها البدويّ ؟ فأجاب بلا تردّد: أحمل ملحاً. فضحك الشرطيّ، ظنّاً منه أنّه يمازحه، وتركه يمرّ معتبراً ما قاله نكتة، وكان موسى صحيح الجسم معافى.

أمّا نجمة فقد ظلّت لسنين تبحث عن بنت حلال،لم تدع بكراً ولا ثيّباً إلاّ وطلبتها لزاهد الأعرج، وعندما يُردّ طلبها ولا توافق المخطوبة على قبوله، تعود العجوز تدبّ على عصاها، وتحدّث بصوت ثخين: هذه لا تصلح حليلة لولدي زاهد، هذه بايرة، لو فيها خير ما نفاها الطير، فمها واسع من الأذن للأذن أجارنا الله من المرأة الزعّاقة والحمارة النهّاقة، يا لطيف لسانها يلقّ آذانها. ثمّ تعرّج على العرّافة، فتجد عندها امرأة تشكو من عدم حبّ زوجها لها، فتعزّم العرّافة على عقد تعقدها في خرقة، وتقول وفي يدها قرن فلفل وفصّ ثوم: يا ثومة ديري علومه، يا فلفل خلّه يرفل. وتلتفت إلى نجمة وتقول: ألم تجدي عروساً مناسبة لزاهد ؟ فتجيب: كلاّ. فتقول العرّافة: علّقي عليه خرزة القَبْلَة، تجدينها عند محرزة، والله زاهد على سلامته نشميّ، تزوّج الأسبوع الفائت عبّاس وهو يزحف زحفاً، أخذ ابنة عمّه حُسْن، وقال أبوها: الحرّة تحمل ابن عمّها لحماً في قفّة، وبلاء يهون عن بلاء، الكساح ولا العمى وقال البدّاع في عرسها:

هذا ولد عمّك يا حسن لا تخافي يا ما أسعد اللّي يجيه الرزق زحّافِ

وتذكر العرّافة زاهداً يسعى في خدمة الناس، يحمل همومهم، وينسى همومه، يسير سحابة يومه، ويترك آثاراً على الأرض تشبه آثار مشاوي الرؤوس.

انصرف الناس أصحاب المواشي يرعون أغنامهم في المنطقة الحدوديّة التي كانت محظورة الدخول، وترى البعض يفكّ الأسلاك الشائكة من حول حقول الألغام، ثمّ يأخذها ليبيعها على أصحاب الحواكير والمزارع، ليسيّجوا بها مزروعاتهم، فانطلق جمل

كان يحمل لفّات من الجنْزير، ودخل حقل الألغام، فتبعه صاحبه محاولاً اللّحاق به قبل أن يتوغّل في الحقل، وهو سادر في تيهه، بل أسرع حين أوشك صاحبه أن ينوش ذيله فلمع ضوء ساطع وطار الجمل وتناثرت لفّات الأسلاك، ودوّى الانفجار وغطّى الغبار المكان، ولم يجرؤ أحد على الدخول إلى حقل الألغام، إلى أن قدم رجل كان يفكّ صواعق الألغام من حقل مجاور ليبيعها إلى صيّادي الأسماك لاستخدامها ضروباً لصيد رفوف السمك، كانت معظم أصابعه مقطّعة، وفي وجهه آثار حروق وندوب، فقال للمجتمعين: ليدخل معي أحدكم لنجمع لحم الرجل. فتطوّع أحدهم ودخل معه، فكان يحذّره: انتبه هناك الغام لطّاشة، احذر أسلاك الإعثار، وقفا عند معظم جثّة الرجل عبّأاه في كيس، وأخذا يجمعان ما يظنّان أنّه من لحم الرجل، وكثيراً ما يمسك أحدهم قطعة نضجة سوداء، يقلّبها منعماً فيها النظر، ثمّ يريها صاحبه، فيهزّ رأسه ثمّ يضعها في الكيس أو يلقي بها بعيداً.

وصلت أمّ الرجل القتيل، قعدت قرب كيس اللّحم، فسقط قناعها، تخبط التراب بيديها، ثمّ سحبها من ذراعيها رجلان وأبعداها عن الكيس، فتمثّلت:

يا طيور عنقا يا أمّهات المناقير أوصيكن لحم فهيد لا تاكلنّه

ياما رمى لكنْ من الخيل خضرا وخلّى اللّحم في جحوركن تنقلنّ

أصبح صالح درويش يدقّ سوارة نحاس ليخلّصها من حديدة كالمدقّة، فانفجرت به وبترت يده وقلعت عينه وشوّهت وجهه وجسده، وبعد خروجه من المستشفى بأيّام زار السوق، فشاهد ماسح أحذية يغفو مع الظهيرة في ظلّ حائط، فوضع صالح قدمه على صندوق ماسح الأحذية فاستيقظ من الحسفة، وبحركة لا إراديّة تناول الفرشاة وأخذ يمسح القدم المغبرّة، تناول علبة الدهان ولفّ إصبعيه بخرقة ملطّخة وجالهما في العلبة، وأراد أن يمسح الحذاء ففطن إلى أن القدم حافية غير منتعلة، وأدرك أنّ هذا مقلب، فاستشاط غضباً، فأحكم قبضته على القدم وشرع في حكّها على ظهر الصندوق الخشن، وصالح يصرخ محاولاً أن يُملّص قدمه، ويشوح بساعده الذي يشبه الجريدة، فقال له: لن أفلت قدمك حتّى تدفع قرشين. وصالح يقسم الأيمان المغلّظة أنّه لا يملك نقوداً، وأنّه فعل ذلك مازحاً لا أن يعشّمه، ولم يطلقه إلاّ بعدما أشفق عليه أحد المارّة وأنقده قرشين.

وقد بترت يدا أبي موسى من انفجار قنبلة، وغدت امرأته توضّئه وتغسل له وجهه وتلقّمه الطعام، وتلفّ له السجائر وتضعها له في فمه وتشعلها له، فيشربها ثمّ يمجّها حين تصل النار إلى شفتيه، يقول محمّد درويش: أيتشبّث الإنسان بالحياة وهو على حال لا يحسد عليها، إنّ السرقة قطعت يدي أبي موسى.

أمّا عوّاد فقد كان يجتاز النقب قادماً من وادي عربة، مع رفيقه عمران، وكلاهما يركب جملاً، ينويان شراء أسلحة من مخلّفات الحرب من سيناء، خرجا من النقب من شرق القصيّمة، كانت الأرض وعرة، فأغراهما المسير في بطن الوادي، تفادياً للوعورة، وتنفّسا الصعداء حين ابتعدا عن منطقة الحدود الخطرة، نزل عمران عن جمله وقعد يبول بينما أطلق عوّاد له العنان لينتش من رؤوس الأشجار التي تحفّ بالوادي، فصعد الجمل كتف الوادي الأيمن، حيث الأعشاب والشجيرات غضّة يانعة تعبق بروائح عطرة، فأخذ الجمل ينهش منها بشراهة، تبادر إلى ذهن عوّاد أن ينْزل عن جمله ويتركه ليرعى، ولكنّه قال في نفسه: لكن سأشاور صاحبي، قد يكون عنده رأي آخر، ما به قد تأخّر ! يلمع وميض ويدوّي انفجار، يهدّئ عمران جمله ويقول: يا لطيف. يعقله في بطن الوادي بعدما تيقّن أنّ لغماً انفجر تحت جمل صاحبه، لقد سوّلت له نفسه بالفرار من المنطقة، ولكنّه أذعن أخيراً لداعي المروءة: لن أترك صاحبي مهما تكن النتيجة، ستلحقني ملامة بل معارة إن فعلت ذلك، أين الرفيق قبل الطريق ؟ ومع ربعك ولو ضلّوا.

صعد كتف الوادي فرأى حفرة عميقة يفوح منها الشواء والبارود، والدخان لا زال ينبعث، وذهب الغبار إلى كبد السماء، وأخذ يتّجه شرقاً، تحسّس عمران فوجد صاحبه ملقى على بعد عشر خطوات من الحفرة، جسّه فعلم أنّه ما زال حيّاً ولكنّه في غيبوبة، احتضنه من إبطيه، وجرّه إلى الوادي، فلاحظ أنّ ساقه اليمنى قد بترت وفارقته، أسرع وأحضر جمله، حدجه وربطه بالحبال على ظهر البعير واتّجه به نحو الغرب، قدم أناس لاجتلاء الأمر فسألوه: عسى ما فيه رديّة ؟ قال: ولا ترون سيّة. قالوا: أيش الانفجار ؟ قال: انفجر لغم بجمل صاحبي، وها هو على ظهر بعيري جريح. قالوا: هيّا اتبعنا بسرعة.

رجعوا به إلى بيت قريب، أشعلوا النار، تفقّدوا إصابات عوّاد الذي عاد إليه وعيه،

نقلوه إلى مستشفى العريش، فتلقّى الإسعافات الأوّلية، لكنّه آثر الخروج من المستشفى قبل أن يُفتح له محضر تحقيق، واستأجر سيّارة وعاد إلى القصيّمة، ثمّ اصطحب دليلاً من أهل المنطقة على جمل إلى مكان الحادث الذي مضى عليه أربعون يوماً، ونزل قريباً من مكان الانفجار، فرأى عظام الجمل مكوّمة قرب القفص الصدريّ وقد دفنت الرمال جزءاً منها، قعد بقربها فرأى شجرة طرفاء قريبة من المكان فزحف في ظلّها، استلقى على ظهره في حين شرع مرافقه في إعداد الطعام، فرأى جسماً كالقوس معلّقاً على أحد الأغصان، فقال: إيه هذه ساقي المبتورة، يا الله. أمسك بجذع الشجرة فتسلّقها، وأمسك بالغصن الذي عليه الساق بمحجانه فهزّه إلى أن سقطت الساق، نزل فرأى أنّ الطيور قد نهشت لحمه، وما زال السروال متشبّثاً بالعظم، كما أنّ سيور الصندل قد التصقت بعظم القدم، والذي راعه أنّ محفظته ما زالت في جيب سرواله، يربطها خيط واهٍ مُتك حين وقع عظم الساق على الأرض، وقدّر أنّه لو تريّث قليلاً لسقطت عليه المحفظة كالرطبة الناضجة، وفيها ألف دينار كان ينوي شراء سلاح بها، في حين كان في جيب الساق اليسرى مصاريف الطريق، وضع المحفظة في عبّه، وهمس: رزق الحلال لا يُحرق ولا يغرق. وشرع في حفر قبر لساقه، وقال: والله لولا أنّني أخاف أن أرعب أهلي لأخذتها معي لأضمّها إلى قبري، ولكن قد يشاء الله وأدفن هنا أيضاً، قال تعالى: (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير).

(٢٥)

ترك عجلان الدراسة إبّان الاحتلال، والتحق بأهله في سيناء، وتسبب مكوثه الطويل عندهم في مشاكل جديدة عويصة خصوصاً مع زوجة أبيه، وكان يرى أنّ والده يصطفّ دائماً مع زوجته، فوصلت العلاقة بينهم إلى حدّ القطيعة، فطلب عجلان من أبيه أن يفرز له حصّته من الأرض والمقتنيات، فرفض والده هذا الطلب، وأخذ يصرّح في كلّ مجلس عن عقوق عجلان، وإنّه يفكر في طرده ومع ذلك كان يصغي لمن يقول له إنّ عجلان

طيّب وشهم، فرغم أنّه ينفي ذلك بلسانه إلاّ أنّه يدغدغ مشاعره ويلاقي هوى في نفسه، حردت زوجته جرّاء محاورة بينهما، واتّهمته بأنّه منحاز إلى ابنه، ولحقت بأهلها، تبعها عودة بعد ثلاثة أيّام مرضيّاً، ناداها أخوها وانصرف تاركاً لهما المجال للمعاتبة والتفاهم، فظلّ عودة يذكّرها بما آلت إليه أمورهم في المأكل والمشرب والملبس فلم تكترث، وذكر لها بكاء الصغار وبحثهم عنها ومناداتهم لها وخوفهم، وما يعانون حين يذهب إلى الزاوية للصلاة، فلم يجد عندها أذناً صاغية، فأمسك بعود كان أخوها يشذّبه ليصنع منه قصبة لغليون بطول الشبر، ويخطّ لها به على الأرض الأسباب الداعية لعودتها ويفنّدها، ثمّ يشرعه في وجهها، فأغمضت عينيها، وحملت صرّتها وودّعت أهلها وتبعته.

في اليوم التالي سرى عودة لاستلام المؤن من مركز تموين رفح، فلاقى أبا عليّ في دكّان مقابل مركز الإعاشة، وشكا له أمر عجلان وما يتفوّه به، فقال عامر: أرسله لي لأقنعه كي يقلع عن معزوفة تقسيم الأرض والانفصال عنك.

كان سلاّم شريك عامر في الدكّان يفرغ الزيت الذي اشتري أمس من المستلمين في صفائح، يغرفه بكيلة من البرميل، فوجد سلاّم أنّ في قاع البرميل كتلة سوداء بحجم قبضة اليد، تناولها وإذ بها جرذ قد غرق في برميل الزيت، فعصره في البرميل، فخرج الزيت من فمه ومؤخّرته، وألقى به إلى الشارع قائلاً: لعنه الله بمقدار ما شرب من الزيت، تصوّر أنّه يقارب اللتر !. فاستنكر عامر عمله وقال: بيع هذا الزيت على الناس حرام، يجب أن نكبّه في الشارع. فقال سلاّم باستغراب: نكبّه في الشارع ! أنت لو ترى براميل الوكالة التي يكيلون للناس منها، فهي في مخازن ليست مبلّطة، وهي بمثابة موكرة للفئران، ولا أحد يعترض، ولو ترى معامل الحلوى في الأقبية والدهاليز، ثمّ إنّ النار تقتل السمّ. فلاحظ سلاّم أنّ كلامه وحججه لم تقنع عامراً الذي يتأفّف ويستغفر ربّه متبرّماً فقال له: إن كنت خائفاً من الحلال والحرام، وحريصاً على صحّة الناس إلى هذا الحدّ ادفع لي ثمن حصّتي من الزيت ثمّ اسكبه في الشارع أو اصنع منه صابوناً. فقال عامر: قيّد ثمنه عليّ في الدفتر. فرمى سلاّم بكيلة الزيت، وانفضّت الشراكة.

تأزّمت الأمور بين عجلان وأهله، أخرج ذات ليلة رشّاشاً خفيفاً كان قد عثر

عليه من مخلّفات الحرب، وقرّر أن يصفّي حساباته مع أهله، بعد أن أمّن طريق فراره إلى شرق الأردنّ، وفضّل أن يبدأ بعمّته فيقتلها ثأراً لأمّه، تسلّل إلى بيتها فوجدها ترضع طفلاً وهي نائمة، كان يضع الرصاصة في بيت النار، وأخذ يشحن نفسه فمرّ في مخيّلته شريط الأحداث، يوم قتلت أمّه غير عابئة بتركه وحيداً تعيساً. فقال: سأحرم طفلك هذا حنان الأم مثلما حرمتني، بل سأقتله مثلما قتلتني بزجّي في النار. نبح كلب فرأى الطفل يتشبّث بالثدي بكلتا يديه، فقعد عند رأسيهما، وكان إلى جانب الصغير صفّ من الأطفال. قال: لماذا هذا التردّد والانتظار، أما زال في قلبي رحمة لهؤلاء الذين لم يرحموني، أأبقوا للشفقة موضعاً في نفسي؟ أم ما زلت غرّاً لم أبلغ مبلغ من يثأر لنفسه؟ سأنتظر لحظة إلى أن ينهي هذا الصغير رضاعته، لأنّني سأحرمه منها إلى الأبد. فرأى رجلاً قادماً إلى البيت، فتوارى خلف الحظيرة حين رأى زوج عمّته شاهين يلج البيت وابتعد زحفاً، ثمّ سار إلى أن وقف على كثيب مقابل بيت أهله، وأطلق من فوقه الرصاص بغزارة، وأسرع إلى حيث ينتظره أصحابه ليرافقهم في الرحلة، فوجد رشيد البردي وأخاه عطيّة ينتظران الدليل موسى الذي سبق له أن اجتاز النقب ليصل إلى والده الذي يعزب بإبله في غور الصافي.

دخلت المجموعة المكوّنة من أربعة أفراد المنطقة المحتلّة مع كتف جبل القرن، بعد أن سارت يومين محاذية لحدود سيناء مع النقب، ونفد ما معهم من ماء، وكان دليلهم يركن إلى ماء يتجمع في حفر وآبار قديمة، في جبل القرن، ولكنّهم وجدوها نازحة، فوجدوا بعر جمال وأغنام حول المكان، ولم يتوقّعوا ذلك وأمضوا سحابة نهارهم بدون ماء، وأمسى أكثرهم تأثّراً بالعطش أصغرهم سنّاً عطيّة، الذي وصل به الأمر إلى أن أخذ يبول في يده، ويتجرّع بوله، ويقول: البول في المرّة الأولى كان أطيب منه في المرّات اللاّحقة، وغدا مرّاً كالحنظل لا يطاق، فتضايق أخوه رشيد الذي لم يكن بأحسن حالاً منه، ارتقى رشيد تلاً عالياً، فشاهد إبلاً ترتع في وادٍ مجاور، فاتّجه نحوها ورفاقه يتبعونه بأنظارهم، فرأوه وهو يصافح راعي الإبل، ومرّت بقربهما سيّارة عسكريّة إسرائيليّة على طريق ترابيّ، توقّفت قليلاً فاختفى رشيد عن الأنظار، ففرّ رفاقه وظنّوا أنّه قد أُلقي القبض عليه، ولكنّ أخاه لم يستطع الابتعاد عن مكانه، فانبطح في ظلّ عوسجه، وحين مرور السيّارة بطح الراعي

رشيداً بين الإبل وغطّاه بعباءة ليخفيه عن أنظار الجيش، قد عرفه من هيئته أنّه ليس من أهل المنطقة، وبعد ذهاب السيّارة، أعلم رشيد الراعي بحاجته ورفاقه إلى الماء، وأنّهم في طريقهم إلى الأردن، فأعطاه الراعي مطرة الماء، وقال له: اذهب واسق جماعتك، ولاقني بهم بعد الغروب عند تلك الشجرة، دبّت فيهم الحياة من جديد، وأمسى رشيد يقنع رفاقه بطيبة الرجل وما فعله معه إبّان مرور الدوريّة، ولمّا أخذهم إلى بيته، أجلسهم في صيرة قرب البيت، وأخذت امرأته تطهو لهم الخبز، وحلب لهم النياق، فأكلوا وشربوا وحدّثوه عن المجازر التي ارتكبها اليهود في قطاع غزّة، فقال لهم: كنّا نتابع الأخبار أوّلاً بأوّل، قيل للأعور: العمى صعب. قال: نصف الخبر عندي. صحيح أنّنا بقينا داخل الخطّ الأخضر كما يقولون، ولكنّهم سلبونا أرضنا ومنعونا من دخولها، وجرفوا مقابر آبائنا وأجدادنا، وأحالوا مسجد السبع إلى متحف، ولم يسمحوا لأحد من العرب أن يصلّي فيه، وفرضوا علينا التجهيل، ومنعونا من بناء حجر واحد على الأرض، ويريدون أن يقطعوا كلّ أواصرنا بمحيطنا العربيّ، ويسمّننا بأقليّة البدو، ويعملون على أن نكون أدوات في أيديهم، تعمل لمصلحتهم فقط مع نكران الذات، كم يحزّ في النفس أن ترى يهوديّاً قادماً من بولندا أو روسيا اليوم، فيأخذ أرضك أمام ناظرك، ولا تستطيع أن تحرّك ساكناً.

شدّ المضيف غبيطاً على ناقة، وحمل عليها أمتعتهم، وخبزاً وقربة ماء، وسار بهم إلى الشرق يتناوبون الركوب على الناقة حتّى الصباح، ثمّ أخفاهم في مغارة، وبقي يرعى ناقته حولهم حتّى المساء، وانطلق بهم مع اللّيل إلى أن أدناهم من الحدود في وادي عربة، فبدت لهم جبال الطفيلة والكرك سوداء شامخة كالسحاب، وقال لهم: يسّر الله أمركم، كنت أتمنّى أن أواصل الرحلة معكم، وأزور أخي الذي يسكن مادبا، ولكنّني أخاف أن يفتقدني أحد الجيران، لا أريد أن أضع نفسي موضع ريبة. شكروه وصافحوه، وأعطاه عجلان الرشّاش الذي بحوزته، فأبى أن يأخذه، فأصر عجلان على أن يقبله منه هديّة قائلاً: الآن لا حاجة لي به، سأدفنه هنا إن لم تأخذه، لا أستطيع حمله في الأردنّ. فأخذه وقال: هو لك عندي أمانة، إن رمتك الرجل عليّ تجده في الحفظ والصون، عندي بندقيّة لا زلت أخبّئها منذ عشرين سنة. حملت المجموعة الماء وما تبقّى من الزاد، وساروا بقيّة

ليلتهم، اجتازوا وادي عربة واتّجهوا شمالاً بمحاذاته، حذّرهم موسى قائلاً: الآن سيقابلنا أناس فلا يتحدّث معهم سواي، لأنّني أعرف لهجتهم. وجدوا رعاة إبل فسألوا عن والد موسى، فاستدلّوا عليه بسهولة، ومضى عجلان عندهم أيّاماً، ثمّ واصل طريقه إلى عمّان، إنّه متلهّف لارتياد المدن، وأدهشه أنّ سائق الحافلة قبل أن يصل إلى نقطة تفتيش تعترض الطريق أوّل صعودها للجبل قال: من لا يحمل بطاقة أو شهادة تعريف عليه أن ينْزل هنا، ويلفّ ليلاقينا بعد النقطة. فرأى عجلان شابّين نَزلا من الحافلة فتبعهما، وداروا ليس ببعيد عن حاجز التفتيش فوجدوا الحافلة تنتظرهم، ومن ضمن ركّابها عدد من الجنود والشرطة، ولم يعترض أحد، فتذكّر عجلان نقطة الماسورة التي كان يلفّ حولها من لا يحمل بطاقة أو تصريحاً في طريقه من رفح إلى العريش أو العكس، وحين صعدت الحافلة الجبل أحسّ عجلان بأنّ أذنيه تطقطقان، وانّه فقد حاسّة السمع، فأدخل إصبعه الشاهد في أذنه وأمسك شحمتها بالإبهام وهزّها هزّاً عنيفاً، ولم يرتح له بال إلاّ عندما رأى الكثيرين يفعلون فعله، فأدرك أنّ هذا التأثّر ليس مقصوراً عليه وحده، وقفت الحافلة عند استراحة، وكان عجلان قد استبدل نقوده المصريّة بنقود أردنيّة من والد موسى في غور الصافي، قعد عجلان على كرسيّ قصير من الخشب والحبال، وطلب من النادل صحن فول، فأحضر له رغيفاً وصحناً به شيء من المخلّل والفلفل وبصلة وفجلة وصحن الفول، وقبل أن ينهي عجلان صحنه أخذه النادل من أمامه، وقدّر أنّه تجاهل ما بقي في الصحن من طعام، ويريد أن يقوّمه ليجلس آخر مكانه لازدحام الناس وقلّة الأمكنة، وقرّر عجلان أن يعاتبه ويعلّمه أصول اللّياقة والكياسة، ولكنّه تفاجأ بعودة النادل بالصحن وقد أضاف إليه فولاً جديداً وزيتاً، فوضعه أمامه، فاستأنف الأكل، ولاحظ زبوناً إلى جواره ينادي النادل ويطلب منه أن يصلح له الصحن، وإذ بها عادة دارجة هنا، والغريب أنّ المرء يدفع ثمن صحن واحد، فقال عجلان: هنا يأخذون ثمن شبعة وليس ثمن صحن. وأنقد النادل خمسة قروش، فأعاد إليه ثلاثة.

بات عجلان ليلته الأولى في الكيراج، وقابل هناك شابّاً كان ينوي السفر إلى جرش، ولم يلحق بالباص الذي غادر قبل وصوله، وبعد حديث بينهما فهم الشابّ من

عجلان أنّه يبحث عن عمل وليس له أقرباء في عمّان، فاقترح عليه مرافقته للعمل في كسّارة، وراقت له الفكرة لأنّها توفّر له العمل ومن ناحية ثانية تؤمّن له المنامة، فعمل فيها أسابيع، وكان في العطل يتجوّل في مخيّمات اللاّجئين وزار البتراء وتعجّب من هندسة بنائها، وهي منحوتة في الصخر، واستغرب من أنّها الآن خالية من الناس ولا يوجد حولها إلاّ بيوت شعر مضروبة في الأودية، يمتهن أهلها الرعي والصيد، كما زار جرش، وشاهد الأعمدة العملاقة وتعجّب من قدرة الأوائل في النحت والبناء، وشاهد المسارح الرومانيّة، ولكن أكثر ما راعه قلعة عجلون، إنّها عنوان الشموخ والعظمة، صعد طوابقها واعتلى سطحها فشاهد جبال الجليل ونابلس والبحر الميّت واستمع إلى شرح المرشد السياحيّ الذي قال: إنّ صلاح الدين أمر ببناء هذه القلعة في هذا المكان الاستراتيجيّ ليراقب تحرّكات الصليبيّين، ويرصد تجمّعاتهم ليفسد مخطّطاتهم ويحاصرهم، وقد بنى عدّة قلاع على غرار هذه القلعة في بلاد الشام، وأفنى عمره في محاربة الصليبيّين لا يعرف التقاعس ولا يتسرّب إلى نفسه القنوط، لقد أحضر أصحابه مهرّجاً في هذه القلعة ذات ليلة، وأخذوا يضحكون من حركاته ونكاته، وصلاح الدين واجم شارد الذهن، فسأله أحدهم ألا تضحكك تصرّفات هذا المهرّج القزم ؟ فقال: كيف أضحك والأقصى محتلّ ! فارتاع عجلان من كلامه، وتجرّأ وسأل المرشد: أين قبر صلاح الدين ؟ فقال: إنّه قرب المسجد الأمويّ بدمشق. كما دهش عجلان من الجبال الشاهقة والغابات الكثيفة التي تغطّي جبال عجلون ودبّين، وبناء على اقتراح صديقه الجرشيّ ترك الكسّارة وعمل في جدّ الزيتون في كروم عنجرة، وشاهد تساقط الثلوج كالقطن المندوف، ورأى لأوّل مرّة الثلج يغطّي كلّ شيء، ويغلق الطرقات، وأحسّ بالبرد الذي ينخر العظام، وعندما نَزل إلى الغور أعجبه الدفء، ولكنّه عانى من لسع البعّوض والقارص، والذباب الذي ينغّص حياة المرء ويغطّي العجين، ويتهافت على كؤوس الشاي، ويسدّ بوز الإبريق، كما يشعر بأنّ الهواء شحيح في الغور.

انتقل إلى منطقة الرمثا، وعمل هناك في الحصاد، وكان قد مارس الحصاد في البلاد الساحليّة، حيث يخلع الحصّاد شمال الزرع بيده من التربة الرمليّة الرخوة، أمّا هنا فهي طينيّة ويحتاج الأمر إلى استخدام المنجل، وفي سيناء والنقب يحصد الناس وهم

جلوس يزحفون، أمّا هنا فالزرع مرتفع، وعلى الحصّاد أن يقف ويحني قامته، ويجزّ القشّ قريباً من القاع بالمنجل، وكان الشاقوق يحدو، ويردّد خلفه فريق من الرجال والنساء:

يا منجلي يا من جلاه رحت للصايغ جلاه

والصايغ جلاه بعلبة يجعل العلبة فداه

وكان عجلان يشحذ ذهنه ليتذكّر أبياتاً من الحداء الذي كان يسمعه في بلاده، فصاح عندما سكت الحادي:

يا حصّاد اكرب سيرك عين البيضا لغيرك

عين البيضا للراعي الراعي هالهوّاعي

ثمّ انطلق: بنت المعلّم طاحت تمدّدت وارتاحت

الحلاوة يا وليدات ع رووس العويدات

فأعجب الحصّادين حداؤه، وزاد من نشاطهم فتذكّر:

هبّ البراد وابردنا يا بخت من حصّدنا

عند استراحة الغداء قال الحدّاء الأوّل لعجلان، لهجتك وغناؤك وصفار أسنانك تدلّ على أنّك من سكّان الساحل، أليس كذلك ؟ صمت عجلان ولم يتسرّع بالإجابة، فأضاف الرجل: أنا اشتغلت في يافا، وذهبت إلى بئر السبع، وحفرت هراباً هناك، وإن صدق حدسي أنت من تلك المنطقة. أجابه عجلان: نعم. سأله: وما الذي أتى بك إلى هنا ؟ أجاب: أتت بنا القسمة.

قرّر عجلان على إثر هذه المحاورة أن يغادر هذا المكان، وفي اللّيل استمع في ديوان الكنانيّ إلى المذياع وهو يعلن الوحدة بين مصر وسوريا، فاستبشر الناس بالنصر، وقال الشيخ الكنانيّ: أصبحت إسرائيل الآن بين فكيّ كمّاشة، وكيف لو تنضمّ الأردن ولبنان والعراق إلى هذه الوحدة ؟ وتحوّل الحديث من السياسة إلى المعيشة، فتحدّث رجل أشيب فقال: العمل ثلاثة أنواع، عمل عاديّ كالزراعة والحرف اليدويّة، فيحصل صاحبها على لقمته بالكفاف، وهو بذلك يكون كالشاة التي تسير مع القطيع، فهو لا يختلف عن غيره، وأمّا إن أراد أن يتميّز عن الآخرين العاديّين فعليه أن يبتكر صنعة أو حرفة، لا يفطن إليها

الكثيرون، فيستثمرها بمفرده فتدرّ عليه أرباحاً، أمّا إن اشتلق عليها الكثيرون فيتركها ويبتدع غيرها لأنّها أصبحت مطروقة، وإمّا أن يعمل في حرفة يهابها الناس ولا يجسرون على ممارستها لخطورتها. فتذكّر عجلان ما كان يردّده المهرّبون في سيناء عندما يقطعون قناة السويس، فيغنّون:

جرابك والبرّ الثاني يا ميتة يا فنطازيّة

فهم يحسبون حساب الموت أوّلاً، وإن نجحوا عاشوا في نعيم، تفرّق المتسامرون ونظر عجلان إلى الشمال، وأصبح العيش في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة هاجسه الأوّل، فصمّم في نفسه السفر إلى دمشق.

تذكّر عجلان الزمّار فرحان الرتايعة حينما دخل سهل حوران، هذا الذي ترك أهله وبلاده شغفاً بحسناوات حوران، حين عمل أهلهن في يافا، ورافقهم إلى بلادهم يوم رحيلهم، وكان يجيد الدقّ على الأرغول الذي صنعه من ساقيّ رخمة، كانت ألحانه ترمي الطير من السماء كما يقولون، وعمل فرحان الرتايعة راعياً، وشغفت العذارى بألحانه، فكنّ يتركن الحصاد وجمع الغمور ليعقدن حلقات الدبكة على ألحانه وذاع صيته في المنطقة بأسرها، وينقلونه في مناسبات الأفراح من قرية إلى أخرى، فاغتاظ منه أصحاب الكار، ودبّروا له مكيدة، فأخذوه إلى مكان ناءٍ بحجّة أنّهم ذاهبون إلى عرس، ثمّ بركوا عليه وقطعوا بنان أصابعه ليمنعوه من التزمير، ولكنّ ذلك لم يمنعه من المضيّ في هوايته، أكمل أطراف أصابعه بأعواد من البوص، فأصبحت ألحانه أكثر اتقاناً وأحنّ نغماً وإثارة، وظلّ ينفخ في أرغوله وشدقاه مملوءان بالهواء، ويحيط الزبد بالقصبة ويتقاطر اللعاب مع نهاية الدوّاية، وهو يحني ظهره ويحرّض اللاّعبين حين يرى منهم فتوراً، فيضرب الأرض برجليه ليثير الحماس، وغابت أخبار فرحان عن أهله، وفكّر عجلان أن يتسقّط أخباره حين تكون الفرصة سانحة.

أدهشه منظر السنابل الصفراء تموج وتتمايل وقد حان قطافها، وقال: تكفي هذه الحبوب الوطن العربيّ بأسره، صدق مدرّس التاريخ عندما حدّثنا أنّ حوران كانت تسمّى إهراءات روما، إذ كان غلالها يطعم أوروبا يوم كانت الزراعة بدائيّة، والحراثة

تقوم على الخيول والثيران، سأل عن اسم بلدة في وسط السهل، حجارة بيوتها سود، فقيل له هذه بلدة الشيخ مسكين، فقال في نفسه: يا ترى أهو مسكين الدارميّ، وعندما نظر إلى يساره وهو متّجه إلى دمشق شاهد الجبل الشامخ، وقد جلّلت قممه الثلوج في عزّ الصيف، وقال: وهذا جبله أيضاً، ثمّ أطلّ على جبلين يتربّعان على السهل كالبعيرين الباركين، فسأل عن اسم هذه البلدة فقيل له: هذه بلدة الصنمين. فتعجّب من لفظهم للسين إذ يلفظونها صاداً، فهو يرى أنّ اسمها يجب أن يكون السنامين، لأنه يرى الجبلين القريبين منها كسنام البعير، ولا يعقل أن يكون اسمها مأخوذاً من اسم الصنم الذي انقرض منذ آلاف السنين، اجتاز غوطة خضراء تلفّ دمشق من جميع الجهات، وأعجب بظلالها الوارفة، وشاهد أهل المدينة وهم يخرجون باسرهم سيراً على الأقدام، أو ركوباً على الدرّاجات أو السيّارات، ويقضون يوم الجمعة في الغوطة أو الربوة، يجلسون على بسط تحت الأشجار يشوون اللّحم أو الدجاج، ويدخّنون التمباك في النراجيل، وتعجّب من كثرة ثمارها وألوانها، فرأى فيها جنّة حقيقيّة، وأحسّ بالأمن، وسرّه رخص الأسعار، وأدرك الآن معنى قول البدويّ له في سيناء: كلّ بلاد عند أهلها شام. أي جنّة، وتمنّى لو أنّ ذاك البدويّ يرزق بمثل هذا الماء الزلال البارد، مياه عين الفيجة التي تقابلك أنّى سرت.

استأجر غرفة في مخيّم اليرموك، غبطه منظر الرجال المسنّين الذين يرتدون الحطّات البيضاء، اعتاد أن يجلس بعد العصر على كرسيّ قصير أمام بقاليّة أبي قاسم، وكم حدّثه عن المتاعب التي تعرّض لها الناس يوم خروجهم من فلسطين والتجائهم إلى لبنان وسوريا، وأنّهم قد وزّعوا على المدارس والمساجد قبل أن تُبنى لهم الخيام، وحدّثه عن جيش الإنقاذ والجيوش العربيّة التي دخلت إلى فلسطين بعد رحيل الإنجليز، وكان عجلان يشفق عليه لأنّه يتحدّث بعصبيّة، وغالباً ما ينفعل، ويلقي باللاّئمة على هذه الجيوش التي جهلت إمكانات اليهود، وقال أبو قاسم لو كان عندنا وعي كامل ما خرجنا من بلادنا حتّى لو أُبدنا جميعاً. استمع رجل كهل إلى الحديث ففاضت عيناه، وتكلّم بمرارة بصوت مضطرب فقال: لا زلت وأسرتي نشعر بتأنيب الضمير لأنّنا تركنا جدّتي في البيت الذي فررنا منه في قريتنا بالجليل، وكلّما رأيت عجوزاً تدبّ على عصا في المهجر تذكّرت جدّتي، وعند هروبنا

سمعنا إطلاق رصاص حين دخل اليهود قريتنا، إمّا أنّهم يطهّرون البلدة من أهلها الباقين، وأنا لا أظنّ أنّ أحداً قد بقي في القرية غير جدّتي أو ليؤنسوا أنفسهم، ويذعروا من تسوّل له نفسه في العودة إلى بيته لجلب شيء من المتاع، لا نعرف عنها شيئاً، أقُتلت أثناء دخول اليهود أم حملوها إلى مأوى أو قرية عربيّة، ولم نسمع بعد رحيلنا لها أخباراً، علماً أنّنا راجعنا مكتب الصليب الأحمر الدوليّ، وأعطيناهم اسمها وعنوان المكان الذي تركناها فيه، ولم نتلقّ جواباً، كانت متقدّمة في السن، لا تقوى على المشي، وأكثر ما يحزّ في النفس أنّها كانت تدعو الله كي يسلّمنا وينجّينا فتقول: انتبهوا للصغار، لا تضيّعوا أحداً منهم تفقّدوهم عند كلّ منْزل ومسار، احذروا عليهم الحرّ والأشواك والحشرات، احملوا ما استطعتم من ماء، انتبهوا لبعضكم، وأسرعوا قبل أن يصلوا، رافقتكم السلامة. كم نشعر بوخز في الضمير، ويا لها من مصيبة يشعر المرء حيالها بالعار، والحديث في الأمر الفائت خسارة محضة، ما كسبنا من الفرار إلاّ التعب والشقاء والمعاناة والإهانات، لو سمعنا ما سمعناه من شيخ في قرية الرامة عن قصّة الثعبان لما خرجنا من بيوتنا، حيث قال: اتخذ ثعبان من جذع شجرة مسكناً له، وكلّما طارده أحد لاذ بوكره، ولم يتمكّنوا منه، وأخيراً أجمعوا أمرهم على حرق الجذع بما فيه، فجمعوا فوقه الحطب وصبّوا القار وأشعلوا النار، وأحسّ الثعبان بما يدور من حوله، فآثر الموت في وكره عن الهرب والنّزوح، رغم أنّ فرصة الهرب كانت متاحة، فقال قولته المشهورة: أكل النار ولا ترك العقار. فعلّق أبو قاسم: بالفعل كان الثعبان حكيماً حين رفض مغادرة بيته. ورغم أنّ أبا القاسم متحدّث جيّد يثير السامع إلاّ أنّه يختلف عنده لفظ بعض الحروف، كما يقلب مواضعها في الكلمة، فيقول مثلاً: نزح عمّي عن طريق جسر دانيا. بدل داميا، ويقول: واستقرّ به المقام في عمّال. بدل عمّان ويقول: حصل ابني قاسم على شهادة البكارولیا. بدل البكالوريا، ويقول: قابل المفتي هترل. بدل هتلر، ويقول: تدعم أمريكا إسرائيل بالدورال. بدل الدولار. ولم يعجب عجلان منه أنّه عندما يبيع أحدهم لبناً ويصبّه له في الوعاء، يمسح ما انسكب على حافّة سطل اللّبن بإصبعه، ثمّ يلعق الإصبع بلسانه، قبل أن يعيده إلى مكانه، وكلّما شعر أنّ المستمع يشكّك في كلامه، أو يتعجّب من غزارة معرفته وصحّة استنتاجاته شدّ زاوية فمه بإصبعه ليُري

السامع أو المتشكّك أنّ أضراسه مقلّعة، فهو رجل كبير ولديه تجارب جمّة ليس غرّاً غشيماً.

تجوّل عجلان في مخيّم جرمانا للاّجئين وقرأ اسمها بالحاء المهملة، فقال اسم على مسمّى، وشاهد الوجوه عابسة كدرة مكفهرّة، ترتسم عليها أهوال المأساة وتلقي بظلالها عليها النكبة، واستغرب حين مرّ على مأتم من أنّ أهل المتوفّى يستقبلون المعزّين على قارعة الطريق، وقال: أليس عندهم بيوت يجلسون فيها أم أنّها ضيّقة لا تتّسع لهذا الكمّ من البشر ؟ تابع بائعاً يدفع بعربة أمامه وينادي على وتيرة واحدة: سمك.. سمك.. طبراني يا سمك. ويغطّي صندوقاً ببطّانيّة مبلّلة، والذباب الجسور لا يكترث بالمرشغة التي يضرب بها البائع كرسه بين الفينة والأخرى، وهو يتكوّم على ثقوب البطّانيّة ليغرس إبره بين قشور الأسماك، أمّا الغوطة التي تلفّ المخيّم البائس فتعبق برائحة الزيزفون الأخّاذة.

تجول كذلك في سوق الحميديّة فراعه المعرّش الضخم الذي يفضي إلى المسجد الأمويّ، ودهش من كثرة الدكاكين وتراصّها، وكيف يعثر عليها الناس ليتسوّقوا منها، وصلّى في المسجد، وقرأ الفاتحة على قبر النبيّ يحيى، ثمّ خرج من الباب الشماليّ، وارتاع من منظر الفسيفساء التي تغطّي المدخل من الناحية الغربيّة، وزار قبر صلاح الدين، وقال: هنا ترقد في هذا المكان الضيّق المعتم. وشاهد بالقرب منه ضريحاً رخاميّاً كُتب عليه: هديّة من غليوم الثاني. وقال: هذا الذي يعرف ويقدّر ما قام به صلاح الدين من أعمال. ثمّ خرج من المكان وشاهد بائعاً شيخاً كبيراً قد اهترأ حذاؤه وتشكّل على هيئة قدمه، كان يحمل علبة مفتوحة بيده، وفي يده الأخرى حقيبة، يسير ولا يهدأ، لا يكلّ ولا يملّ وينادي: دبس.. دبس.. عسل يا دبس. والغريب أنّ نحلة ظلّت تطارده وتتحيّن الفرصة لتحطّ على العلبة فما تلبث أن تطير لتحوم حول الحقيبة، فتذكّر المثل القائل: الذبّان يعرف ذقن اللّبان. وقال: تكسّرت رجلاي وأنا أتابع هذا البائع فلم أره قد باع شيئاً، أتراه قد باع في الصباح ؟ يمرّ على الحوانيت، ويقابل المارّة فلم يعبأ به أحد، لماذا ألا يأكلون الدبس ؟!

وشاهد على دوّار الصالحيّة رجلاً بلا ساقين له حدبتان، واحدة على صدره والأخرى ينقلها على ظهره، يزحف على مقعدته، ذراعاه طويلتان، كان يشير بيديه إلى السيّارات التي أمامه لتسير أو لتتوقّف، يزحف حين وقف رتلاً ليقترب من الرتل الآخر

فيطلب من السائقين التحرّك، يحرّك يديه بسرعة وهو مقطب جبينه، وكأنّه يوشك أن يسحب بهما السيّارات سحباً، ولم ييئس إذا استخدم المنبّه سائق محذّراً إيّاه ليبتعد عن الطريق، ويزحف إلى الرصيف حين يختلط الحابل بالنابل، ويحاول تنظيم السير من جديد، ولا يتورّع في أن يدقّ بقبضته على جانب السيّارة المخالفة، ويستاء إن رأى شرطي مرور يأتي إلى المكان ويستعمل صفّارته الصاخبة، وتتفتّح أساريره حين ينتظم السير، ويسيطر على الحركة، ولكنّه يندهش ويقطب حاجبيه حين يختلّ النظام ويضطرب السير، يأتي في الصباح الباكر، ويقضي سحابة نهاره، ويتناول طعامه وشرابه في ساحة العمل من عباد الله، وفي اللّيل عندما ينضب السير وتخفّ الحركة، يعود إلى ملجئه حاملاً معه كيساً أسود.

استمع عجلان مع حشد من المواطنين إلى خطبة حماسيّة، تدعو إلى التصدّي لنظام شمعون في لبنان، الذي يكيد للوحدة بين الإقليمين المصريّ والسوريّ، وقال الخطيب: على الشباب الثائر أن يلتحق بمراكز التطوّع والتدريب على السلاح لحماية الوحدة. شعر عجلان بأنّ الدم يجري في عروقه، وأنّ شعر رأسه يقف، وبعد انتهاء المهرجان الخطابيّ، سأل عن مراكز تجمّع المتطوّعين، فالتحق بمعسكر حرستا، وتلقّى هناك تدريباً مكثّفاً لمدّة أسبوعين على الأسلحة الخفيفة والقنابل اليدويّة، وفي ختام الدورة وقف قائد المعسكر، وطلب ممّن لديه رغبة حقيقيّة في الشهادة من أجل الوحدة عليه أن يخرج أمام الطابور، فخرج عجلان دون تردّد، وتبعه بعض الأفراد، وانضمّت إليهم فيما بعد مجموعات أخرى من المعسكرات المختلفة، ركبوا سيّارة عسكريّة واتّجهت بهم إلى الحدود اللّبنانيّة، وفي قرية دير العشاير أُلبسوا ملابس مدنيّة وخبّأ كلّ واحد بندقيّته وقنابله في حقيبة يدويّة، ووضعها تحت كرسيّه الذي يجلس عليه، انطلقت بهم الحافلة ترافقها سيّارتان صغيرتان، تستطلع إحداهما الطريق بينما تتولّى حراستهم الأخرى مع الفجر وصلوا إلى السعديّات، وطلب منهم اقتحام قصر شمعون، الملاصق لشاطئ البحر، نزلوا من الحافلة بسلام، فأخذوا مواقعهم حول القصر، نزلت مجموعة الضفادع إلى الماء للالتفاف من البحر وإثر اشتباكهم مع الحراسة جوبهوا برمايات شديدة، وظلّت المعركة مستمرّة زهاء نصف

ساعة، وأخفق الهجوم في احتلال القصر، وأسر عجلان بعد أن جندلته قذيفة قرب بوّابة القصر، ونقل إلى سجن الرمل، وكان مكتظّاً بالنّزلاء، ويتصدّر الغرفة التي فُرز إليها عجلان رجل ذو شاربين كثّين، أمّا المرحاض فتتكة وُضعت أمام الغرفة، والذهاب إليها بالدور وكلّ من يمرّ بين الجنديّين يصفع على ظهره بالعصيّ، ومن يتأخّر على التتكة ينهالوا عليه بالهراوات، وربّما غطّسوا رأسه فيها، ففضّل عجلان العطش والجوع على الذهاب في هذه الرحلة الشاقّة، فكان يشرب في اليوم قدر فنجان من الماء، ويأكل كسرة خبز بحجم الكفّ، وحين فطن الحارس إلى أنّه لم يخرج لقضاء الحاجة ناداه وأخذ نصيبه من كلّ حارس، وفي هذا السجن خليط من النّزلاء، منهم السياسيّ والجنائيّ والأمنيّ، وكان يحذر كلّ داخل جديد من ذي الشاربين الكثّين الذي يمسّدهما باستمرار، فهو يحاول استقطاب الصغار، وهو مسجون على خلفيّة شذوذ، وقد حاول أحدهم ذبحه بشفرة.

خضع عجلان للتحقيق والضرب المبرح، لأنّه الوحيد الذي قدم من مصر فاتُّهم بأنّه مبعوث من القيادة هناك ليلعب دوراً خاصّاً في لبنان، ونقل إلى زنزانة فرديّة، وبعد انتهاء التحقيق، نقل إلى سجن سياسيّ، والتقى بشخصيّات مرموقة، ومعظم هؤلاء السياسيّين على اتّصال بالخارج وتصل إليهم الأخبار السياسيّة مباشرة، ويقضي المساجين يومهم في فعاليّات مختلفة، فهناك حلقات دروس اللّغة والفقه والجغرافيا والفلسفة والمعارف العامّة، فتسمع سجيناً حصن الصوت يغنّي، وآخر يقلّد المطربين والخطباء، والبعض يؤدّي حركات بهلوانيّة، وتجد من يتبارزون في الشعر، وحاول عجلان أن يكون إيجابيّاً، فيحدّث أحياناً عن غرائب البلاد التي زارها، وعكف على القراءة، وكان يحرص على متابعة حلقات اللّغة والجغرافيا والتاريخ.

ما أن استلم فؤاد شهاب الرئاسة حتّى أصدر عفواً عامّاً، فتبوّأ بعض من كان في السجن مناصب هامّة في الدولة، واتّصل الصليب الأحمر بوالد عجلان في سيناء، وطلب منه دفع ثمن تذكرة باخرة أو طائرة لإعادته من معتقل في لبنان، تفاجأ عودة بالخبر، وكان يظنّ أنّه تخلّص من عجلان نهائيّاً، ورفض دفع شيء، وحين علم عامر بطلب الصليب ذهب

إلى مقّرهم في غزّة، ودفع لهم قيمة التذكرة وسيق عجلان إلى الباخرة، وكان يرتدي بذلة جينْز وحذاء رياضة، أعطاها إيّاها أحد المحرّرين، أخرج جاره في المقعد طعاماً وفاكهة وشرع في الأكل، قرقر بطن عجلان حين شمّ رائحة الطعام، فقال له جاره: يجب أن تعرض نفسك على طبيب فاقتطع عجلان قطعة مطّاط من حذائه، لاكها ثمّ ابتلعها، ووضع أخرى في فمه وظلّ يعلكها، وتذكّر طرفة سمعها من سجين مثقّف، قال: سأل أحدهم طبيباً عن قرقرة بطنه، فقال: هذا ضراط لم ينضج بعد. فابتسم، وتذكّر أنّه بينما كان يختبئ مع مجموعة بين الكثبان الرملية هرباً من الاجتياح الإسرائيلي لسيناء، فقرقر بطن أحدهم، فظنّ الجالس بقربه أنّ هذا الصوت صوت رشّاش يهدر من بعيد، فأمسك بيد رجل كان يتحدّث وقال: اسمع اسمع، وصل الذبح للنبح. ولم يقتنع بأنّ ما سمع هو قرقرة بطن أو فتاق في الخصية.

قال عجلان: أسهب جليسي في الحديث عن نفسه وعائلته، بينما كتمت أمري، كانت ريالته تتفطّط على وجهي، وبعد أن أنهى طعامه أخذ يمسح شاربه بيده عدّة مرّات، حتّى إنّني خشيت أن يكون قد رأى شيئاً علق بشاربي، وكأنّه حاذر أن يصيبه ما أصابني، أو كان ينبّهني بطريقة غير مباشرة كي أمسح شاربي، وبالفعل مرّرت يدي على شاربي، وتمنيّت لو كانت معي مرآة لنظرت إلى وجهي، وعندما يتحدّث يبرّق عينيه ويمسك بذراعي ويهزّها ليتأكّد من انتباهي لحديثه، ثمّ نبش أنفه بظفر خنصر يده اليسرى الذي أطاله كثيراً، ثمّ أخرجه ونظر إليه، ثمّ أعاده فرجع خالي الوفاض، وبعد لحظات ومع تردّد النفس من منخريه سقطت قلقة على الشارب الأصهب، ظلّت عالقة بطرف الأنف لأنّ أعلاها ما زال لزجاً، والغريب أنّه لم يحسّ بها ولم يعد الخنصر إلى الأنف، وكأنّه أنهى مهمّته وشرع في تنظيف الظفر الطويل، خجلت أن أنبّهه لما حدث، وظللت أحلّق بنظري بعيداً، ولكنّني أختلس نظرة بين الفينة والأخرى لأتابع تطوّرات الوضع عند الأنف، تمنيّت لو كانت عندي جرأة جدّي حامد، الذي لا يتورّع حين يرى على شارب الرجل أو لحيته شائبة أن يقول: كرّم شاربك. أو: كرّم لحيتك. دون مواربة ولا يرى في ذلك غضاضة، أمّا في السجن فإن رأى أحدهم قملة تسبح على صاحبه يقول له: انتظر لا تتحرّك. فيمسكها ثمّ يقول له: افتح

يدك. فيضعها له في يده، أو يزيل أيّ شائبة يراها بوجه جاره وعندما يتساءل: ماذا ترى ؟ يجيبه: لا شيء. أو يقول: جزء من محرمة. أو: ورقة. ولكن كم من إنسان ينكّت ويضحك أو يلقي محاضرة أو يقود جيشاً، وهو لا يدري ما يعلق بوجهه في تلك اللحظة، وكم من مراقب لها يتمنّى أن تقع بسرعة.

عاد عجلان إلى رفح بنفسيّة متفتّحة، كانت لهجته خليطاً من اللّهجة السوريّة واللّبنانيّة، ذهب لزيارة أبيه وإخوته، وفتح معهم صفحة جديدة، أخفق في مواصلة الدراسة، فذهب إلى مكتب العمل الفدائيّ، وقد استلم إدارته بعد استشهاد مصطفى حافظ فريق من الضبّاط ولكنّ عملهم تعثّر، وتراجع أداؤهم، واقتصر على جمع المعلومات عن مواقع العدوّ، ومنيت المجموعات في كثير من الأحيان بخسائر جسيمة، وانتاب أفرادها الشكوك، ألحّ عجلان في طلب التطوّع، ورجاهم لقبوله، ولكنّهم اعترضوا على صغر سنّه وقلّة خبرته في الأرض المحتلّة فقال لهم: أرجوكم أعطوني فرصة للتجربة، إن لم تقتنعوا بخبرتي أدخلوني مع مجموعة خبيرة، وأعود إلى الموقع الذي نصل إليه، وأحضر لكم علامة منه، ولم يبرح المكان إلاّ بعدما خرج الرقيب المسؤول من الباب وصفعه على وجهه، فانصرف مكسور الخاطر، ولم يعد إلى بيته في رفح من الخجل بل غادر المركز إلى العريش، وتطوّع في الحرس الوطنيّ، وأمضى في الخدمة سنتين، ثمّ سُرّح ورجع إلى رفح وتطوّع في جيش التحرير الفلسطينيّ، وخدم في سلاح الإشارة، ثمّ التحق بدورة الصاعقة، وكان مركز التدريب لهذه الدورة في جبل عتاقا قرب مدينة السويس غرب القناة، وتشاء الظروف أن يكون معه في نفس الدورة صديقه القديم في الدراسة جمعة العبيد، وعند عودتهما من الإجازة في إحدى المرّات، وكانا يركبان القطار، ويجلس في المقعد المقابل لهما رجل يرتدي ثوباً صعيديّاً، أمضى أغلب الوقت وهو مغمض عينيه، ولم يجلس بجواره أحد، أحياناً يفتح عيناً واحدة، إذا ما سمع حركة قريبة منه، وفي كلّ مرّة يفتح عينه فيها تكون مسلّطة بين رجلي جمعة، الذي ارتاب منه، وغمز عجلان بضرورة التزام الصمت، وفي إحدى مرّات يقظته ناوله عجلان سيجارة فأشعلها وعاد إلى نومه، وظلّ على هذه الحال إلى أن اجتاز القطار كبري القناة، فوقف فاتحاً عينيه على وسعهما، وأمسك بيد جمعة، فسأله جمعة عن

السبب، فقال: مصلحة، تفضّل معي. وأخرج من جيبه طرف بطاقة خضراء، فانقاد معه بسلاسة، وفي عربة صغيرة خالية، سأل جمعة: ماذا تخبّئ من مهرّبات بين رجليك ؟: لا شيء، أنا جنديّ لست مهرّباً. فطلب منه خلع بنطاله، فتمنّع بادئ الأمر، وقال له: أنت تذلّ اللّباس العسكريّ، اطلب لي الشرطة العسكريّة ! فأخرج بطاقة تدلّ على أنّه من المكافحة، فكّ جمعة الحزام ودلّى البنطال إلى أسفل، فشدّ المفتّش دكّة اللّباس، فهاله ما رأى، أطلقها وقال: يخرب بيتك، هذه بضاعة رجل أم حمار ! فعاد جمعة إلى مقعده ضاحكاً وهو يغلق حزامه، وحدّث عجلان بما جرى له في قمرة التفتيش، ولقّب بعدها بالحمار.

مرّ محمود العابد بعجلان وحيّاه: صباح الخير. فردّ عجلان: صباح الفلوس. فارتاب العابد من ردّه، وقدّر أنّه يذكّره بالمبلغ الذي استدانه منه قبل شهرين، فعرّج على بيته وأحضر المبلغ، وأتى به إلى بيت عجلان، طرق الباب فحين رأى عجلان العابد على الباب مقطب الجبين، ابتسم في وجهه، ناوله العابد المبلغ، فقال عجلان: والله ما قصدت أن أذكّرك به، وليس هو لي على بال، وقد قلت أحسن خير في هذه الأيّام النقود، ومن امتلكها استطاع إحضار ما يريد، لذا تمنّيت لك الفلوس في التحيّة. قال العابد: أنا أحضرتها منذ مدّة وكنت أنوي سدادها، وأنا بصراحة لا أحبّ الاقتراض، سمعت من أبي رحمه الله قوله: إنّ صرصوراً أتى يقترض من نملة حبّاً، ليأكل في الشتاء، فقالت النملة: أين كنتم أيّام الحصائد ؟ قال: كنّا ننظم قصائد. فقالت: عليكم بالشقوق يا علوق. أي التمسوا الحبّ الآن في شقوق الأرض أيّها الصعاليك، لأنّ كثيراً منه يسقط فيها إبّان الحصد، ومن يومها سكنت الصراصير الشقوق، وأنا سأبحث لي عن أرض أجد فيها لقمة عيشي.

كان العابد قد أُخذ مجنّداً مع الجيش البريطاني، واشترك في الحرب العالميّة الثانية في البلقان، واستطاع أن يعود من هناك متهرّباً ومحتفظاً بسلاحه، إلى أن ألقي عليه القبض من قبل كمين مصريّ، وهو عائد من الأرض المحتلّة، وكان يقود عجلاً أحضره من إحدى الحظائر، فجرّد من سلاحه واعتقل ستّة أشهر ثمّ أفرج عنه، وقّع على تعهّد يمنع بمقتضاه دخول الأرض المحتلّة من جديد، فاتّجه إلى كتب السحر والتداوي بالأعشاب، وعقد صفقة مع شاهر الأطرش ومحمد درويش ليمارسوا المهنة معاً، واختاروا نقطة البداية

جبل الطور في سيناء لظنّهم أنّ هذه المنطقة ما زالت بكراً، لم يطرقها الأطباء الجوّالون، تزوّدوا بما يلزم من أدوات وبخّور وأعشاب وشربات مسهّلة، وحملوا معهم ملخّصات لكتب ونماذج لحجب، وبعد أسبوعين من التنقّل والترحال طوّحت بهم الأقدار عند شيخ قبيلة هناك، عالجوا أثناء تجوالهم حالت كقلع الأسنان، وحالات مغص وإمساك كما عالجوا اليرقان بقشّاء الحمار، وعملوا لبخات لوجع الظهر والمفاصل من شروش القبّار، وكتبوا حجباً وصنعوا خلطات عسل وأعشاب لمن يريد الإنجاب، وعالجوا عاقراً بنبات الخامشة ولكن كلّ هذه المعالجات لم تظهر نتائجها بسرعة، وحتّى الان لم يخضعوا لاختبار صعب، استقبلهم الشيخ بتحفّظ لم يفتح لهم المجال كي يتحدّثوا مع الحضور، أو يلقوا محاضرات دعائيّة، كان يريد اختبارهم ليعرف مدى إمكاناتهم، أول ما ابتدؤوا بمعالجته عين رجل محتقنة، يسيل منها الدمع بغزارة، وسبق أن عرض عينه على أطبّاء مشهورين في القصر العيني بمصر، فتولّى معالجته شاهر الأطرش، حسّ بإصبعه عرقاً ينبض بشدّة قرب زاوية عينه الملتهبة، فبلّ رأس قلم الكوبياء بلسانه، ووضع نقطة على مكان العرق، ثمّ تحسّس أسفل الرأس في جورة الحراميّ ورسم علامة ضرب، غرز إبرة في بعرة بعير، ووضعها على الجمر، وحين احمرّت حملها بالبعرة، وكوى مكان العلامة الأولى على شكل دائرة صغيرة، وأعادها إلى النار، وشكّل بالكيّ هذه المرّة علامة ضرب صغيرة في نقرة الرقبة الخلفيّة، وتمّت هذه العمليّة مع العصر، وفي صباح اليوم التالي توقّف سيلان الدمع، ثمّ أخذ الاحتقان يزول تدريجيّاً، فأعطت معالجة هذه العين علامة جيدّة لهؤلاء الأطبّاء، والمعالجة الثانية كانت لظهر نسيب الشيخ، وكان قد وقع عن ظهر حصان، طلبوا إحضار تراب مبلول ببول النياق، وفردوه على كيس، وطلبوا منه أن يتمدّد على أن يوالي ظهره هذا العبس، كمروه بغطاء ثقيل، وأمروا بتغيير التراب كلّ ليلة، فشعر الرجل بتحسّن من اللّيلة الأولى، ثمّ حان الامتحان الأصعب، فعرض عليهم الشيخ ابنته الشابّة، وطلب منهم معالجتها من مسّ جنيّ، وبني لها بيت وعزلت فيه بناء على رغبتهم، فدخلوا عليها فرادى، كلّ واحد يحاول جاهداً إخراج الجنّي الذي تلبّسها، لكن حالتها ازدادت سوءاً، فخلعت ثوبها وانطلقت عارية من البيت، أمسكت بها أمّها ودثّرتها بعباءة، عندها انقلب الشيخ

من رجل طيّب مضياف هادئ إلى رجل قاسٍ متوتّر وقال: أنتم دجّالون جنّنتم البنت. فقال له العابد: انتظر، هذا شيء طبيعيّ أن تمرّ حالتها بهذا الطور، إنّه المقدّمة للشفاء، أعطنا فرصة لا تتعجّل، إنّ إخراج الجنيّ المتمكن ليس بالأمر الهيّن. ولكنّه لم يمهلهم، وطلب أن يوثقوا بالحبال، ولم يكتف بذلك بل جعل منامهم مقلب الرماد، وكبّ على رؤوسهم حثل القهوة، وباتوا تلك اللّيلة في أسوأ حال وبدون عشاء، ولم يتسنّ لهم التشاور إلاّ مع الفجر، حين ابتعد عنهم الحارس لبعض الشأن، قال شاهر بصوت خفيض: قرب الفرج، غفوت قليلاً فحلمت أنّنا في بئر، وأنّ طائراً ينتشلنا منها.

قبل بزوغ الشمس أشعل الشيخ النار، وحمّس القهوة، وضع رغيفاً في المحماسة على النار وسحن قليلاً من الملح في الهاون، وناول كلّ رجل ممن اجتمع عنده لقمة ساخنة مغموسة بالملح، وشرع في صبّ القهوة في الفناجين المصفوفة على الصينيّة، فجثم طائر قرب نارهم، حاول النهوض وصفق بجناحيه فسكب قهوتهم على النار وتبعثر ريشه، وأخذ ينعق، وكأنّه يصرخ في بوق، فدهش القوم وابتعدوا عنه حيث أخذتهم المفاجأة، وساد الهرج والمرج بين البيوت فأتت زوجة الشيخ واستجارت بالمسجونين المقيّدين، حلّت وثاقهم، ومسحت وجوههم، ومنّتهم الأماني إن أزاحوا هذه البليّة عن القبيلة، قام شاهر وغرف قليلاً من الجمر في المحماسة، وضع عليه البخور ونادى زوجة الشيخ قائلاً: نخلّصكم من هذا البلاء الذي حلّ بكم على أن نكمل علاج الفتاة، هذه إشارة لكم من ربّ العالمين لأنكم جرتم علينا بلا سبب، نحن نريد مصلحتكم، وأنتم أسأتم إلى ضيوفكم، والله سبحانه وتعالى أمر بإكرام الضيف، لا بحبسه جائعاً، وصبّ حثل القهوة على رأسه.

كرّرت زوجة الشيخ اعتذارها وأسفها، ووافقته على طلبه، فقرّب البخور من الطائر الجاثي، وتمتم بآيات وأدعية، وأدنى من الطائر ماء، فأدلى منقاره فيه، ثمّ نهض وطار في الجوّ، وظلّته تناءت إلى الغرب، وعاد الرجال الذين تفرّقوا، وواصل الفريق عمله في معالجة البنت، وقُدّم لهم الطعام، وفي اليوم الثالث تغدّى الجميع من طعام أعدّته بنت الشيخ، وقدّمته للحضور وفوقه كبش ناضج، واعتذر منهم الشيخ، واستسمح خاطرهم، ونفحهم ثلاثين جنيهاً وعادوا إلى بلادهم، ولم يشتركوا في العلاج بعدها، وكلّ واحد ركب رأسه.

سكن محمد درويش في كرم لوز قرب رفح، واتّخذ من بيته عيادة، وأصبح بعد رحلة سيناء أكثر جسارة، وتردّد عليه عجلان كثيراً وهو بين مصدّق ومكذّب من خبرة درويش، وطلب منه أن يعلّمه سرّ المهنة، ومعرفة الأبراج وحساب أرقام الحروف، وسأله عن معاني الطلاسم التي يذيّل بها الحجب التي يكتبها، ولم يتلقّ ردّاً مقنعاً، ووجده ينقلها من الكتب كما هي، وربّما نسي مقاطع منها، فضرب عجلان صفحاً عن هذه المهنة، ورأى أنّها غير مجدية، ولا يمكن الركون إليها، وعزّز من يقينه هذا وصول شابّ من سيناء يسأل عن درويش قريباً من مسكنه، وكان حسين النجميّ يستظلّ تحت شجرة لا تبعد عن بيت الشيخ كثيراً يفصله عنه صريف صبر، ويرتدي حسين ثوباً أبيض، سأله الشابّ: أنت الشيخ درويش ؟ فقال حسين: ماذا تريد منه ؟ قال: أريد أن أتعالج. أجابه: وصلت، وستشفى بعون الله. ناوله الشابّ خمسة قروش، فقال حسين: أنا الآن في فترة راحة، لا أعالج عد لي مع العصر. رأى حسين أنّ الشيخ قد خرج من بيته إلى السوق، وكان يريد أن يعود الغلام وهو في بيته ليرسله إليه، فقال الشابّ: قدمت من بلاد بعيدة، لا تفشّلني وقدّر تعبي. فقعد حسين مقطب الجبين يتصنّع دور الشيخ، أخذ ينظر في قطعة النقود، وكأنّه يقرأ كلاماً مكتوباً عليها، فسأل: أنت متزوّج ؟ قال: نعم. سأل: أعندك أولاد ؟ قال: يبعث الله. عاود حسين النظر في قطعة النقود وقلّبها في يده، وسأل: مضى على زواجك أكثر من سنتين، أليس كذلك ؟ فأجاب: نعم. تظاهر حسين بالغضب وصاح: يا لطيف.. يا ساتر.. عفوك يا ربّ. أمسك بتلابيب الشابّ وجذبه نحوه، وقال: أتريد خلفة ؟ قال: يجب أن تعرف ما أريد من قراءة الفضّ دون أن تسألني. تظاهر حسين بالغضب، وأخذ يحوقل وينفض يده كمن يرى أشياء مرعبة، وبرك على الشابّ، وأخذ يضربه ضرباً خفيفاً على ظهره بيده، وقعد يسأله: ماذا فعلت في حياتك ؟ كيف تجرؤ على أن تسأل الله أن يرزقك غلاماً، وأنت قد فعلت كلّ هذه الأعمال التي أراها ؟ ردّ المظالم إلى أهلها، واستغفر الله عمّا ارتكبت من معاصي، وتب توبة حلبيّة، اذبح خروفاً ووزّعه على الفقراء، ولا تقطع فرضاً، عسى أن ينظر إليك ربّك بعين الرحمة ويرزقك الذريّة الصالحة.

وتشاء الأقدار أن يأتي هذا الشابّ زوجته التي تحتضن طفلاً، ويقود خروفاً

للشيخ درويش، والغريب أنّه لم يلاحظ تغيّر وجهه وشكله، والشيخ درويش من كثرة ما يأتيه من أناس للمعالجة ظنّ أنّه قد عالجه في الماضي، لم يخطر بباله أنّ أحداً ينوب عنه، وحسين الذي داوى الرجل لم يحظ من الخروف بشيء.

أمّا العابد فعمل ناطوراً لبيّارة في غزّة، وزار ابنته المتزوّجة في سيناء، أثناء بحثه عن نبات السيكران ليداوي صاحب البيّارة من الربو، وقال لابنته: في البيّارة التي أنطرها البرتقال الذي يحتّه الريح يغطّي الأرض تحت الشجر، ولا أحد يكترث به، كنت أنوي أن أحضر كيساً منه لأبنائك، بلادكم هنا ناشفة. فقالت: لا داعي أن تتعب نفسك. فقال بصوت عال: أيّ تعب، اسكتي دعيهم يأكلوا. نظرت إليه متعجّبة، وقالت في نفسها، ينهر هكذا وهو لم يحضر شيئاً، فكيف لو أحضر لنا برتقالاً، ماذا عساه أن يفعل ؟ أظنّ أنّه حينها سيطردنا من البيت، أبي تغيّر كثيراً، لم يكن هكذا، الحمد لله لأنّ زوجي لم يسمع الحديث.

ذهب سلامة كعادته إلى الديوان بعد تناوله وجبة العشاء، شأنه شأن رجال القبيلة، الذين يزورون الديوان كلّ ليلة للتسامر والتشاور، كان يركب فرسه، ويسير مع طراوة اللّيل على بطين أضاءه القمر، والجوّ أمسى منعشاً، والأرض مكسوّة بلبش البطّيخ والذرة، خمدت النيران التي كانت تشعّ أمام البيوت في المنحنيات، وما زالت ندى زوجته تخضّ سقاءها، وطفلها الصغير نام في حضنها من حركة الخضّ، وناقتها تجترّ بعد أن شبعت من اللّبش وقشر البطّيخ، سمعت ندى صوت ناي من بعيد ينبعث من درب ورّاد الماء، يمكن سماعه بوضوح لسكون ليل الصحراء المطبق، صرّت ناقتها أذنيها، وركّزت نظرها إلى الشرق، قامت من مبركها، جفلت وانطلقت مسرعة إلى الغرب، توقّفت ندى عن الخضّ، قدّرت أنّ الناقة رأت ذئباً عادياً أو ضبعاً كاسراً، حرّضت الكلب: هرس هرس هربح هربح. فنبح نباحاً جادّاً متّصلاً، وقفز إلى الشرق، قالت: لو كان ضبعاً لخنس الكب وبال تحته. سمعت صوت كسر عود ذرة، رأت حين انبطحت على الأرض أعواد ذرة تهتزّ، مدّت يدها وتناولت البندقيّة المعلّقة على عمود الخصّ، نادت: من، أيش الزول ؟ وضعت أذنها على الأرض، فسمعت وقع أقدام على البطين المقابل لخصّها، وطبيعة الأرض هنا

شريط منخفض وشريط مرتفع، كان الخصّ في الشريط المنخفض، بينما تسمع وقع الأقدام في بطن الشريط المرتفع حيث تنمو الذرة مترعرعة، فزعت وأيقنت أنّه أمر جلل، حملت ابنها ووضعته في حفرة عميقة جنوب الخصّ، كانوا يخزنون فيها الحبّ والبزر، نادت من جديد: من أنت ؟ غُمر الخصّ بوابل من الرصاص، عوّص الكلب وسقط يتمرّغ في رماد النار، وعلى مخرج الشرر صوّبت ندى البندقيّة وأطلقت رصاصة، سمعت صرخة مكبوتة، ومن مكان آخر برق وميض الرصاص، فأطلقت رصاصة ثانية على هذا المكان، أُلقيت عليها قنبلة، فأطلقت رصاصة ثالثة، وزحفت إلى الحفرة التي وضعت ابنها فيها، ارتفع صوته بالبكاء، التهمت النيران الحظيرة والخصّ، وثغاء الأغنام يتردّد صداه في الوادي، ارتفعت ألسنة اللّهب، يتطاير شررها إلى كبد السماء، طلقات رصاص تسمع من بعيد، خنست ندى واستبشرت، قالت: هذه فزعة لي، هذا صوت بنادق ربعنا، أمّا الذين هاجموني فصوت بنادقهم يسمع صداه بعدما يثور، إنّه من بنادق الهاجانا.

وصل سلامة ومعه رجال مسلّحون، وتقاطر آخرون من نواحي مختلفة للنجدة، خرجت ندى من مخبئها، تعاون الجميع في دفن النار بالتراب، وأنقذت بعض الغنم، ساروا بالمقابيس مع آثار المهاجمين، وجدوا دماء وآثار جرّ أفراد، وضمّادات، وسمعوا دويّ هليوكابتر خلف الحدود التي لا تبعد كثيراً عن الخصّ.

في الصباح وصلت سيّارة للقوّات الدوليّة ومعها ضبّاط مصريّون، فأخذوا الرجل إلى العريش للتحقيق، وصادروا البندقيّة لأنها غير مرخّصة، واتّضح فيما بعد أنّ الإسرائيليّين أرسلوا في تلك اللّيلة ثلاث مجموعات، وضعت إحداها عبوّة ناسفة موقوتة انفجرت في محطّة القطار في رفح سيناء، وعادت دون أن يُكتشف أمرها، والمجموعة الثانية هي التي تصدّت لها ندى، أمّا الثالثة فأتت مع الجبل قرب الكنتلّة، وباغتت موقع متقدّم وقتلت من فيه وعادت.

(٢٦)

وصلت أنباء عن قدوم أحمد الشقيريّ إلى غزّة، فاحتشدت الجماهير على جانبيّ الطريق، التي سيمرّ منها الموكب، وأخرجت المدارس تلاميذها ذكوراً وإناثاً منذ الصباح، وظلّ الازدحام قائماً، والجماهير تتدافع، يحاول المدرّسون والعرفاء والشرطة إبعاد المندفعين على الطريق، لافتات وصور وأعلام ثقيلة ينوء تحتها أطفال صغار، وفرقة الكشّافة كلّما أحسّ قائدها أنّ النعاس والملل تسلّل إلى عناصرها طلب منهم قرع الطبول، اشتركت الشرطة بكافّة أصنافها ورجال الأمن في تنظيم الجماهير، والتحقت بهم فرقة الهجّانة السودانيّة بكرابيجها، والجماهير تهتف: عاش جمال عبد الناصر، مرّ القطار وأخذ يصفر مع الهتاف: تا تتاي تَتّتاتت. وعندما مرّت الدرّاجات الناريّة، علت العصيّ الظهور والرؤوس في محاولة منها لسلخ الجماهير الهادرة عن الإسفلت، وعلت أصوات منبّهات سيّارات النجدة، مرّ الموكب ولم يفطن إليه الكثيرون، في حين يجزم البعض أنّه رأى الشقيريّ ببذلة عسكريّة صفراء ملوّحاً بيده، وآخر يقول رأيت العجروديّ، وكثيرون قد التبس عليهم الأمر، وظلّ البعض ينتظر مرور الموكب، وما يظنّ الذين مرّوا إلاّ مقدمات له، ثمّ انسلّ الناس إلى دورهم تحدوهم البشرى باقتراب النصر، عندما رأوا القبضات تلوّح والحناجر تهتف:

يا شقيري الحال الحال هات سلاح وخذ رجال

تردّد عجلان على مستشفى البريج للأمراض الصدريّة لزيارة بنت عمّه فاطمة، كانت لطيفة مهذّبة أذبلها المرض، وزياراته لها أعطتها شحنة من الأمل، إذ أنّ الناس هنا يخافون الأمراض الصدريّة، وكلّ مرض منها يسمّونه السلّ، فدخول الإنسان إلى هذا المشفى ولو لفترة وجيزة، يحرمه من الزواج، ومخالطة الناس له تكون محدودة وعابرة، فيشعر المريض باليأس، ويتمنّى الموت عندما يرى الأقارب ينفضّون من حوله والأصدقاء يهربون منه ويتنصّلون من الالتزامات التي تجمعهم به، كان تعامل عجلان مع فاطمة مختلف جداً، يجلس بجوارها في حديقة المشفى، ويحضر لها الهدايا ويخرجها معه

في نزهات، وعندما سأل عجلان الطبيب عن حالتها، قال له: يمكنها الخروج في الشهر القادم، ومواصلة العلاج في البيت، وتراجعنا مرّة كلّ شهر لتظلّ تحت المراقبة لمدّة سنة.

نسجت فاطمة كنْزة صوف، قدّمتها إلى عجلان هديّة عندما زارها، وكان معها بطاقة خروج، ودّعت صاحباتها والطبيب المعالج والممرّضات، وقدمّن لها هديّة، وهي صورة تذكاريّة للمرضى والطاقم المعالج، تظهر فيها فاطمة وهي تناول إكليل ورد للمطربة صباح حين زارت المشفى، وأحيت حفلة فيه، سُرّت فاطمة من الهديّة، وحمل لها عجلان حقيبتها، وأخذها معه إلى رفح، ووضعها عند أخواله، وفي صبيحة اليوم التالي حضر أخوها من العريش، وعقد قران عجلان وفاطمة عند المأذون، وأقام لهما الجيران حفلة بسيطة، انفضّت بعد تناول العشاء، واستمرّ عمله في الجيش، وكان لديه تصريح مبيت، ولا يتخلّف عن الحضور مساء إلاّ ليلة مناوبته، ولكنّه ملّ من رتابة الدوام في الجيش، عندما سُلّم بطاقة للتجديد أو لإنهاء الخدمة، آثر إنهاء الخدمة، وبدأ يفكّر جدّياً بعمل بديل، ولم يتوقّع هذا الملل الذي أصابه بعد خروجه من الجيش، ولم يتمكّن من إيجاد عمل مناسب ولو بأجر زهيد، قام برحلة إلى العريش مصطحباً زوجته لتزور أخاها، فباغتها مغص، وأخذت تتلوّى، وتغرس يديها في الرمضاء، تتدثّر بغطاء ثقيل وهي تحت الشمس الحارقة، قالت امرأة أخيها لعجلان: لا تكترث إنّه أمر طبيعيّ يحدث لبعض النساء شهريّاً اذهب لشغلك، التقى به نمير الأزرق الذي خرج من السجن للتوّ بعد أن اشترك مع آخر في سرقة ناقة، عرض عليه عجلان التهرّب إلى ليبيا، والعمل هناك، فراقت الفكرة لنمير لأنّه يريد التواري عن أنظار الناس، الذين ما انفكّوا يسألونه: كيف تبات عند نسيبك وتتعشّى عنده، وتسرق ناقته، كيف تبوق العيش والملح، ألم تخش قصّ الجرّة، وكيف قطع صاحبك بها هذه المسافة في ليلة واحدة ويبيعها بهذا المبلغ الزهيد ؟

عاد عجلان إلى بيته في المخيّم، وعادت معه زوجته التي لم يناسبها المكوث في العريش لشظف العيش، فهي اعتادت حياة مرفّهة في المشفى، وكذلك كانت غرفتها في المخيّم مريحة ومرتّبة، أخبر عجلان ابن خالته غسّان بفكرة السفر، وافقه على الفكرة وأبدى رغبة في مرافقته، ولكن عجلان اعترض قائلاً: أنت ما زال المستقبل أمامك، تعيش

مع أسرتك، وغداً تحصل على الثانويّة العامّة وتلتحق بالجامعة، وتشقّ طريقك في الحياة بأسلوب جدير بالاحترام، والمرء لا يجازف أو يركب المجهول إلاّ إن أيقن أنّه لن يؤول إلى حال أسوأ ممّا هو عليها.

تزوّد كل من عجلان ونمير بشهادة تعريف من مختار في العريش تفيد بأنّ حاملها مصريّ الجنسيّة، وركبا إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندريّة، ثمّ توجّها إلى مرسى مطروح، وهناك تجوّلا في السوق واشتريا نقوداً ليبيّة، دخلا مطعماً فأحضر لهما حساء، غرف نمير الحساء بالملعقة، وأمال رأسه ليتفادى انسكاب الحساء على ملابسه، وأفرغه في فمه، فسلق لسانه وفمه، فمجّه تحت الطاولة، فألقى بالملعقة وقال: لعنك الله لا تنقلين أخباراً أبداً. وأخذ نمير يغطّ اللّقمة في الشوربة ويأكلها، فضحك عجلان، وتذكّر المثل: عسّ الماء بشارب غيرك. وحدّثه: دخل معنا دورة الصاعقة مجنّد، وُزّع على كلّ واحد منّا رغيفان جافّان وصحن طبيخ عدس، فأمرنا أن نتناول الطعام، وبعد دقيقة طلب منّا التوقّف عن الأكل، وتفقدّ المدرّب الأكلة، فلاحظ أنّه لا يوجد أمام المجنّد سالف الذكر طعام، وكان سبب تفقّده لمعاقبة البطيء في الأكل، فسأله: أين طعامك ؟ قال: أكلته. فتعجّب من ذلك ولم يصدّقه، طلب من الطبّاخ إحضار حصّة جديدة له، وعلى الفور ألقى بالرغيفين الجافّين في صحن العدس، وعندما سمع الإيعاز بالأكل جرف الثريد إلى جوفه، في أقلّ من دقيقة والمدرّب ينظر، فأخذه إلى قائد المعسكر وعلّق على كتفه شريطاً. خرجا إلى الساحة الخارجيّة للمطعم لشرب الشاي، فتقدّم منهما شابّ نحيف أسمر، طرح عليهما السلام، واستأذنهما في الجلوس معهما على الطاولة، وأحضر له النادل كوب شاي، فقال: أراكم هنا لأوّل مرّة، وأنا من أولاد عليّ، ورأيتكم تبدّلون نقوداً ليبيّة بمصريّة، وأنا دليل إن أردتما أوصلتكما بأمان إلى مساعد، وإن شككتما في أمري فليقم أحدكما ويسأل صاحب المطعم إنّه ابن عمّي. فقام عجلان ودفع الحساب لصاحب المطعم وسأله عن الشاب الجالس على طاولتهما، فقال: إنّه ابن عميّ وهو رجل صادق، وهو دائماً يأخذ عمّالاً إلى ليبيا ولم يشتك منه أحد، وإن رأيتم منه قصوراً ارجعوا إليّ.

استأنس عجلان برأي صاحب المطعم، عاد إلى الدليل واتفق معه على الأجر

وخطّة السير، أحضر لهما سيّارة تيوتا يقودها قريب له، ركبوها وسارت بهم إلى الغرب تجاه السلّوم ثمّ انحرفت جنوباً، وشاهدوا على ضوء القمر وهم في السيّارة عشرات العمّال المصريّين يسيرون في محاذاة الطريق، لا يحيدون عنها قيد أنملة خشية الضياع في الصحراء، نزلوا من السيّارة واجتاز بهم الدليل أسلاكاً شائكة من ثغرة يعرفها تماماً، مرّ من حقل ألغام يعود إلى الحرب العالميّة الثانية، واجتازوا المنطقة الخطرة وتوغّلوا في الأراضي اللّيبيّة، رفع عقيرته بالغناء:

ما نْظِرِنْ زُوْل حَبِيبْ الْهِنْ أيّام في أيّام يا عَلَمْ

ظلّ يعيد ويزيد في هذا البيت، وهما لا يفهمان غناءه، مرّة واحدة سمع عجلان هذا اللّحن من جندّيّ من أولاد عليّ، كان معه في موقع في دير البلح، فطلب عجلان من الدليل إعادة البيت كلمة كلمة وتفسير معناها، فقال: هذه كلمات واضحة، أي عيناي لم تر المحبوب منذ أيّام بعيدة، وأعاده ملحّناً: أيّام في أيّام يا علم..أيّام في أيّام يا علم. حفظ عجلان الأغنية وشيئاً من لحنها واعتبر أن ذلك فألاً حسناً ونصراً مؤزّراً، وعندما غيّر الدليل اللّحن وغنّى:

سيلي كان الدمع يردّه دار العيب عزيز وعدّى

لكن راهو يا عين الدمع ما يرجّع غايبين

طفرت دمعة من عين نمير الأزرق، تذكّر بكاء أمّه العجوز وزوجته وطفله حين همّ بالسفر، فأضمر في نفسه نيّة العودة إلى سيناء، ينتظر فقط الفرصة المواتية، في قرية مساعد أعطى عجلان الدليل أجرته، وركب ورفيقه سيّارة شاحنة إلى طبرق، نزلا عند ورشة بناء، فأخذهما أحد العمّال إلى السوق، واشترى لهما فرشتين وحرامات وأدوات منْزليّة، وباتا تلك اللّيلة في الورشة في إحدى الغرف الجديدة، وفي الصباح باشرا العمل على الجبّالة، ويا لها من جبّالة، تلتهم الرمل والإسمنت والحصى والماء ولم تكد تشبع!

وصل موكب الملك إلى طبرق تسبقه الصافرات والدرّاجات الناريّة، وحشدت الجماهير الغفيرة على الأرصفة، وبدأت الهتافات، انضمّ عجلان إلى الحشود الهادرة، وقف شعر رأسه من الحماس، همس صاحب الورشة في أذنه: هؤلاء يصفّقون مع الواقف،

اليوم تسمعهم يقولون:

مرحبتين بسيدي إدريس تريسك ما الله تريس

وبالأمس القريب أنشد هذا الرجل الأحمر موسوليني في طرابلس:

مرحبتين بكازي رومة من غيرك ما فيه حكومة

فعلّق عجلان: يعني من يأخذ أمّنا هو عمّنا، فقال: كفّك. فتح عجلان كفه ودقّ عليه الرجل بكفّه.

كان المقاول متعهّد البناء يعامل عمّاله معاملة طيّبة، يسلفهم ما يحتاجونه من نقود، يؤمّن لهم المسكن، وهو ميسور الحال، يملك سيّارات وآليّات، استغرب عجلان من أنّ لهذا المقاول شقيقاً فقيراً بائساً، وحين رفعت التكلفة، وسادت بينهما الألفة سأله وهم في استراحة الغداء: لماذا لا تساعد أخاك، وأنت رجل كريم تساعد الغرباء ؟ فقال: أخي هذا راقد ريح، مهما يحز من مال فإنّه يبزعقه، انظر ها هو قادم. فأخرج المقاول حافظة نقود من جيبه، وطرحها على طريق أخيه وقال: إن رأى هذه النقود فهي له. وقبل أن يصل إليها بأمتار، نادى مخاطباً الجلوس: إذا أتيتكم وأنا مغمض عينيّ ماذا تقولون عنيّ ؟ فقال أخوه: فارس. فأغمض عينيه وسار إلى أن بلغ الجلوس متجاوزاً الحافظة، فتعجّبوا من ذلك، ولم يصدّق بعضهم ما رأت عيناه، وظنّ آخرون أنّها خطّة بين الأخوين.

ركب عجلان مع المقاول الذي أراد تفقّد ورشة في رأس الهلال، وبعد أن وصلت السيّارة إلى درنة مجتازة أرضاً صفراء تحاذي شاطئ البحر يتلألأ فوقها السراب ثمّ اتّجهت إلى الغرب، فوصلت إلى وادي الناقة، فشاهد عجلان الأشواك المترعرعة على ألسنة النتوءات التي تشرف على البحر، لا بدّ أنّ النياق كانت تفضّل رعي هذه الأشواك، وإلاّ لما سموّا هذا الوادي باسمها، وكلّما اتّجهوا إلى الغرب علا الجبل وغطّته الأشجار دائمة الخضرة كالبلّوط والبطم والشماري والزيتون، وصلوا مع طريق شقّه الطليان بمشقّة إلى كرسة، هذه البلدة الصغيرة التي تلفّها الأشجار، ويحتضنها البحر، وتجاوزوها إلى واد ظليل تترقرق فيه المياه العذبة الباردة، فقال المقاول: هذا وادي مرقص صاحب الإنجيل المعروف، سبحان الله، سار هذا الحواريّ في بقاع الأرض، ولم يطب له المكوث إلاّ

في هذا الوادي. وكأنّ هذه الجبال السامقة والأودية السحيقة والغابات الكثيفة والبحر اللاّمتناهي، كلّ هذه الآيات تدل على عظمة الخالق، ويرى من يسكن هنا أنّه قريب من الله، فيناجيه ويتبتّل إليه، ثمّ تجاوزوا الوادي إلى أن اقترب لسان الجبل كثيراً من الماء، ثمّ أوقف المقاول السيّارة، نزل وفتح كفيّه وقرأ الفاتحة، وحذا حذوه مرافقوه، فسأل عجلان عن سرّ ذلك، فقالوا له: هنا مقبرة إسلاميّة، انظر هذه العظام، من هنا سار المسلمون الأوائل الفاتحون محاذين للبحر، ليتفادوا وعورة الجبل ومتاهات الصحراء، وكان الفرنجة يربطون لهم الطريق، عند هذا المضيق ويهاجمون القوافل الإسلاميّة المضناة من السير الطويل، والفرنجة مرتاحون بسفنهم في البحر، يكمنون هنا ويهاجمون من البحر والجبل هذا الممرّ الإجباريّ الضيّق، ثمّ فطن لهم المسلمون، فأقاموا نقطة دائمة لهم هنا، وكذلك في كلّ الأماكن الاستراتيجيّة، فحالوا دون مهاجمة الفرنجة لهم ومفاجأتهم، ثمّ وصلوا إلى الأثرون واستغرب عجلان اسمها، أوقف السائق السيّارة في ساحة القرية، وسأل عن إمكانيّة وجود عمّال هنا لتعزيز ورشة رأس الهلال، فركب معهم ثلاثة عمّال، ساروا قليلاً فشاهدوا البحر يشكّل هلالاً لامعاً لدخول الجبل فيه، وبدأ العمل وكان أحد العاملين مدرّساً من نابلس، قضى معه عجلان ساعات طويلة وهما يتسامران، سأله عجلان: عن مدى صحّة عمّا سمعه من أنّ أهل الكروم المحيطة بالمدينة يطلقون الضيف على كرم التين، فضحك عزيز وقال: نعم، عندهم الفواكه كثيرة في موسمها، وإن نزل بساحتهم ضيف يقول الرجل لأحد أبنائه: خذ الضيف في جولة ليتمتّع بمنظر الأشجار، ويأكل بعض الثمار. وكان قد أوصاه أن لا يعد به إلى البيت إلاّ إن رآه يفتح حبّة التين، وينظر بداخلها قبل أن يأكلها ليتأكّد من خلوّها من الدود، وهذا يدلّ على شبعه من التين، فيوفّر الخبز والطعام، ضحك عامل ليبيّ كان يشاركهم المنامة في الخيمة، وقال: عندنا قصّة مشابهة إذ أتى ضيف وابنه إلى بيت قبل موعد الغداء، فلم يجدا الرجل فقدّمت لهم المرأة اللّبن المخضوض، فشرب الولد حتّى امتلأ، بينما لم يشرب الرجل إلاّ قليلاً وحين عاد صاحب البيت سأل زوجته ليطمئنّ مكنياً: ربطت الحمارين أم لا ؟ فهمت مراده وقالت: ربطت الجحش، أمّا الحمار فلم أتمكّن من ربطه. فقال ليبعد الشبهة: أخشى أن يأكل لنا الزرع.

لقد تعجّب عجلان من أمر عزيز، فإنّ أغلب الناس الذين قابلهم في حياته يتحدّثون عن بطولاتهم وانتصاراتهم، وغالباً ما يقلبون الحقائق، ويحوّلون الهزائم إلى انتصارات، أمّا عزيز فكلّ القصص التي يرويها عن نفسه يكون هو الضحيّة، وهو المغفّل الذي خُدع، وحديثه له مفعول السحر لدى السامع، وهو مُصدّق بالطبع، إذ لا يعقل أن يقصّ الإنسان قصّة طويلة يبيّن فيها مدى غبائه وسذاجته، والمألوف لدى المحدّثين أن يغفلوا المقالب والمطبّات التي وقعوا فيها، أو ينسبونها إلى غيرهم، ويتنصّلون من تبعاتها، أو قد يغيّرون مجرى الأحداث لمصلحتهم، ولم يجد عجلان أحداً ممّن قابل عزيز إلاّ ووصفه بأنّه في منتهى الصراحة، وقد يتحمّس السامع لقصصه ؛ لأن يذهب إلى المواضع التي أُهين فيها لينتصر له، فيأخذ له حقّه ويردّ إليه اعتباره، في المطار يُنْزلونه من الطائرة رغم أنّه قد حجز وحجزه مؤكّد، ليركبوا رجلاً بدلاً منه لم يحجز من قبل، وتضيع حقيبته بعد أن جُمركت أغراضه، وفي العاصمة التي عاد إليها تسلب منه حقيبته وفيها جواز السفر والشيكات، والبيت الذي اشتراه ليس قد بيع لآخر، حتّى إنّه حين عمل مدرّساً في قرية نائية في الشرق، وكُلّف بأن يؤذّن في مسجدها قسراً، فيعتلى المئذنة في الهاجرة ويرفع الآذان تحت أشعّة الشمس المحرقة، لم يكن يحفظ الآذان بل حفظه من كتاب الديانة للصف الثاني الابتدائي، وكان قد رأى في حيّه أنّ المؤذّن يدور على المئذنة ليسمع السكّان المحيطين بالمسجد في الجهات الأربع، حيث لم يكن هناك مكبّر صوت، فدار عزيز حولها هنا تقليداً لشيخ بلده، وعندما نزل ليصلّي مع الناس في المسجد، قابله رجل من السكّان المجاورين للمسجد، وصفعه على وجهه قائلاً: لماذا تدور على المئذنة ؟ فأسقط في يده، ولم يحر جواباً، إذ أنّه ليس على دراية بالفقه، وفاجأته الصفعة وأضاعت منه المنطق والحجّة، إذ كان يتوقّع أنّ الناس يتبرّكون منه عند نزوله، أضاف الصافع: أنت ليس همّك الآذان بل همّك النظر إلى الحريم. فصعق عزيز، وقال: سامحك الله، والله لو أُفصل من الوظيفة لن أؤذّن مرّة ثانية في هذه القرية. وسأله عجلان: وهنا إن شاء الله لم تتعرّض لمشاكل ؟ فأجاب: المشاكل لا بدّ منها، اشتريت سيّارة وسجلّتها باسم صديق مواطن، فقال: أخاف أن تعمل بها حادثاً وأسجن، أو تُسرق من عندك ويُهرّب فيها، وأتحمّل المسؤوليّة، لذا فأنا

مضطرّ لآخذها عندي وإن احتجت إلى مشوار نوصلك. وبعد جدال طويل وتوسّط أهل الخير تعهّد بأن يدفع لي ثمنها على دفعات عندما تتوفّر لديه سيولة، ونهّق يا كديش حتّى يأتيك الحشيش. فضرب عجلان كفّاً على كفٍّ، وأضاف عزيز: أكثر ما يحرج المرء هنا أنّ بعض الألفاظ الدارجة على أنّها ألفاظ رزينة ومحبّبة تقابل باستهجان هنا إلى درجة العيب، ولكن بعض العادات هنا جديرة بالاحترام، فمثلاً لا تجد سائقاً يفتح المذياع أو المسجّل على أغنية ما دامت امرأة تركب في السيّارة، أو رجل وابنه أو شقيق وشقيقه، أمّا في بلاد الشرق فلا يبالي سائق الأجرة من فتح المذياع أو وضع شريط أغنية ماجنة ولو كان كلّ ركّاب السيّارة من الإناث، والملفت للنظر تشابه الجبل الأخضر بأحراش يعبد الذي اتّخذ منه الشيخ القسّام قاعدة انطلاق لمقاومة الإنجليز، وشجر الشماري هذا يسمّونه هناك القيقب، ولعلّ اسم بلدة القيقب القريبة من البيضاء جاء من اسم هذا الشجر المحيط بها.

قام عمّال الورشة التي يعمل فيها عجلان برحلة، دفع كلّ واحد سهماً من التكاليف، وذهبوا إلى منطقة ظليلة جميلة، تولّى إعداد الطعام اثنان منهم في حين تفرّغ الباقون للتحدّث أو التجوّل في الغابة، ولعب البعض الورق، كلّ عمل على مزاجه، والشخصان اللّذان يقومان على الخدمة هذه المرّة لا يمتنّان على أحد بل يقومان بعملهما عن طيب خاطر، ويجدان في ذلك متعة، وهم يعفون من لا يجيد صنع الطعام من هذه المهمّة، ويوكل إليه أمر ما كإحضار الحطب أو غسل الأواني بعد الاستخدام، فأُعجب عجلان بنظام الرحلات عند اللّيبيّين، وأكثر ما أدهشه الطريقة التي اتّبعوها في إنضاج اللّحم، إذ حفروا حفرة ووضعوا فيها جذول الحطب، وأشعلوا فيها النار، وحين استحال الحطب إلى جمر وضعوا اللّحم مملّحاً مبهّراً في الحفرة فوق الجمر، ووضعوا فوقه أغصان نبات الإكليل العطرة لتطييب رائحته ووقايته من التراب ثمّ طمروه بالتراب، حريصين على أن لا يخرج الدخان من منفس مهما كان صغيراً، بعد ساعة أخرجوا اللّحم ناضجاً لذيذ الطعم، وبدأت الوليمة فقال فرج لعجلان: كيف تجد لحم الزرب ؟ فقال: بالفعل لذيذ. وأحسن ما رأى في توزيع اللّحم نظام الحقّة، إذ يُقسّم اللّحم على الحضور، يُعطى كلّ واحد حصّته، وتقسّم الحصص بالتساوي، وبإمكان المرء أن يطلب تغيير قطعته، إذ تبقى قطع احتياطيّة، وهذا

يمنع استئثار الجشع أو استحياء الحيّي، وأذهله أنّ حصّة أحدهم كانت لحم كتف الخروف الذي ذبح، فأكل لحمها وبقيت لوحة الكتف في يده وهي عظم رقيق من أعلى مثلّث الشكل، فرفعه إلى عين الشمس ونظر فيه، فهزّ رأسه، فسأله أحدهم: ماذا ترى ؟ فقال: للأسف الشديد أرى قبراً. فسكتوا جميعاً، ولم يمض يوم على الرحلة حتّى مات الرجل الذي ذبح الخروف في حادث سير، وحضر جميع أعضاء الرحلة الجنازة، وعلّق فرج على الحادث بقوله: إنّ الخطر الداهم الذي يهدّد اللّيبيّين يتمثّل في حوادث الطرق الناجمة عن السرعة أو النوم أثناء القيادة خصوصاً في رمضان، وافقه مدير المشروع وأضاف: زرت مستشفى طرابلس وحدّثني جريح هناك فقال: كنّا نركب سيّارة ستروين أجرة، وكان مؤشر السرعة مغلقاً، وكنّا نجتاز منطقة سرت في طريقنا إلى طرابلس، شاهدت على ضوء السيّارة في الظلام وكأنّنا سنمرّ من تحت جسر نصب فوق الطريق، هذا آخر مشهد رأيته، وإذ بي أفيق لأجد نفسي على سرير في هذا المشفى، وفمي مملوء بالرمل والوبر، فقيل لي لاحقاً إنّ الجسر الذي رأيت ما هو إلاّ بعير أعجبته حرارة الأسفلت، وإنّ جميع من في السيّارة قد فارقوا الحياة، أمّا أنا فانظر جثّة هامدة فالموت خير لي. واستغرب عجلان أنّهم في بيت العزاء يلعبون السيجة والورق، ويتندّرون بالطرف، فحدّث الحضور سائق بصوت جهوريّ فقال: عاد معي راكب أعور من مصر، وأنتم تعرفون طباعنا، نحن نقول للأعور أعور في عينه، كما نقول للأعرج أعرج، ولمقطوع اليد أقطع، ولا نرى غضاضة في ذلك، ونعوّد أصحاب العاهات على هذه الصفات منذ الصغر فلا يخجلون منها إذا كبروا، ولا يجدون حرجاً عند مناداتهم في الكبر، وعندما زار هذا الأعور مصر، ومكث هناك شهراً كاملاً، لم يسمع أحداً يناديه يا أعور، إنّما ينادونه: يا باشا، يا بيك، يا فندم، يا سيّد، إلى ما هنالك من صفات وألقاب، فنسي كلمة يا أعور، وظنّ أنّ المصريّين لا يعرفون العور، وعند نقطة الجمارك اللّيبيّة وقف هذا السائح العائد إلى بلاده، واستعرض شريط الرحلة التي قضاها في مصر، يندم على أفعال اقترفها ويُسرّ من أفعال قام بها، عندها كان شرطيّ الجمارك يسأل عن صاحب الشنطة التي بين يديه ليفتّشها وعندما لم يجب أحد، إذ أنّ صاحبها شارد الذهن، فرآه الشرطيّ واجماً غير منتبه فناداه: أنت يا الأعور، أهذه شنطتك ؟ فزام

هذا المسافر، وأنّ أنيناً ممطوطاً وقال: رجعت للّذين يعرفونك يا الأعور.

وحدّث آخر: اشترى مفتاح المنفي سيّارة من درنة، وقد مرّنه ابن عمّه على القيادة، فساقها من الكيراج واضعاً الغيار الأوّل، وصعد عقبة درنة وهي على الغيار نفسه، وحين وصل مرتوبة وسهلت الأرض ضغط على دعّاسة البنْزين فأسرعت السيّارة وهي ما زالت على الغيار ذاته، فأخرج رأسه من النافذة، وسمع ضجيج المحرّك أكثر فانبسط، وتذكّر الأيّام التي قطع فيها هذه المسافة حافي القدمين، فقال: ضجي يا أيّام ضجّي. فضحك الحضور، وعلّق أحدهم: ما أظنّه قد وصل إلى أمّ الرزم إلاّ وقد أفنى المحرّك.

أمّا الرجل الذي قدم من واحة جغبوب فقال: رقي بخيل نخلة وشدّ وسطه بحبل إلى جذعها، وأخذ يجني البلح في قفّة، مرّ من تحته غلام، وناداه: يا عمّ ارمِ لي بلحاً. وظلّ يردّدها، والرجل لايعيره أدنى اهتمام، ولم يعبأ به، وظلّ الرجل يجمع والغلام يسأل، فأراد الرجل أن يغيّر مكانه ليجرد قنواً يبعد قليلاً عن الأوّل، فوقع عن النخلة، فأجاب الغلام: جاك عمّك والبلح.

اصطحب فرج رزق عجلان إلى سوسة، فأعجبته تماثيلها، وكان أغلبها بلا رؤوس، فقيل له إنّ الأجانب الذين استعمروا هذه البلاد عجزوا عن حمل كلّ المنحوتات لكثرتها وثقلها، وغالباً ما يكتفون بأخذ عيّنات كاملة منها، ثمّ يقصّون الرؤوس ويحملونها معهم ويتركون بقيّة الأجسام، صعدت سيّارتهم إلى بلدة شحّات فشاهد عجلان البيوت المنحوتة في الصخر، فتذكّر البتراء والسلع وكانت الطريق الصاعدة متعرّجة ضيّقة حادّة، فاحتكّت سيارة أمامهم بسيّارة نازلة، توقّف السير وتجمهر الناس، وأخذوا يقولون للسائقين: الحمد لله على سلامتكم، مليح أنّ الضربة جاءت في الحديد. وإذ بأحدهما يقول: يا ليتها في ولا في الحديد، فأشفق عليه صاحب السيّارة الأخرى وقال: لا يكن لك فكر هيّا إلى الورشة، سأبدّل لك هذا الجناح المشحوط على نفقتي.

وأخذ فرج عجلان إلى مغارة في وادي ستوّة، وقال: هذه المغارة التي دُفن فيها الشهيد المجاهد يونس أبو كفيفة الحاسيّ، لقد أقضّ يونس مضاجع الطليان وظلّ متمركزاً في كهوف وأودية الجبل الأخضر الوعرة، كان يعرفها جيّداً لأنّه رعى فيها الأغنام، وجمع

الحطب وصاد النيص، وظلّ يتردّد على بلدة سوسة وشحّات، إنّ وعورة الجبال وكثرة المغر وصعوبة المنحدرات والأشواك التي تملأ الأودية، وتعيق الحركة، وندرة الطرق المعبّدة، كلّ تلك الأسباب جعلت من الجبل الأخضر ملاذاً هامّاً للمجاهدين، الذين معظمهم من أبناء البادية، يتدبّرون أمر غذائهم ولو من ثمار الشماريّ والبطم، يعرفون نباتات الأرض ومواسمها وحيواناتها وحشراتها، يأكلون النيص والعصافير والجراد، يتداوون بالأعشاب والخرت والكيّ، إن جاعوا هاجموا قوافل ومعسكرات الغزاة وسلبوا منها السلاح والطعام، كانوا يفيدون من الصراع القائم بين الإنجليز والطليان، فعندما تشنّ الطائرات الإنجليزيّة غارة على مواقع الطليان يسرع إليها المجاهدون، ينهبون البنادق والدقيق وعلب الطون، فيقول حاديهم:

خلّيه يدن طيبك دنّان مليت البيت دقر طليان

ويقول آخر: خليّه يدن عقابه خير دقيق وتن

وكان يونس أبو كفيفة يحذّر القائد الطليانيّ بياتّي من عاقبة استمرار احتلاله للجبل الأخضر فيقول:

يا بياتّي صعب عليك سكونه خيط الجبل ياما تعاني دونه

وكان الثوّار في الجبل على اتّصال بالمجاهد عمر المختار والتنسيق معه، واعتقل ذات مرّة رجل من أصحاب يونس، ومن التحقيق معه استطاعوا حصر المنطقة التي يكمن فيها يونس، حاصروها وأحكموا عليها الطوق، فالتجأ يونس إلى بئر رومانيّة قديمة، فحدّدوا مكانه وأحضروا ابنته، وأمروه بالخروج والاستسلام، إنّهم كانوا يريدونه حيّاً ليقتلوه أمام الملأ، وعندما رفض الخروج أنزلوا ابنته عنده بالحبل إلى قعر البئر، فأيقن يونس بالهلاك، فخاطبهم قائلاً: إنّني أريد الاستسلام ولكنّي لا أثق إلاّ في القائد بالتّو، أحضروه كي استسلم له. وافقوا على طلبه، واستدعوا هذا القائد السفّاح الذي فرح بهذا الصيد، وأخبر يونس بوصوله، فقال: أنا لا أصدّقكم دعوه يبرز لي وجهه لأراه فأنا أعرفه. فما كان من بالتّو إلاّ أن أطلّ برأسه في البئر طالباً من يونس الاستسلام، وإلاّ فإنّه سينسف البئر، صوّب يونس البندقيّة إلى رأس الضابط وأطلق رصاصة، فارتطم رأسه بخرزة البئر،

فسحبوه بعيداً، ألطأ يونس ابنته في تجويف البئر وغطّاها بجسده، فألقى الطليان القنابل والديناميت داخل البئر، وأطلقوا زخّات من الرصاص وانسحبوا، لأنّ الوقت أدركهم، وأوشكت الشمس على المغيب، حيث يمسون فريسة سهلة للمجاهدين الذين يتأهّبون لفكّ الحصار عن يونس تحت جنح الظلام، نزل المجاهدون إلى البئر بالحبال، وما تزال رائحة البارود تزكم الأنوف، فوجدوا يونس يمسك أمعاءه بيديه وهو مثخن بالجراح، في حين كانت ابنته تنظر إليه باكية لفوّه ببطّانيّة وعصموها بالحبال، ونشلوه إلى خارج البئر، وأخرجوا ابنته وحملوهما على ظهر بعير إلى هذا الوادي، ووضعوه في هذه المغارة، أشعلوا النار وأحضروا معالجاً في محاولة لإخراج الشظايا، وتقطيب الجروح وتجبير الكسور، فقال يونس لابنته التي لم تتجاوز الثامنة وهو يغالب خروج الروح: اذهبي يا ابنتي مع عمّك هذا إلى بيت خالتك. فقالت: لا، أنا سأظلّ عندك لأطمئنّ عليك وأخدمك. فردّ:يخدمني هؤلاء الرجال وهم يخجلون منك، هيّا سيحضرونك لي غداً. وما أن أُخرجت مرادة من باب المغارة حتّى نصب يونس سبّابته اليمنى وأسبل رموشه، فعلت أصوات تردّد: لا إله إلاّ الله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وصلّى عليه الحضور صلاة الجنازة، وسمعت أصوات المعاول والفؤوس وهي تحفر التراب الأخضر، ولفّ جثمان الشهيد ووري الثرى، أبصر عجلان الخفافيش تتدلّى من سقف المغارة.

وفي المساء أثناء رحلة العودة إلى رأس الهلال أطلع فرج عجلان على الأماكن التي كان يرتادها رومل، وكان الناس معجبين بشجاعة الألمان، فهم يواصلون لعب الكرة حين تمرّ من فوقهم طائرات الإنجليز، ولا يكترثون بها بعكس الطليان الذين يفرّون عند مرورها ويختبئون في الملاجئ، وقال فرج: أسماني أبي بهذا الاسم على اسم المجاهد الشاعر فرج القبائلي، الذي وصف المعاناة والقهر والموت، فقال مخاطباً طائراً وهو في سجنه بطبرق:

يا طير ماشي لجبلنا قول لاهلنا رانا صفنا وتذيبلنا

كما وصف المعتقلات الجماعيّة في العقيلة والبريقة وبرسس، وكيف أنّ الطليان حشروا الناس في هذه المعتقلات مع غنمهم ودوابهم، فتفشّت الأمراض، وداهمهم الموت:

بالخمسين وبالستّين يموتوا منّا كلّ نهار

ويصف بكاء طفل من الجوع:

بكى وايس جاع تجظمر رقد لنصّ اللّيل وثار

نصب نوحة قامت له الام خليعة كبايدة الدار

ضجيجه من حرّ الجوع مخلّف في وجهي نوّار

قصصها عالسهراي تعيب بريقة فيها ياما صار

كما وصف رحلة اعتقاله ونقله إلى إيطاليا، وكانوا يعصبون عيون الأسرى، ولم تفكّ عنها الأربطة إلاّ بعدما توغّلت السفينة في عرض البحر، فوقف فرج محاولاً رؤية الجبل الأخضر فلم يبصر وبكى:

غلبني دمع العين بكيت بعد صبيّت نريد جبلنا ما عاد ريت

غلبني دمع العين وسال وزدت هبال بعد فتنا المرسى بأميال

بجاه ال يزوروه بالبيت و باستعجال يجي عفوه ع الناس إكمال

عند عودة عجلان إلى خيمته متأثّراً بما سمع وشاهد، تناهى إلى سمعه صوت امرأة ترقّص ابنتها قائلة:

كبرت لأمّك خيرك جاء ولبست ع القفطان رداء

فتذكّر قول خالته لابنتها:

حالف بنتي ما أعطيها غير اللّي يجاورني بيها

إن طبخت تناديني وإن طبخت أناديها

رجع عجلان إلى طبرق فوجد أنّ نميراً ليس على ما يرام، فقد تضايق من الغربة وقال: ما أصعب الغربة، وأن يعيش المرء في بلاده عيشة الكفاف أفضل من حياة مترفة في الغربة، والموت في الوطن لا يقارن بالموت بعيداً عنه، بالأمس شاهدت جنازة مغترب، والسائرون خلف الجنازة يعدّون على الأصابع.

ذهب عجلان ونمير لزيارة جار لهم يعمل حارساً على ورشة من الفيّوم، وشربا عنده الشاي والقهوة، ونادى الرجل ابنه وطلب منه الذهاب إلى الدكّان لشراء لمبة زجاج

لسراج الكاز، وحذّره من كسرها ولطّه بيده على وجهه، فتأثر عجلان ونمير من تصرف الرجل، لأنّه ضربه أمامهم بدون سبب، فسأله عجلان: كيف تلقّه هذه الخبطة وهو لم يكسرها أو يمسّها ؟! فأجاب: وما فائدة ضربه بعد كسرها ؟.

تحدّث عجلان للمقاول والعمّال عن المجاهد يونس والجبل الأخضر، فقال المقاول: ألم يحدّثوك عن المرابط في المنطقة الشرقيّة ؟ فقال: كلاّ. فقال: كيف لا يحدّثونك عنه وهو علم بارز في تاريخ الجهاد الليّبيّ ضدّ الطليان ؟ فقال عجلان: والله نحن نحبّ المناضلين العرب، تصوّر احتلّت فلسطين واستشهد على ترابها آلاف الشهداء، وسمّي الشارع الرئيسيّ في غزّة باسم المجاهد عمر المختار. فقال المقاول: إذن اسمع قصّة المرابط، فقد قاد المعارك في عين مارة والتميميّ وطبرق، وعاتب أصحابه ذات مرّة حين فرّوا من وجه سفينة طليانيّة رمتهم بالرصاص، فتناول مقذوفاً وقال: أتفرّون من هذا فليقتلني. وابتلعه، وعقّل ركبته خوفاً من أن تسوّل له نفسه بالفرار، وظلّ يقاوم وهو جريح، ويردّد:

مرحب بالجنّة جات تتدنّى.

إلى أن أسره الطليان، وحملوه إلى ساحة طبرق الرئيسة، وجمعوا في هذه الساحة القبائل المجاورة رجالاً ونساءً وأطفالاً، وقادوا هذا المجاهد إلى المشنقة التي نصبوها وسط الساحة، وأثناء اقتيادهم له دعس جنديّ على حذائه فحلّ شراكه، فقال: انتظروا كي أربط الشراك كي لا يظنّ أحد أنّ الخوف من حبل المشنقة أنساني أطرافي. فسمحوا له بربطه، وحين أوقفوه على الكرسيّ، ووضعوا رأسه في أنشوطة المشنقة، سحبوا الكرسيّ من تحته، فانقطع حبل المشنقة، فوقع المرابط على الأرض واقفاً، فقال: خسئت هذه الدولة البالية، حتّى حبالها بالية لا تقوى على حمل الرجل ! تفل على يديه وأعاد فتل الحبل بعد أن عزّزه بآخر، ثمّ وقف على الكرسيّ ووضع الأنشوطة في رأسه، والجنود وقادتهم في ذهول، وكأنّه يربط حملاً على جمل، يتحرّك بنشاط وحيويّة، ثمّ أمر الجنديّ بسحب الكرسيّ، فتعلّق في الهواء، وصاحت الجماهير صيحة واحدة: الله أكبر. وزغردت النسوة، إنّ هذه الجماهير التي أُرغمت على الحضور ليلقى في قلوبها الرعب، عادت إلى بيوتها وقد أخذت درساً في

الصبر والاستهانة بالموت وحبّ الشهادة، لقد حوّل هذا المشهد كلّ من حضر أو سمع إلى مجاهد حقيقيّ يناوئ الطليان ويناصبهم العداء.

وتحدّث شيخ كبير قد عاصر المرابط فقال: ألقى عليّ القبض ضابط طليانيّ وخيّرني قائلاً: إمّا أن أقتلك أو .... وواصل حديثه وعدّد مناقب الشهيد المرابط، فسأله أحد العمّال: لم تخبرنا ماذا فعل بك ؟ قال: قتلني. فضحك الحضور، وأضاف: الذي كان يفيدنا في معاركنا الله أولاً ثمّ عدالة قضيّتنا ومعرفتنا لطبيعة الأرض. فقال المقاول: التراب يعارك مع أهله. قال: صدقت.

انتهى عمل ورشة طبرق، وبدأ العاملون فيها يبحثون عن عمل من جديد وفي تلك الأثناء وصل مقاول، وقدّم عروضاً مغرية، وقال: أنتم هنا تأكلون على نفقتكم، وأجوركم زهيدة، وعملكم شاق وموسميّ متقطّع، إن سمعتم منّي ذهبتم معي غداً للعمل في جالو حيث شركات النفط، ستدفنون فقركم وتقولون للخبز طبز من البطر، وظلّ يجادل العمّال إلى أن أقنع عشرة منهم بمن فيهم عجلان ونمير، حملهم في شاحنة إلى الغرب ثمّ إلى الجنوب، وبعد يومين من السفر والعناء، وصلوا إلى مناطق النفط، كان الجوّ حارّاً مغبرّاً، ورياح القبليّ تسفح الوجوه، وتقتل الرؤية، وحين دخل بهم إلى أحد المكاتب وجدوا أنّ العمل هنا يتطلّب جواز سفر وتذكرة إقامة، فأصيبوا بالإحباط، فقال عجلان: كم مشوار راح على البدويّ ببلاش. ثمّ فكرّ في هذا المثل وقال: لقد ظلموا البدويّ في هذا المثل إذ اعتقدوا أنّ الفائدة تقتصر على المادة فقط، ونسوا أنّه يستفيد من المشوار الضائع سدى على حدّ زعمهم في التنَزّه، والتعرّف على بلاد جديدة أو للتريّض ومعرفة طبائع البشر وها نحن قد قطعنا بلاداً ما كنّا نحلم أن نصل إليها، واستعرض شريط المسافات الشاسعة التي اجتازوها، وفكّر كم من الجهد والمشقّة عانى المسلمون الأوائل في قطع هذه المسافات على ظهور الإبل وسيراً على الأقدام، وهؤلاء الأجانب الذين يجوبون العالم القاصي والداني للسياحة تاركين منازلهم وأطفالهم متعرّضين للمتاعب والمخاطر الجمّة ومعظمهم شيوخ وعجائز. مرّوا بخيام الطوارق فاستغربوا إذ رأوا أنّ الرجال هم الذين يتلثّمون، في حين تسفر النساء، فتساءلوا عن سبب ذلك، فأخبرهم السائق بأنّ هذه القبيلة قد تعرّضت إلى

غزو، فأسر الرجال إذ أُخذوا على حين غرّة، فاجتمعت النسوة، وقرّرن اللّحاق بالمغيرين ومهاجمتهم وتخليص الرهائن، ولم يتوقّع المغيرون صولتهنّ، فحالفهنّ الحظّ وحرّرن الرجال الذين شعروا بتقصيرهم وتباطئهم حيال تلك الهجمة، ومن يومها تلثّم الرجال وأسفرت النساء، وغدت الأعمال البيتيّة حكراً على الرجال، وهنّ الآمرات الناهيات، لدرجة أنّ رجلاً قدم من الشرق وجاور بأسرته هؤلاء القوم، وذات صباح سمع أحدهم وهو يخضّ السقاء صراخ امرأة هذا النّزيل الجديد فتساءل: ما هذا الصوت الذي في الوادي ؟ فأجابت زوجته بسرعة وهي تلقّه على قفاه: امخض سقاءك امخضها، هذه أنثى تلبّب بعلها. وعمدت النسوة إلى ترحيل هذه العائلة الغريبة ؛ كي لا تخرّب طبع الرجال فيجسروا على النساء.

في رحلة العودة جلس إلى جانب عجلان رجل دائم العطاس والتنخيم، يتفل نخامته من النافذة فيدخل رذاذها على من خلفه، ينام فيشخر شخيراً عالياً، وهو دائم الشخير حتّى في يقظته، ربت عجلان على كتفه قائلاً: عدّل وضعيّة رأسك أنت تشخر. فتح عينيه، وعدّل رأسه الذي استند على كتف عجلان، وأخذ في الشخير من جديد، علاوة على الصريف بأسنانه، فتدلّى خطّ من الريالة مع شقّ في منتصف شفته، يشبه الجليد الذي يتدلّى من الحنفيّة في الصباح الباكر وقت الصقيع، ابتسم عجلان وتذكّر الرجل الذي طلب من عرّاف أن يكتب لزوجته حجاباً لتقلع عن الشخير، وحين وضع الحجاب تحت رأسها بقيت تشخر، وأخذت تضيف في نهاية الشخرة لفظة بفّ، وكأنّها تنسف حبّاً في غربال لتطيّر القشور، فقال: كانت تشخر زادت بفّ. وعندما مرّت السيّارة على حصّادين بجانب الطريق، أخذ السائق يخبط بيده على ظهر السيّارة ويحدو:

يا زرع انجلْ جاك المنجلْ

(٢٧)

لاحت بوادر الحرب في الأفق بعدما طلب عبد الناصر من القوّات الدوليّة الرحيل، وأغلق مضائق تيران في وجه الملاحة الإسرائيليّة، وبدأ الناس بحفر ملاجئ بدائيّة، واستدعت الشرطة المجنّدين الاحتياطيّين الذين أنهوا خدمتهم العسكريّة، كما استدعت المستقيلين من الجيش، أمّا الذين لم يطلبوا للتجنيد بعد استدعوا للتدريب على السلاح ليشتركوا في المقاومة الشعبيّة، فوصلت بطاقة استدعاء لسويلم سلاّم سويلم، ولكنّها وصلت باسم أبيه سلاّم سويلم سلاّم، فذهب سلاّم إلى مركز التدريب من مركز التموين، حيث يعمل عتّالاً، على ظهره حلسٌ مدبّج برُقَعٍ سميكة لتقي ظهره من الأحمال، وهو مغبّر بالدقيق، ثوبه قصير بالكاد يبلغ ركبته، ويحتذي صندلاً بخيوط، خفّه كخفّ الجمل، صدره واسع ومنكباه عريضان، وعمره يربو على الخمسين، تغافل أنّ الطلب لابنه وليس له، فوقف في مقدّمة المصطفّين للكشف والمعاينة، وطلب منه إبراز البطاقة، ولأنّه متقدّم في السنّ قد وخطه الشيب، كان وجوده نشازاً بين الحضور، وقف باستعداد تامّ أمام قائد المعسكر، وضرب الأرض برجله بعنف حين أدى التحيّة، فأثار غباراً أكثر ممّا يثيره جمل بطر، فقال له حسين غراب قائد المعسكر: أحضرناك بالخطأ، عمرك تجاوز السنّ المطلوبة. فقال: لا يا سيّدي، عمري هو العمر المناسب، وأنا أسدّ مسدّ صفّ كامل من هؤلاء الشباب، وأراهن أن أبطح أيّاً من الحضور جميعاً. فتبسّم القائد حين رآه ينفش صدره بزهوّ وغرور، وقال: نحن لا نريد أن نعرّضك للخطر في الحرب نريد أن تبقى معشاراً، ونحصل منك على زرّيعة وسلالة طيّبة عفيّة. فخبط سلاّم برجله على الأرض محيّياً القائد وانصرف وهو يقول في سرّه: إن شاء الله نكون قد ملّصنا ولدنا من هذا العذاب، إنّه مريض بالكبد، لا يأكل إلاّ العذب ولا يقوى على رفع إبريق ماء، وما زالت المداوية تمرّجه، وتعصم مشطاً على كبده، وهم يحتاجون إلى شابّ صحيح الجسم نشيط كالحصان المعلوف.

وُزّعت الأسلحة على أفراد المقاومة الشعبيّة، واستبشر الناس بالنصر، ومع انبثاق فجر الخامس من حزيران سُمع أزيز الطائرات، ثمّ بدأت المدفعيّة المعادية بالقصف،

واجتازت دبّابات العدو الخطوط الأماميّة بسهولة، وأخذت المدافعين على حين غرّة، وحين وصلت على مشارف المدن وهي ترفع الأعلام العربيّة، قابلها الناس بالهتاف والزغاريد والتصفيق، ظنّاً منهم أنّها دبّابات عربيّة أنّهت مهمّتها في النقب، أتت لتنظّم صفوفها وتتزوّد بالوقود والذخائر من جديد لأنّ الإعلام قد خدع الناس، إلاّ الشرطيّ حسين أبو سلمان الذي سبق له أن عالج الرجل القادم من سيناء للإنجاب، فإنّه أطلق الرصاص على الجنود الذين يعتلون الدبّابة الأماميّة التي وصلت إلى مقرّ الحاكم في رفح، واستشهد حسين، ودخل اليهود المركز، وحين أسفرت الهزيمة عن محيّاها، وأخذت الدبّابات والمدفعيّة الإسرائيليّة تدكّ المدن والمخيّمات والتجمّعات السكّانيّة، أخلى الناس بيوتهم وفرّوا إلى الكثبان الرمليّة، وداست الدبّابات الجنود المتخندقين بجنازيرها، ولم تقلع عن هذه الفعلة إلاّ بعدما وضع جنديّ جريح لغماً تحت صدره أمام خان يونس، وشاغل الدبّابة الأماميّة بإطلاق الرصاص عليها، فمالت عليه لتدوسه، انفجر اللّغم وقطع جنْزيرها ودمّر جزءاً منها، وشتّت جسد الجنديّ.

سار الجنود الذين أخلوا الخطوط الأماميّة مع شاطئ البحر إلى الجنوب، واختبأ آخرون في الأحراش منتظرين الهجوم المضادّ، والطائرات المعادية تقصف التجمّعات العسكريّة والثكنات، وأحياناً تحطّ طائرة هليوكوبتر على تجمّعات صغيرة معزولة وتقتل من تقتل، وتأسر من تأسر، فغيّر الجنود ملابسهم العسكريّة بملابس مدنيّة، قد يبدّل أحدهم بندقيّته بثوب عتيق، أو برغيف خبز، والسير بالأحذية الثقيلة مستحيل على هذه الرمال المتحرّكة، وكان منظر الجنود يدعو إلى البكاء، آلاف مؤلّفة هاموا على وجوههم في الصحراء، يسيرون على غير هدى، وأصبحوا نهباً للجوع والعطش والضياع والخوف والتعب، لا أحد يبحث عن المستودعات العربيّة ليستفيد منها، أو يفكّر في لمّ الشعث ليشكل مقاومة لعرقلة تقدّم العدو أو الإغارة على مؤخّرته أو ينتزع منه طعاماً أو ماء، علماً بأنّ الطائرات الإسرائيليّة كانت تلقي بالمؤن والذخائر والوقود أمام الأرتال المتقدّمة، وأخذ البدو حاجتهم من الحبال وقماش المظلاّت، والعدو لم يبسط نفوذه بعد، ولم يسر إلاّ على الطرق الرئيسة، وإذاعة العدوّ تثبط من المعنويّات، وتغنيّ شادية:

قولوا لعين الشمس ما تحماشي أحسن حبيب الروح صابح ماشي.

وصل قصّاد إلى ثلّة من أقاربه في الأحراش، كان يرتدي ملابس عسكريّة وجدها ملقاة تحت شجرة، وقد لبس فانيلا الشيّال فوق سترة الصوف، نبّهه أحدهم قائلاً: إنّ هذه تلبس على الجلد تحت الملابس كلّها، فكيف تلبسها فوقها جميعاً ؟ فقال: لا، هذه التي تلبس على الجلد. وأخرج طرف فانيلا نصف كمّ، فتدخّل يونس: أن يلبس قصّاد الفانيلا الشبّاح فوق الجاكيت فهذه معقولة، لأنها تشبه الصديريّ والبدريسة، أما علمتم أنّ المطويّ وجد صدريّة امرأة على شاطئ البحر ربّما طوّحت بها الرياح من باخرة، فتلاقفتها الأمواج، وألقت بها على الشاطئ، أو سلتت من سابحة في قبرص، أو قد رمت بها امرأة خائفة، فقصّ المطويّ أربطتها، واستأصل منها طاقيّتين، لبس هو واحدة، وأعطى شقيقه الأخرى. فعلّق سليمان: هذه صدريّة امرأة ضخمة ثديها بحجم رأس الرجل. فردّ يونس: أتحسب أنّ رأس المطويّ رأس، إنّه بحجم البصلة، وأخيراً طردوا قصّاداً متذرّعين بأنّه يلبس ملابس عسكريّة، فيجعلهم بذلك عرضة لقصف الطائرات، وقالوا له: إنّ هذه الملابس خطرة وإلاّ لما رماها لابسها الأوّل، اذهب بعيداً لا تقرّب لنا البلاء. فقال جمعة العبيد: خوفكم هذا لا مبرّر له، لم تنته المعركة بعد والله جيش إسرائيل كلّه لا يستطيع تنظيم حركة المرور في القاهرة، لو أفسحوا له المجال لدخول القاهرة، وروّح الشرطة إلى بيوتهم، شأن إسرائيل مع العرب كالقرعة مع النخلة، عندما اعتلى مدّاد القرعة ذروة النخلة ذات مرّة، قالت متفاخرة: ها أنا قد اعتليتك يا نخلة وصرت أعلى منك. فردّت النخلة باطمئنان: المهمّ الصمود يا قرعة. وخبط جمعة رجله بالأرض فانسكب إبريق الماء فقال: انكبّ مانا خير جانا. قال سليمان: من أين لنا الخير ؟

في اليوم الثالث من الحرب وقف طالب متطوّع، كان في السنة الثالثة من كليّة العلوم بجامعة القاهرة، يرتدي قميصاً أبيض، لم يعطوه إلاّ بنطالاً عسكرياً وبندقيّة بلجيكيّة ثقيلة، سأله أحد الفارّين من مخيّم رفح: لماذا تقف هنا بمفردك على الإسفلت هل تنتظر أحداً ؟ فأجاب: نعم أنتظر اليهود لأحاربهم. قال: وهل يؤثر سلاحك هذا في الدبّابات ؟ قال: لن أتراجع خطوة واحدة إلى الغرب، أليس هذا الخط هو حد فلسطين من

سيناء ؟ قال: نعم. فقال: وأنا قدمت لأنال الشهادة على تراب فلسطين. كان يكمن خلف صفّ من شجر الغيلان الأخضر، مطلاً على الدوّار الذي تتشعّب منه الطرق إلى البحر غرباً وإلى العريش جنوباً، وإلى رفح شمالاً، وأضاف الطالب المتطوّع: تدرّبت في المقاومة الشعبيّة على قذائف الأنيرجا، فلو كنت أملك هذه القذائف والوصلة والرصاص المناسب لغدا تعاملي مع الدبّابات مجدياً ومؤثّراً. كان ينظر إلى آلاف الشاردين من جنود ومدنيّين، ونزوحهم هذا المريع لم يثنه عمّا صمّم عليه، ولم يقذف في نفسه الرعب، لا يفكّر في طعام أو شراب أو غطاء، والشبّان الصغار كانوا يبحثون عن بطل، فيبدو أنّهم وجدوا ضالّتهم المنشودة في هذا الطالب، التفّوا حوله، وعاد بعضهم إلى بلدة رفح ليحضر له الطعام والماء والملابس المناسبة، ومع حلول الظلام أحضر له أحدهم صندوق قذائف من التي يريدها مع كامل لوازمها، وعدداً من القنابل اليدويّة وعندما أثبت الوصلة على فوّهة البندقيّة وركّب فيها القذيفة طفح وجهه بالبشر، وأخذ يدرّب الأولاد على كيفيّة التسديد على الأهداف، بات اللّيل كلّه وهو يفكّر في أنسب مكان يكمن فيه، ليفاجئ دبّابات العدوّ عند قدومها، تعرّف على المناطق المحيطة به، سأله أحد الشبّان: ما فائدة أن تقف وحيداً، يد واحدة لا تصفّق، لو أنّ هذه الجيوش المنفضّة تقاوم وتهاجم العدوّ لأوقفوا تقدّمه وشلّوا حركته. فقال الطالب المتطوّع: كلامك صحيح فالهزيمة مرّة، وعندما اجتاح التتار بلاد الشام، تفشّت أجواء الهزيمة، فخرج تتريّ من خيمته لقضاء حاجة، فرأى عشرة رجال سائرين لشأنهم، فأمرهم بالتوقّف والانتظار، فأذعنوا لأمره، وعاد إلى خيمته وأحضر سيفه، وقتلهم الواحد تلو الآخر، ولم يخطر ببال أحد منهم الهرب أو المقاومة، في حين أنّ التتار نفسهم لمّا تعرّضوا للهزيمة في عين جالوت انهارت معنويّاتهم، فوقفت امرأة من ريف حلب، ومعها عمود خيمة فتادت طابوراً من التتار كان يسير إلى الشرق، فأطاعوا أمرها، فأخذت تضرب كلّ من يمرّ بها بالعمود على رأسه، ويقبلون عليها وهم يرون المصير، إلى أن تعبت وملّت، وأصبح أمامها كوم من الجثث، وانهيار الجيوش يجب ألاّ يميت الأعمال الفرديّة، ولا ينبغي للمرء أن يعمل ضدّ قناعته مقلّداً الآخرين، علينا أن نبدأ بإشعال الفتيل.

أغفى قليلاً قبل الفجر، فرأى في المنام أباه يقول له: هنيئاً لمن أدرك الشهادة،

نحن نطلبها من الله في كلّ صلاة. استيقظ وصلّى الصبح ودعا ربّه: اللهمّ ارزقني الشهادة، اللهمّ احشرني مع الشهداء والصدّيقين. أيقظ الشبّان الذين ناموا حوله وطلب منهم مغادرة المكان، كي لا يرى العدوّ تجمهرهم قرب الطريق ومع إشراقة الشمس سمع الدبّابات الإسرائيليّة ترزم زاحفة من الشمال، ولم تلبث إلاّ قليلاً حتّى تمركزت حول الدوّار المقابل له، صوّب القذيفة على أقربها إليه وقال: بسم الله.. الله أكبر.. وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى. وأطلقها، ففاجأت الإسرائيليّين، فلم يتوقّعوا المقاومة من أحد حيث معنويّات الناس مثبطة، فأعطب الدبّابة ولقمّ البندقيّة قذيفة أخرى، وأطلقها على الدبّابة الثانية، فأصابها أيضاً، ولكن هذه المرّة تمكن رتل الدبّابات من تحديد مكانه، فأطلقوا على زومة الغيلان قذيفة وسيلاً من الرصاص، فأحالوها إلى كتلة من الرماد، واصبح قبر الشهيد مزاراً يشحذ الهمم، ويحرّض على المقاومة.

سمع سلامة سليم صوت طلق ناريّ وهو يتجوّل في مسرح العمليّات ليلة اجتياح المدرّعات الإسرائيليّة لخطوط الدفاع المصريّة الأولى في قاعة شبانة، كان يبحث عن سلاح أو ملابس أو مؤن، قعد ليستجلي الأمر، وزحف مقترباً من المكان الذي ثار منه الطلق: إنّه صوت بندقيّة ناتو، وأُطلقت الرصاصة إلى أعلى لاحظت الشرر يصعد إلى السماء ولم تصطدم الرصاصة بشيء. أمال ظهره وأسرع ليشرف على تلّ يمكّنه من مراقبة المكان الذي انطلقت منه الرصاصة على ضوء القمر، انبطح على قمّة التلّ فرأى مجنّزرة إسرائيليّة تُركت في المنخفض، ظلّ يراقبها بلا حراك، شاهد كلباً يدور حولها: لو كان فيها أحد لما تجرّأ الكلب على الاقتراب منها، يا ترى من أطلق النار ؟! زحف ليقترب أكثر ويشاهد ما يدور عن كثب، رأى الكلب يقفز على الآليّة، وحين يشرف برأسه على برجها تُطلق عليه رصاصة، فيقفز إلى أسفل، ويظلّ يدور حولها: يا للهول إنّ فيها إنساناً، أظنّه جريحاً أو خائفاً، أطلق طلقين ولم يتمكّن من إصابة الكلب، الكلب يشمّ رائحة لحم، لقد أصيبت الكلاب بالسعار من كثرة ما أكلت من لحوم البشر الذين قُتلوا وتُركوا في العراء. لبد قرب المصفّحة لم يسمع كلاماً بل سمع أنيناً، رمى بحجر على الكلب فابتعد ليقعي على بعد أمتار ويهرّ هريراً متواصلاً، تفقّد الدبّابة فلاحظ أن جنّزيرها قد قطع، وبها إصابة

مباشرة دمّرت جزءاً من مقدّمتها أطلّ برأسه بحذر شديد من زاوية مخالفة للّتي كان يطلّ منها الكلب، فرأى جنديّاً جريحاً يمسك ببندقيّة، بدأ عليه الذعر، ولكنّه هدأ روعه عندما أبصر آدميّاً، فطلب منه ماء بالإشارة، فناوله مطرة الماء، ولاحظ سلامة أنّه مقعد لا يقوى على الوقوف، ربّما نسيه أصحابه، أو تركوه ظنّاً منهم أنّه ميّت، كلّ ما يخشاه سلامة الآن أن يطلق الجنديّ عليه النار، ترك له مطرة الماء، فأشار الجنديّ إلى الزاوية التي يطلّ منها الكلب، كأنّه يستنصر بسلامة عليه، نزل سلامة على الأرض، فرأى الكلب مقعياً يتحيّن الفرصة لينهش هذا الجريح، فصوّب بندقيّته إليه، فرشقه طلقاً، فعوّص ولم يبرح مكانه، وقال: لعلّ الجريح قفز قلبه عندما سمع الطلق ولكنّه لا بدّ أن ارتاح حين سمع عواص الكلب، سأذهب وأحضر جملاً ورفيقاً لنحمله ونضعه على الطريق. عاد سلامة مصطحباً أخاه سليمان إلى المكان وأشار إلى الدبّابة وقال: انظر أصيبت من ذلك المكان المطلّ. صعد عليها بمطرة ماء جديدة، كانت الشمس قد بزغت للتوّ، نادى على الجنديّ، لم يجبه، رآه ما زال جالساً ولكنّ رأسه قد ارتخى على كتفه، لمس يده وقال لأخيه: قد مات. فأجابه: انْزل قبل أن تأتي الطائرة، لو رأونا لظنّوا أنّنا قتلناه، هات البارودة. تركا المكان على عجل.

عندما زحفت المدرّعات الإسرائيليّة إلى الغرب مخترقة قاعة شبانة إلى أبي رعد، جفل الناس جنوباً محاولين اللّجوء إلى مناطق وعرة، تغمس النسوة أيدهن في الماء وينفضنها في وجوه اليهود، وتصيح ثريّا: ابردنهم بالماء والرمل وقلن شاهت الوجوه. كان الرصاص ينهمر عليهم وهم يهرولون، رغم أنّ هذه المناطق خالية من مواقع الجيش، ولكن الإسرائيليّين كعادتهم يفضّلون الاختراق من مناطق بعيدة عن تواجد الجيش تلافياً للخسائر، وبعد أن قطع الناس مسافة طويلة بإبلهم وغنمهم تذكّرت مريم زوجة ابن تامر كلبتهم التي ولدت البارحة عندما أبصرت كلب الزيادين يباري ظلعنهم فنادت: خذ يا مهاوش احضن الجدي وناولني الإبريق خليّنا الكلبة وجراها وما في مقرها نقطة ماء. فقال: الكلبة وجراها لها ربّها، أترجعين الآن في الخوف والحرّ ونحن ما صدّقنا ونصل هذا الموصل، أما تعبت ؟ أما رأيت الرصاص يبذر بذراً. وضعت الجدي على الأرض حين

تلكّأ زوجها في أخذه منها، حلّت معلاق الإبريق وعادت مسرعة واضعة طرف ثوبها في أسنانها في حين واصل الظعن زحفه إلى الغرب حاولت السير بين أشجار الخروع لتخفي نفسها، ولكنّها اضطرّت إلى أن تعلو بطيناً لتجتازه إلى منخفض موازٍ، ولمّا أشرفت فوق البطين شاهدت كتلاً خضراء تزحف إلى الغرب مخلّفة وراءها غباراً كثيفاً أصفر، طمر كلّ الأعشاب والأشجار، سمعت أصوات الرصاص كالقليّة، شعرت بوخز في فخذها، سقطت على الأرض، فانسكب ماؤها، وشعّ دمها على الرمال الناصعة، وهي تعبّ ما يسقط عليها تاركة زبداً يفور، وضعت يدها على مكان الإصابة، زحفت لتستظلّ تحت شجيرة بقربها، أحسّت بأنّ قلبها يجف، فغابت عن الوعي، قبيل الغروب استيقظت على رغاء بعير، فنادت: يا لاقي خير.. يا ابن الحلال. قدم إليها رجل، قالت: اسقني ماء. فقال: ما معي ماء، من أنت ؟ قالت: أنا من عرب شبانة، امرأة ابن تامر. قال: أين جفل أهلك ؟ قالت: تركتهم عند صنوع القطر قاصدين الجميعيّ. سألها: هل ربطت جرحك ؟ قالت: نعم. أضاف: أنا ذاهب لأنقل قسماً من أهلي، لا أستطيع حملك، وأعدك أنّني سأبلّغ أهلك اللّيلة مهما كلّف الأمر، بلّي ريقك مصّي من أعواد الثمام.

(٢٨)

اقترف اليهود مجزرة فظيعة في مخيّم رفح قسم (ج) بعد انفجار لغم تحت جيب، كان هدفهم ترويع الناس واستئصال شأفة المقاومة، لم يصدّق الناس ما رأت أعينهم، رجال جلّهم من الشيوخ الطاعنين وغلمان صغار يدفنون أحياء في جورة للقمامة، نساء وأطفال تغلق عليهم البيوت وينسفون بالمتفجّرات، قسم بكاملة يجتثّ تماماً من الوجود دون تمييز أو وازع من ضمير، وتستمرّ المجزرة من الصباح حتّى العصر، وتتطاير الرؤوس والأشلاء مع القرميد والحجارة.

هام الجنود على وجوههم في سيناء، وليس معه إدلاّء من البدو، وهم لا يثقون بأحد، ساق القدر مجموعة هاربة منهم إلى خصّ بدويّ نزل بقوم يسكنون هذه المنطقة

تاركاً أقاربه، وهو متزوّج من امرأة شابّة وأنجب منها طفلاً، وصلت إليهم هذه المجموعة المنهكة المضناة، جنود تركوا مواقعهم بما فيها من عتاد وتموين وسلاح ووجدوا أنفسهم في أرض قاحلة، أجلسهم الرجل في ظلّ الخصّ، وخرجت امرأته وعلى ظهرها ابنها يغتسل بعرقه في المزفر، تحت لهيب الشمس الحارق، تعجن وتخبز على الصاج، وكلّما نضجت بعض الأرغفة أدخلها زوجها إلى الجنود، وصنع لهم الثريد باللّبن والسمن، فأكلوا وشبعوا، ووضع لهم ما تبقّى من خبز وشيئاً من الإقط في حقائبهم، أخذهم إلى الهرابة، فتح لهم بابها فشربوا وغسلوا رؤوسهم وسكبوا على صدورهم، وملؤوا مطراتهم وزوّدهم بقربة مملوءة بالماء، وسار معهم ليدلّهم على الطريق، فتهامس الجنود، وظنّوا بالرجل ظنّ السوء، واعتقدوا أنّ المنطقة خالية من البشر ولم يرهم أو يسمعهم أحد، قال أحدهم: لماذا يفعل هذا معنا هكذا لم نعطه أجراً، ولم يطلب منّا ثمناً، ولم نعده بشيء، هل قدّر أنّ من بيننا رتباً عالية، ويريد أن يلهينا ليسلّمنا لليهود، ويتقاضى نظير ذلك أجراً مجزياً ؟ قال آخر: كلّ شيء وارد. فاعترض أكبرهم سنّاً: يا جماعة الرجل أكرمنا، أنتم إن فعلتم به سوءاً قتلتم النخوة والمروءة عند الناس، ولم نر منه منكراً، إنّ بعض الظنّ إثم، لا تفجعوا امرأته وطفله، كي ينجينا الله من هذا الكرب. استبطأ الرجل سيرهم، فحثّهم على الإسراع كي يدركوا بئر ابن عوض قبل العتمة ليتزوّدوا منه بالماء، همس أحدهم: كم من رجل طيّب مات في هذه الحرب ؟ أجابه آخر: آلاف. فقال: فلنقطع الشكّ باليقين ونضف إليهم واحداً وضغط على الزناد، تردّد صوت الطلق في الوادي، قفز قلب المرأة في صدرها، فأطلّت برأسها من الخصّ، رأت زوجها يفحص الأرض برجليه، والجنود يفرّون من حوله، أهالت التراب على رأسها.

وفي منطقة الشوباني جنوب غزّة جمعت دوريّة إسرائيليّة مجموعة منتقاة من الرجال، وأخذتهم إلى جرف مطلّ على البحر، وصفّوا على هذا الجرف ووجوههم متّجهة إلى الغرب، والجنود من خلفهم وأعطي كلّ رجل رقماً، ثمّ أُمروا: من ينادى رقمه عليه أن يقفز من الجرف إلى أسفل تجاه البحر. فصاح أحد الجنود: واحد. قفز الأوّل، فغمره الجنود بالرصاص وهو يهوي إلى أسفل، واضعا يديه على رأسه، ثمّ نادى الثاني، فقفز

ورشقوه بالرصاص من الخلف أيضاً، وهكذا إلى أن أتمّوهم، ثمّ أشرف عليهم الجنود من علٍ، وأطلقوا الرصاص على الجثث، وانصرفوا، قال محمود النويريّ كنت الرابع منهم، وظننت للوهلة الأولى أنّ الموت هكذا، يظلّ الميّت يرى ويسمع، وعندما أخلى الجنود المكان، نظرت إلى جسمي، كان ملطّخاً بالدماء، وهززت أخي أحمد الذي كان ملقى بجواري فلم يتحرّك، حاولت القيام فقمت، وحرّكت بقيّة الجثث، فلم يتحرّك أحد، يتقاطر الدم الذي لم تتمكّن الأرض الرطبة من ابتلاعه، ليصل إلى زبد الأمواج التي تحاول الزحف إلى الجثث وسحبها، عدت إلى أخي أحركّه أشدّه فلم يرم حراكاً سكن إلى الأبد، كلّ هؤلاء كانوا قبل لحظات ينطقون ويتحرّكون، أناديهم: هيّا قوموا راح اليهود فلم يجبه أحد. فتمدّد قرب أخيه، وحين عثر عليهم الناس وجدوا أنّه ما زال حيّاً.

وأصابت رصاصة زوجة رجل من جباليا، وهي تخبز فقتلتها، وتجمّعت النسوة على الجنازة، والرجل يبكي بين أطفاله، ويصيح: يا ويلي ويا سواد ليلي من سيخبز لنا ويطبخ ؟ فقالت واحدة: لا يهمّك أنا أخبز لكم وأطبخ. وصرخ: يا ويلي من سيغسل لنا الملابس ويكنس البيت ؟ فردّت جارة له: ابشر ولا يكن لك فكر. ثمّ وضع يديه على وجهه وصاح: يا ويلي من سيبات معنا ؟ فلم يجبه أحد وغطّت النسوة وجوههنّ، وهمست إحداهنّ: جنّ الرجل. فصرخ: يا حسرة قلبي عند المنام سكتن.

تجمّع لفيف من الأطفال في مواجهة نصف مجنْزرة وقفت على مدخل سوق فراس على شارع عمر المختار في غزّة، عليها جنود مدجّجون بالسلاح، وحولهم أكياس مملوءة بالتراب، يضع كلّ طفل يده على عينه اليسرى، ثمّ يبصبص بوسطى يده الأخرى في وجوه الجنود، فيطاردونهم ويطلقون الرصاص من فوق رؤوسهم، فيزوغون في الأزقّة، وما يلبثون إلاّ قليلاً ويتقاطرون من جديد، ويصرخ أحدهم لينبّه اليهود لوجوده، ثمّ يمدّ إصبعه ويختبئ، ويمارسون معهم لعبة القطّ والفأر.

نفدت الموادّ التموينيّة من المخازن، فانتشرت المجاعة، وتهافت الناس على معسكر القوات الدوليّة البرازيليّة إلى الشرق من رفح، ورغم وجود حراسة إسرائيليّة مشدّدة حوله، يغامر الكثيرون ؛ يقفز أحدهم من فوق السور، يخرج حاملاً شيئاً من

الدقيق أو السكّر أو الأرز، وقد يقفز أحدهم داخل المعسكر ليناول من في الخارج شيئاً من فوق السور، وإذا ما لحظه الحارس الذي يعتلي برج المراقبة أو صادفته دوريّة محمولة تجوب حول المعسكر تطلق عليه النار، فكثيراً ما يُرى إنسان ذكراً كان أم أنثى ملقى حول المعسكر وهو لا زال يمسك بصرّة بين يديه أو كيس على ظهره، وقد فارق الحياة جرّاء طلق ناريّ سدّده إليه أحد الحرّاس، ولا يُستغرب أن يعرّج عليه مواطن آخر يحبو لا ليتعرّف عليه أو يسعفه بل ليرى إن كان بحوزته شيء مفيد ليأخذه.

واستغلّ حالة الحروب شذّاذ الآفاق والقراصنة، واستشرى السلب والنهب، فقد لبس أحدهم لباس جنديّ إسرائيليّ، وداهم بيت صادق المنفرد عن البيوت ليلاً وادّعى أنّه يفتش عن سلاح ضمن حملة شاملة، وهو يرطن وكأنّه يتحدّث بالعبريّة وفرّ عندما اكتشف أمره، والأنكأ من ذلك ما تعرّض له بعض المشرّدين في الخلاء من سلب وابتزاز وإزهاق أرواح من قبل المجرمين مستغلّي الحروب، الذين يدّعون أنّهم جنود وبحاجة ماسّة للمال والسلاح لمهاجمة العدوّ.

بعد أن هدأت الأحوال زوّج عادل ابنه يحيى من ابنة أخيه جنوب، وقاد له أقاربه شياهاً ذبحها جميعاً، زيادة على ما قرّر ذبحه وليمة للعرس، بدأ الذبح والطبخ منذ الصباح والنساء تعجن وتخبز، تولّى حمد الأبله مراقبة أحد القدور، وأخذ يكشط الزبد المتشكّل على وجه القدر، وحين فار الماء أنقص من النار تحته فتحرّك اللّحم فأخذ حمد يدور حول القدر وبيده خلال مبريّ، يشكّه في قطعة اللّحم فيخرجها، يحسّها بيده وينتش منها بأسنانه، يذوقها ليعرف أنضج اللّحم أم لا، وظلّ على هذا المنوال منذ أن فار القدر أوّل مرّة، وكان حمد قرماً لم يذق اللّحم منذ العيد الفائت، ولم ينتبه إليه أحد لكثرة القدور، فأتى على كلّ ما في القدر، ولم يترك سوى المرق وكسر العظام، ثمّ قعد يخلّل أسنانه، فتخرج على العود قطع لحم حمراء، كأنّها لم تمسّ النار بعد ينظر إليها ويعيدها إلى فمه، ثمّ يزدردها من جديد، فأخرج من بين أسنانه لحماً يقري رجلاً، فقال فيه الشاعر:

من قبل القدر ما يفور يتحنجل عنده بخلاله

أول ما اكتشف الخلل في عقل حمد أحد الرعيان حين رآه يراقب جعلاً يقتطع جزءاً من

غائط، فيدحرجه على التراب إلى أن تبرغل وتكوّر وصلب قليلاً، وأخذ يدحرج هذه الكرة برجليه الخلفيّتين، في حين يعتمد في مشيه على قائمتيه الأماميّتين، وكان يسير إلى الوراء، وكلّما اعترض طريقه عائق ترك الكرة، وشرع في تمهيد الطريق، أمّا إن سقطت الكرة في حفرة فتلك طامّة كبرى، تحتاج إلى المزيد من العمل والوقت لتمهيد أحد حوافّها، ويعمد الجعل إلى رفع الكرة بيديه في حين يغرس رجليه في التراب، أمضى حمد سحابة يومه يراقب هذا الجعل وهو يعود بالغنيمة إلى جحره، وكلّما اقترب منه كفّ عن الحركة، وكمن قرب صيدته، وحين وصل بالكرة إلى باب الجحر وجده يضيق عن استقبالها، فوضعها جانباً وأخذ في توسيعه، وكان يتفقّد الكرة بين الفينة والأخرى ليطمئنّ على وجودها، فانتهز حمد غفلة من الجعل ودحرج الكرة من بعيد برأس عصا وابتعد بها عن الجحر، وأشعل ناراً ثمّ غطّاها بقليل من الرمل ووضع الكرة في منتصفها، وظلّ يراقبها، عندما فقد الجعل الكرة تتبّع جرّتها بشمّ الأرض التي سارت عليها، فاندفع الجعل على الكرة غير آبه بالملّة وأخذ يدحرجها وأطرافه تقتّر من النار، وحمد يفرك يديه منسجماً.

فرد الخبز على الصواني وصبّ فوقه المرق، ثمّ غطّوه بالأرز الناضج وجلّلوه باللّحم، وضعوا بعض الصواني في الديوان وهو معرّش واسع، وأدخلوا للنساء عدداً منها، كما وضعوا ما تبقّى منها في الهواء الطلق للأطفال، الذين اندفعوا يتخاطفون اللّحم، حامت طائرة ضخمة على المنطقة، وأشعل جنود إسرائيليّون النار على كثيب مرتفع، وكأنّه إشارة للطائرة لأنّها ألقت من بطنها أشياء صغيرة بمجرّد تصاعد الدخان من النار، فأسفرت حين دنت من الأرض عن مظلاّت ملوّنة يتدلّى منها جنود بأسلحتهم، كانوا يتعثّرون في الأحراش، وأحياناً تطير بأحدهم المظلّة من جديد بعد هبوطه على الأرض، فعلقت من الخوف والاندهاش قطعة لحم في زور سلاّم، والناس ليسوا في وارده، ولولا أنّ جاره في المقعد فطن إليه، إذ لاحظ أنّ رأسه يتدلّى، وقد جحظت عيناه، ضربه بقبضة يده على ظهره عدّة ضربات فقفزت قطعة اللّحم من زوره لتستقرّ في سمن محتقن في جورة فوق الأرز، فخجل الحضور ولم يرموا بالقطعة خارج الطعام، أولم ينتبهوا إليها، التجأ إليهم رجل خائف، عزموا عليه ليأكل، فاعتذر وقال: إنّني قد تغدّيت ولكن سأمالحكم، لا أريد

أن أنطح الفأل، فدنا إلى الطعام وتناول قطعة اللّحم المنقوعة في السمن، فهمهم القوم، وقال صابر وهو واقف: في زورك وتقسم لغيرك. ورجع إلى بيته ليتفقّد أطفاله يخشى من أنّهم ذُعروا لأنّ بيته أقرب ما يكون لمنْزل الجنود، فقابل في طريقه سلامة وسأله: لماذا لم تأت إلى عرس عادل، وتحضر الوليمة ؟ فقال سلامة: قالوا عند الغولة عرس. قال: يا الله يكفيها ويكفي عيالها. وحين قطع الطريق الترابيّ قابله أحد أبنائه وهو عائد من المدرسة، فمرّا بجنود يجلسون تحت شجرة، كانت ملابسهم خضراء فلم يرهم صابر، نبّهه إليهم ابنه وأشار بإصبعه فنهره أبوه: لا تمدّ إصبعك، لا تنظر إليهم اجعل نفسك كأنّك لم ترهم، حتّى لو نادوا عليك لا تلتفت، تظاهر بالصمم.

تذاكر المجتمعون بعد العشاء أشهر الأكلة، والكلّ مقتنع أنّ أشهرهم على الإطلاق درويش الذي قال فيه القائل:

درويش لمّا خطبك ليش ما أخذتيه

القدر ما يشبعه والصنع ما يرويه

فهو لا يتورّع إن كان بطنه مملوءاً بغذاء عاديّ، ووجد لحماً أو طعاماً شهيّاً، أن يتوارى عن الأنظار، فيضع إصبعه في زوره ليتقيّأ ما في بطنه، ثمّ يأتي ليملأه من اللّحم وروى العابد على لسان درويش قوله: صادفت مرّة رجلاً أسود ظلّ على المائدة يقابلني بعد أن انفضّ الأكلة ممتلئين، فأثار تصرّفه هذا حنقي، وسخطي لأنّ الجميع يقرّ بأنّني آكل أكثر من إيّ إنسان، وشيء طبيعيّ أن أظلّ على المائدة، فصمّمت على هزيمته، فحضر ضيوف جدد عند مضيفنا، فجدّد الطعام، فشبع الجميع وقاموا، ولم يبق على المائدة إلاّ أنا والأسود، وقمنا بعد أن أتينا على كلّ ما عليها من طعام، وظهر التحدّي: من سيظلّ للنهاية، وانطلق الأسود فلحقت به لأختبر عزمه، قلت له بعد أن ابتعدنا عن البيوت: أريد أن أباطحك لنعرف أيّنا أقوى، فاقترح عليّ بدل المباطحة أن نتبارى في حمل حمار قبرصيّ، وجدناه يرتع في البور وهو مقيّد، يضرب بطنه بقضيبه، قال الأسود: أحمله أربعين خطوة وأمتطيه أربعين أخرى، وتحذو حذوي. وافقت على اقتراحه حلّ قيده وأدخل رأسه بين قوائمه، وأمسك بها، وسار به أربعين خطوة بخطى واسعة متّزنة ؛ كأنّه يقيس أرضاً، فانكمش قضيبه الذي كان

يمصع به، وغار في بطنه، ثمّ أنزله وامتطاه أربعين خطوة، فسمع له ضراط مستمرّ، وترجّل عنه، وظلّ ممسكاً به إلى أن أدخلت رأسي تحت الحمار كما فعل، وطوّقت قوائمه بذراعيّ، وحملته على عاتقي، وسرت به وكأنّني أحمل جبلاً أنوء به، سرت أربعين خطوة متعثّرة، وألقيته وقعدت وليس في مقدوري أن أمتطيه، شعرت بالدوار، هذا هو الرجل الذي وجدته في حياتي يأكل أكثر منّي وأشدّ منّي عزماً.

وقال سليمان سليم: أمّا سلامة رفيقنا فلا يأكل إلاّ الثريد، وله مقولة شهيرة: بلّ اللّقمة بالماء أفضل من أن تبلّها بالريق. يفتّ الخبز ويصبّ عليه الطبيخ، ويمرده بأصابعه إلى أن يغدو سائلاً كريق النمس، وإذا لم يجد غموساً يفتّ الخبز بالماء، ثمّ يحلب عليه عنْزاً، أو يفرم بصلة أو قرن فلفل، وإذا أراد أن يتبغدد ويوسع على نفسه قطّر على الثريد شعرة زيت، ثمّ يغرس ركبته في الرمل ويميل عنقه، فيملأ فمه ويحشو الفتّ الطريّ داخل شدقه إلى أن ينتفخ خدّه، ويزدرد الفتّ، فيتقاطر السائل مع يده إلى أن يبلغ مرفقه، وإذا أدركه لحسه بلسانه ثمّ ينظّف الماعون بأصابعه، ويمصّها مصّاً يسمع له صوت مطيق، وفي إحدى المرّات لاك لسانه، وأوشك أن يبتلعه مع اللّقمة الأولى من العجلة. وقال ناجي الأشرم: كنّا نحصد عند رجل في جبل الطور ويعطينا أجرتنا من النقود أمّا الطعام فنتعشّى عنده في الديوان مع الضيوف الذين يتوافدون عليه كلّ ليله، وكان من عادتهم تقديم الفتّ فيقولون: الركّ على الفتّ واللّحم شموم. ثمّ يحقّقون اللّحم، فيضعون قطعة لحم في رغيف، ويناولونها للذين شبعوا من الفتّ بالدور، وتكون قطع اللّحم متماثلة، وأحياناً يقعد عند قدر اللّحم شيخ هرم ضعيف النظر، فيسأل الغلام الذي يوصل الحقّة إلى صاحبها: من الذي عليه الدور؟ يريد أن يتعرّف إليه ليعطيه الحقّة المناسبة لمقامه، فيسميّه له، وحين يصل الدور إلى الحصّادين، يسأل المحقّق : على من الدور ؟ فيردّ الغلام: ضيف وقطّاع خروم. فيعرف أنّه نكرة لأنّ الغلام لم يذكر اسمه، فيقول: حيّاه الله. فيلفّ له عظماً في رغيف، وأحياناً رغيفاً في رغيف، ويضيف الأشرم: كنّا نتشاءم من هذا الشيخ عندما يوزّع اللّحم، ونفضّل الذي لا يسأل عن الأسماء والناس عنده سواسية، رغم أنّنا كنّا نستفيد من الخبز لنأكله في الغد، لأنّنا نظلّ نحصد بدون فطور أو غداء، ننتظر الطعام من العشاء إلى

العشاء، وإذا لم نجد الخبز نقتات من السبل الذي نحصده، نفركه ونلتهمه.

وحمد القوم العادة الدارجة في النقب وسيناء، التي توجب على الضيف حين يُقدّم له منسف اللّحم أن يمسك بقطعة جزلة قبل أن يبدأ الطعام، ويطلب إرسالها إلى ربّة البيت، قائلاً العادة يا محليّ. وإن قيل له: طالعة. أي أبقوا لها شيئاً، يتفقّد الضيف الخبير اللّحم ليتأكّد من ذلك، لأنّه يعرف لحم الشاة قطعة قطعة وقالوا: إنّ مردّ هذه العادة هو أنّ هؤلاء الناس يقدّمون لضيوفهم كلّ الطعام فيحرمون أولادهم ونساءهم، هدفهم الوحيد أن يبيّضوا وجوههم أمام الضيوف، وقال بدر: إنّه في كلّ مرّة يحدث فيها تحقيق يذكر الجلوس حقّة ابن عويمر، الذي كان دميماً قصير القامة أعور، أعطوه حقّة فطرحها فوق جاعده لتبرد، فانقضّت عليها حدأة وخطفتها بمخالبها، فضحك الحضور، وكأنّهم يريدون أن يقولوا: حتّى الطائر استصغر شأن ابن عويمر فخطف حقّته فتناول ابن عويمر بندقيّته، صوّبها تجاه الطائر الذي ارتفع رأسيّاً وأطلق عليه رصاصة، فوقع الطائر والحقّة معاً على جاعد ابن عويمر، فتناول ابن عويمر حقّته وألقى بالطائر في النار قائلاً: دعوه ينضج لتكملوا به حقق من ضحكوا. بعدها أخذ الناس يضربون المثل بابن عويمر في سداد التصويب وقيام الحظّ، في حين يقولون عن الرجل المسكين: الدجاجة تأكل غداءه .

لاحظ حبيس أبو سيف سيّارة عسكريّة تترك الطريق الترابي وتنحرف تجاه بيته، فملأ إبريق الفخار من الجرّة، وقابلهم أمام البيت، فسأله أحدهم: أنت حبيس ؟ قال: نعم. قال: أنت مطلوب للحاكم العسكريّ. قال: لا مانع لديّ، ولكن إن سمحتم لي بقضاء الحاجة أنتم مشكورون. فقال الآمر: لا بأس نحن في انتظارك هنا. مال حبيس وراء الكثيب والجنود لم ينْزلوا من السيّارة، وانطلق يجري بين الكثبان لا يلتفت وراءه إلى أن غاب في الأحراش، وغشي أحد أقاربه على شاطئ البحر قاطعاً عشرة كيلو مترات وهو يتجاوز الخمسين، ويحمل طيلة المسافة الإبريق الثقيل ولم يفطن إليه إلاّ حين قصّ قصّته على قريبه، فعلّق قريبه: جري الخوف ما هو كجري الطمّع، جري الخوف يأتي بالربع، دائماً تقول أنّك مريض ولم تزرنا منذ سنين، أمّا من الخوف فإنّك تجري كالحصان. فقال: بالفعل لقد خفت ولم أصدّق نفسي أنّني نجوت، ومنذ بداية الاحتلال وأنا حذر لم أنم في

البيت، لأنّني أعرف أنّهم أسروا بعض الفدائيّين من مجموعات مصطفى حافظ وكان من بين هؤلاء من بات عندي وهو في طريقه إلى الداخل، وربّما اعترفوا بذلك، وأهملت الحذر مع تراخي الزمن. أخذه قريبه إلى ماصية خالية تلتفّ فيها أشجار الجوّافة، ويشرب بيده من الماء، خلع ثوبه المبتلّ من العرق، غطّسه في الماء وعصره، ووضعه تحت شجرة وظلّ عارياً ويغنّي: بلّه واقعد في ظلّه. تسلّل حبيس بعد الغروب لزيارة صديق قديم له مجاور لقربيه علم بمرضه، وأخذ يحدّثه بصوت جهوريّ عن مشاجرة بين جيرانه، ولم يكن للرجل سوى بنات، وكلّما رفع حبيس صوته مقلّداً صوت أحد المتشاجرين، دخلت عليهما إحدى بنات الرجل تجري لأنّها تظنّ أنّ الضيف يصرخ على أبيها ويضربه، لقد ارتابت البنات منه لأنّ أباهنّ لم يخبرهنّ عن اسمه، ولم يدع أحداً من الجيران للمسامرة معه، ولم يهدأ لهن بال إلاّ بعد أن انصرف حبيس.

بدأ الناس يزاولون أعمالهم تحت وطء الاحتلال، حمل غيث أمّه الجريحة على جمل، وأتى بها إلى رفح من سيناء، بعد أن جرحتها رصاصة انطلقت من بندقيّة كان يعبث بها أخوه الصغير، فكسرت عظم وركها، وكان قد علم أنّ مريم أُدخلت إلى مستشفى الشفاء بغزّة وأجريت لها عمليّة جراحيّة، يومها قال لهم الطبيب أنّ عظمها مدشّش، لقد اخترقتها طلقة رشّاش ثقيل، شظّت العظم فقصرت الرجل المصابة عن الأخرى، وأجريت لها عمليّة جراحيّة، وتبرّع لها زوجها بالدم، وظلّت رجلها تعرج، أوصل غيث أمّه إلى غسّان الذي يعرف طبيب المشفى، ليدخلها بدون تحقيق واستجواب، ومكثت أمّ غيث أربعين يوماً تحت المعالجة، وطيلة مدّة علاجها لم يزرها أبو غيث إلاّ عندما جاء لأخذها، لخوفه من اليهود، تمنّى أن يظلّ بعيداً في الجبل ولا يراهم، فقال حين أضطرّ لدخول المدينة: ما يلزكّ على المرّ إلاّ الأمرّ منه.

أخبر غيث غسّان أنّ رقيباً مصريّاً أبلى بلاء حسناً في أمّ كتاف أثناء مهاجمة اليهود لها، وظلّ يقاوم إلى أن اقتحموا موقعه، وقال غيث: دخلت الموقع بعد أن تركه المهاجمين فوجدت الرقيب أنور ما زال حيّاً، والشظايا تمزّق جسده بعد أن أُلقيت عليه قنبلة يدويّة أثخنته بالجراح، فتظاهر بالموت فدعس جنديّ على رأسه، وكأنّه شكّ بأنّ فيه

رمق، فأطلق على ركبته رصاصة. فنقله غيث إلى مغارة في جبل وعر، حاول أن يحضر له معالجاً، ولكنّ جروحه تحتاج إلى عمليّات جراحيّة في مشفى، وحتّى في حالته الراهنة هم يخشون أن يكتشف أمره من قبل اليهود فتلحق بهم مسؤوليّة، والذي زاد الأمر سوءاً أنّ الذباب أخذ يبيض في جروحه المتقيّحة، فترى الدود ينوس ببطن ساقه المجوّفة، وأخبر حيدر بقصّة أنور، فأوعز إلى غسّان لأخذه إلى المشفى على أن تزوّر له بطاقة على أنّه فلسطينيّ من قطاع غزة، نقل أنور إلى غزّة بعد استطلاع الطريق خوفاً من حواجز التفتيش الإسرائيليّة، أُدخل المشفى، وأجريت له الفحوص، وتقرّر أن تغطّى ساقه بالجلد، فتبرّع له شابّ بالجلد اللاّزم.

كشف أنور عن هويّته لأحد الممرّضين، وطلب مساعدته للنّزوح إلى الأردن، وأطلعه على حقيقة أمره، فأخبر الممرّض الطبيب بما سمع من أنور، ولكنّ الطبيب تجاهل الأمر وكأنّه لا يعنيه لا من قريب ولا من بعيد، وأرسل برسالة عاجلة إلى حيدر يحذّره فيها من أنّ أنور ربّما يعترف على الأعضاء الذين قابلهم، وكلّ من ساهم في إحضاره وعلاجه إن أُخضع للتحقيق، وأخبره بثرثرته فوصل غسّان على عجل إلى المشفى، وحذّر أنور من الحديث مع أيّ إنسان كي لا يفتضح أمره ويعتقل، ريثما يستطيع المشي والحركة، ثمّ يسافر بخطّة مدروسة، ولم يلبث الأمر طويلاً، إذ وصلت رسالة عاجلة من الطبيب، يطلب فيها نقل أنور من المشفى فوراً، فوصل غسّان بشاحنة إلى المشفى يقودها الميكانيكيّ فؤاد، صعدا درجات المشفى وولجا غرفة أنور، فحمله فؤاد بفراشه وغطائه، في حين نزل غسان خلفه يحمل العصيّ وما يتساقط من متاع، فتح أنور عينيه فأمره غسّان بالصمت، واخبره بضرورة الخروج من المشفى، وأنّه سيمكث في بيت فؤاد هذه اللّيلة ريثما يتمّ استطلاع الطريق لنقله إلى الجنوب، لأنّ منظره مريب ويدعو إلى المساءلة، وعاد غسّان إلى الطبيب ليستجلي منه الأمر، فقال: زار ضابط إسرائيليّ طبيب المشفى ليجري إسعافات أوّليّة لجنود أصيبوا بشظايا قنبلة ألقيت على حافلتهم في ذكرى وعد بلفور، وبعد أن أنهى مهمّته طلب زيارة قسم الجراحة في المشفى، توقف عند سرير أنور، فعاين حالته وقال للطبيب المعالج: لا توجد لديكم التجهيزات الضروريّة لمعالجة هذه الحالة، سنحوّله لمشفى في

القدس. وقعد على كرسيّ بجانب رأس أنور، ولسوء الطالع كان هذا الضابط يتكلّم اللّهجة المصريّة لأنه من يهود مصر، فقال وهو يكتب ورقة الإحالة: انظر هذه آثار الحرب، يمكن أن تبتر ساقاك، فأنت عرضة للغرغرينا، لو أنّ عبد الناصر يقعد مع أشكول لحلّت الأزمة وساد السلام والوئام، وانتهت الآلام والمصائب. قال: تريد أن يقعد عبد الناصر وأشكول على طاولة واحدة ؟ قال: نعم وما المانع ؟ فردّ أنور: إذن عيّلت. فكرّر الضابط: عيّلت، ما دامت هذه آراءك ابق مكانك. ومزّق الورقة التي كتبها وألقى بها في سلّة القمامة وخرج من الغرفة منهياً جولته حنقاً، فحاول طبيب المشفى أن يوضّح له بأنّ هذا المريض يعاني من أزمة نفسيّة ولكنّه لم يعره أذناً صاغية.

أمضى أنور ليلته عند مضيفه، ولم يذق الطعام ولم يخرج للحمّام، وحزن فؤاد لذلك وكان قد أعدّ له وجبة دسمة من الدجاج، ولم يعلم أنّ أنور قد امتنع عن أكل كلّ ما يأتي من إسرائيل، كما أنّه يخجل من طلب المساعدة لولوج دورة المياه من أناس لم يألفهم، رغم محاولة غسّان إقناعه ليعزف عن فكرة الإضراب عن الطعام المنتج في إسرائيل، لأنّنا نرزح تحت الاحتلال، ومن أين سنحصل على قوتنا اليوميّ، هل نستطيع أن نحدّد الجهة التي نرغب في استيراد غذائنا منها، وهل لدينا قدرة لإنتاج ما نحتاجه بأيدينا وهل سيسمح لنا بذلك ؟ وعليه أن لا يخجل من طلب المساعدة لدخول الحمّام، والناس سيخدمونه بكلّ رحابة صدر، ثمّ أنّ عليه أن لا يثير تساؤل الناس أو يلفت انتباههم لقضيته، لأنّه يعيش في الخفاء، وليس من مصلحته الإثارة في هذا الظرف العصيب.

مكث أنور أيّاما في جنوب القطاع، وذات ليلة سمع إطلاق رصاص غزير ورأى قناديل كاشفة أضاءت المكان، فاستوضح الأمر فأخبر بأنّ هذا اشتباك مع دوريّة إسرائيليّة، فتجهّم وجهه وطلب سلاحاً ليدافع عن نفسه حتّى الشهادة إذا ما اقترب الخطر، قدم إليه غسّان وأخبره بأنّ هذا الاشتباك بعيد، وطلب منه التزام السكينة، فقال أنور: لا تتركني أعزل هكذا وتذهب عنّي أرجوك. فقال له: لا تخف، لن نتركك، والتحرّك الآن محفوف بالخطر، سأنقلك بعد قليل على ظهر هذا الحمار إلى ملجأ آمن، انتظر فقط لنرود الطريق. ورغم أنّ أنور درّب على اللّهجة المحكيّة في تلك المنطقة، ونسيان لهجته

المصريّة إلاّ أنّه إن مرّ بموقف عصيب نسي ما تعلّمه، ونطق بما حُذّر منه تلقائيّاً.

أعيد بعد تلك اللّيلة إلى سيناء، ووضع إلى جوار خصّ العجوز حوريّة، وهي تعيش بمفردها، ولا يلوج عليها أحد غريب، كانت أسنانها قد غادرت فمها باستثناء سنّين من القواطع الأماميّة في الفكّ السفليّ، بقيتا بقدرة قادر لتمسكا بقصبة الغليون، يداها معروقتان، بإمكان الناظر إليها مشاهدة شبكة العروق بأسرها، وكأنّها وضعت فوق الجلد المجعّد، ورأسها يرتعش رعشة خفيفة رتيبة، وكأنّ هذه الرعشة هي السرّ في استمرار حياتها كبندول ساعة الحائط، اقتربت كالمقيّدة تدبّ على عصا من جريد النخل، حفرت أصابعها لها مواضع على سطح العصا الأملس وبصوت هادئ سألت: عسى أن يكون هذا الشابّ بخير. أجابها غسّان: بخير بعون الله. قالت: علامه لا يقوى على المشي ؟ قال: إنّه مصاب من الحرب. قعدت القرفصاء، أمالت رأسها مقتربة من ساقي أنور المدودتين، تأمّلتهما جيّداً، فمدّت يداً مرتعشة، كالعصا التي تفوج بها النار إلى الركبة، سألت: أما تثني هذه الركبة ؟ قال: لا. تحسّستها ثمّ تفحّصت الساق الثانية، لعاب سال من فمها الذي رفض إفلات قصبة الغليون، زحفت إلى الوراء وقالت: تحتاج هذه الرجل المعقودة إلى تدليك باليدين على بخار نخالة العدس، فتحلّ عقدتها بإذن الله أمّا هذه المجرّحة، فيلزمها دهان بزيت الزيتون المغليّ مع نبات السموة. قامت لتحضر مقلى المنيوم وصرّة بها أوراق السموة اليابسة، كما بذرت حبّاً فتجمّع عليها الدجاج فأمسكت بديك ونزعت من ذيله ريشتين، وأخذت تغمس الريشة في الزيت وتدهن الجروح، والريشة تتوغّل في الفجوات والشقوق الرفيعة ثمّ تعيد الريشة إلى المقلى كلّما برد زيتها، فشعر أنور بلذّة فناولته الريشة وقالت: ادهن قدر استطاعتك، هذه السموة تطهّر الجروح وتقضي على الالتهاب، ولا تقرب الحشرات الجرح ما دام مدهوناً بالزيت. ثمّ عادت وأحضرت طنجرة صغيرة بها نخالة عدس وضعتها على النار، وطلبت من غسّان رفع الساق المعقودة بحيث تتعرّض الركبة للبخار المتصاعد من نخالة العدس، ثمّ طلبت من أنور تدليك ركبته برفق عدّة مرّات على البخار. استمرّ أنور في معالجة ساقيه، وبعد أسبوع صرخ: يا غسّان، قد انثنت الركبة، الحمد لله، وعادت الصابونة إلى مكانها السابق. وغدا أنور يمشي على عكّاز، وما

لبث أن رمى به، وأصبح يجمع الحطب والحشيش للعمّة حوريّة، واندمل الجرح، وبقيت آثار الندوب تغطّي الساق، وأفلح غسّان في إرساله مع زميل له لمرافقة قافلة مهرّبين إلى قرية البيضاء جنوب الأردن بأجر زهيد، بعد أن تعذّر ذلك قبل أسابيع لعدم مقدرته على المشي رغم العروض الماديّة المغرية. لقد نشأ حيدر نشأة وطنّة، درس الحقوق وتثقّف ثقافة عالية، وأصيب في الحرب الأخيرة، واستطاع أن يحصل على بطاقة بغير اسمه، وآثر البقاء تحت الاحتلال لمقاومته من الداخل، فبدأ بتشكيل الخلايا وتدريبها، واختار في البداية عناصر تربطهم به معرفة سابقة، فأمضى جولة في سيناء بصحبة أبي عليّ للتعرّف على طبيعة الأرض والبشر، أعجبته تضاريسها وخلوّها من الكثافة السكّانيّة وقلّة طرق المواصلات فيها، وبعدها عن الأنظار، فاتّخذ منها منطلقاً لمقاومة الاحتلال ومقرّاً للتدريب والاختباء، كما أنّها تعتبر مستودعاً للسلاح لا ينضب، ومكاناً مناسباً للتسلّل إلى مصر والأردن، وسبق له أيضاً أن اتّفق مع الطبيب الذي تربطه به مودّة على استقبال حالات للعلاج، كما ينبغي تدريب أفراد على الإسعافات الأوّليّة، كما حرص حيدر على سماع الأخبار وتحليلها وقراءة الصحف والاستماع إلى إذاعة العدوّ، وأنشأ مدرسة لتعلّم اللّغة العبريّة مستعيناً بكوادر جيّدة، وكان يختار الأشخاص المناسبين لمهمّات مناسبة، ويطبّق الشروط الأمنيّة بحذافيرها على نفسه أوّلاً ثمّ يطلب من رفاقه الالتزام بها، يعرف جيّداً طبيعة العدوّ، ويكرّر دائماً: إنّ اليهود لا يتحمّلون الخسائر البشريّة، أمّا الخسائر الماديّة فلا يكترثون بها، لأنّهم يعوّضونها من التبرّعات والمساعدات التي تنهال عليهم من الغرب باستمرار، تعايش مع الطبيعة الخشنة، تعلّم كيف يعجن ويخبز على الصاج، ولو أنّه في البداية احتاج إلى مساعد يصبّ له الماء ويضيف الدقيق وكلّما أصبح العجين قاسياً طلب إضافة الماء، وإن أصبح العجين مرقاً يطلب إضافة الدقيق، فعجن ما يكفي لعدّة أشخاص بينما كان هو وصاحبه فقط، وحينما رقّ الرغيف على الثفال وحمله بين يديه ليلقيه على الصاج تساقط مزقاً، جمعه فرقّه من جديد وأفلح في تلويحه بين يديه وطرحه على الصاج، ولكنّه تزحلق وتكوّم على الأرض، وبعد أن أنهى الخبز بمشقّة وجلس للغداء سأل صاحبه: كيف تذوق خبزي ؟ فجامله قائلاً: كالبسكويت. فضحك من قرارة نفسه.

كان على دراية تامّة بالتجارب الثوريّة الفلسطينيّة، وأبدى تعلّقاً بحركة الشيخ عزّ الدين القسّام، كما أنّه قام بدراسة تجارب حرب العصابات في كوبا والصين وفيتنام، وكان يتقن اللّغة الإنجليزيّة، ودرس سيرة لورنس وكلوب وجيفارا وكان معجباً به وترجم كتبه، كان يحترم الصغير ويوقّر الكبير، ويتمتّع بالإيثار، لا يخص نفسه بشيء دون رفاقه من لباس وغطاء وطعام، يتناوب معهم نوبات الحراسة كفرد عاديّ، بل يأخذ النوبات الصعبة، وإن سافر مع ثلاثة ومعهم جمل واحد تعاقب معهم عليه، وأحياناً يتخلّى عن عقبته لمصلحة أحدهم إن شعر بتعبه، ولا يرضى أن يركب أكثر من حصّته، حتّى لو تخلّى له مناوبة ولو كانت الأرض وعرة، ولو كان متعباً أو نعساً بل يوحي لصحبه أنّه ملّ من الركوب، ويفضّل السير على الأقدام، يختار الثقيل من المتاع ليحمله، كان لا يتورّع عن جمع باقي السجاير ولفّ واحدة جديدة منها، ويترك صاحبه يتمتّع بتدخين سيجارة بكر، وكان ودوداً عطوفاً كريماً، يقشّر البرتقالة بعناية، ثمّ يفتحها ويفرّق فصوصها لتكون سهلة التناول، ويناولها لجليسه، ويختار من الفاكهة الأفضل لأصحابه، ودائماً يأكل هو الحبّة التي بها إصابة، أو قد تسرّب إلى جزء منها الفساد، فيزيل هذا الجزء المتعفّن ويأكل الباقي، ولا يلقي بها رغم وجود الكثير من نوعها، ويهتمّ بالنظافة حتّى في أصعب الظروف، فيغسل يديه بالماء والصابون، يحسن الاستماع ولا يقاطع محدّثه، ويجعل له مخرجاً إن ناقشه وغلبه بالحجّة الدامغة، ويتغافل عن هفوة الصديق، وهو دائماً عنصر إيجابيّ شجاع، درس الايدولوجيّات المختلفة، فأرسى قاربه على الالتزام بالفكر والنهج الإسلاميّ العصريّ الثوريّ، يهتمّ بالرياضة ويتدرّب على المشي في الظلام الدامس، ويستفيد من خبرة الأدلّاء، ويعرف مواقع النجوم خصوصاً النجم القطبيّ والدبّ الأكبر والأصغر، ويعلّم مرافقيه على أماكنها وكيفيّة العثور عليها والاستدلال بها، مع ذلك فإنّه كان سائراً ذات ليلة مع حمزة وولديه في سيناء، وقارب اللّيل على الانتصاف، فطلب منهم أن ينتظروه قليلاً، فابتعد عنهم لقضاء حاجة، فقعد خلف شجرة بحيث لا يرى ولا يسمع من قبلهم وهو في مقعده، أوقفوا الجمل في المكان الذي تركهم فيه، وحين شعروا بتأخّره لم يرغبوا في ازعاجه، ولم يخطر لهم ببال أنّه ضلّ مكانهم وتاه، أمّا هو فلم يناد أو يشعل ناراً، بل اكتفى بالذهاب إلى

كلّ جمهور أسود ظنّاً منه أنّه الجمل وجماعته، فيكتشف أنّه شجرة أو شجرتان متشابكان، ويواصل البحث بصمت وعندما تأخّر أكثر من المعتاد ذهبت بهم الظنون كلّ مذهب، فترك حمزة ولديه عند الجمل وشرع في البحث عنه، أخرج أذنه من تحت العمامة ليصغي لعلّه يسمع صوت مشيه أو حركته، يحني ظهره عسى أن يلمحه متحرّكاً، فسمع حمزة نباح كلب من مكان بعيد، وقدّر أنّ الكلب ينبح على حيدر إذ تندر الحركة في هذا الهزيع الأخير من اللّيل، وقدّر أنّ صاحبه ضلّ طريقه فاقترب من بيت مضروب في الصحراء، وخشي أن يثير فضول أصحاب البيت إن هم رأوه فأسرع إليه فوجده يحتمي بجذع شجرة ويذود الكلب عن نفسه بعصا قد قطعها منها، فاصطحبه حمزة ولحقا بالجمل، وأسكنه عند العجوز حوريّة مكان أنور، حيث كان لها ولأغنامها مجموعة أخصاص في منخفض من الأرض، فنصب لخصّ منها بطانة من الخلف، فكان حيدر يشيل حطبة ويدخل إلى الخصّ ثمّ يعيد الحطبة مكانها، ويتمدّد في هذه المساحة الضيّقة، ويقضي سحابة نهاره لا يخرج إلاّ للضرورة القصوى بعد أن يستطلع المنطقة من فروج الخصّ، وفي اللّيل كان يسير على التلال المجاورة يمرّن رجليه، وذات صباح حدّثته العجوز بحديث لم يستطع فهم ما تريد، قدم غسّان جالباً اللّيمون والتموين والدواء من المدينة فأخبره بشأن العجوز، فأخبرت غسّان أنّها قلقت لأنّها وجدت أثر الضيف قد تجاوز منطقتها القريبة، بل وجدت آثاره قرب درب الورّاد، وهم إن رأوها في هذه المنطقة فسيدركون بأنّ ملاذه قريب فيكتشف أمره، وكان وقع خطاه على الأرض كبيراً جدّاً مقارنة بآثار البدو الصغيرة، فقالت حوريّة: إنّها طلبت منه أن يجرّ حطبة خلفه لتمحو أثره إن رغب في التجوّل ليلاً كي لا يشاهد أثره في الصباح. فتعجّب حيدر، فقال غسّان: لا تتعجّب من ذلك، فهؤلاء أهل فراسة وقيافة، وشرح له درساً في قصّ الأثر وتتبّع الجرّة.

آثر حيدر أن يصطحب معه رجلاً أسود كان يعمل ضمن مجموعات مصطفى حافظ، ولقد تقدّم به السنّ اليوم، ولكنّه غدا مثار تساؤل من قبل بدو سيناء: أنت تابع لأيّ قبيلة ؟ من حبّابك ؟ وذات مساء عاد إلى بيته، وحدّثته إحدى زوجتيه أنّ ابنته لأمّ مطلّقة قد استقبلت أقارب لهم يحملون الجنسيّة الإسرائيليّة من النقب. فاستشاط غيظاً، وضرب

البنت وأغلق عليها الغرفة، وعاد ليبات عند زوجته، فما كان من ابنته إلاّ أن قفزت من النافذة، وذهبت إلى مركز لليهود، وأخبرتْهم عن أبيها وصحبه وبوجوده في البيت، فقدمت دوريّة وطوّقت البيت واعتقلته، وقد أدلى باعترافات قاتلة ؛ إذ اعترف بعلاقته بحيدر الذي يقيم في سيناء، غيّر حيدر مكانه فوراً إلى مكان لم يعرفه المعتقل، وأمر بالكمون كي ينجلي الأمر إذ ألقى هذا الحدث بظلال كئيبة على الوضع.

سرى أبو عليّ إلى المدينة، وعند عودته ضحى لاحظ حركة غريبة على الطريق المؤدي إلى بيته المتاخم للمخيّم، سيّارات عسكريّة إسرائيليّة تجوب المكان الناس يطلّون برؤوسهم ثمّ يلوذون ببيوتهم، فقال في همس: هذا ما كنت أتوقع لقد داهموا بيتنا، سترك يا ربّ، تردّد بعض الوقت ثمّ عاد مبتعداً عن المنطقة، وإذ بهاجس يقول له: أتهرب بجلدك وتترك اليهود يجرّون نساءك ويحقّقون معهنّ، وربّما حبسوا أحداً من أبنائك، أرجع إليهم وكن كبش الفداء، إن جنّ ربعك لا ينفعك عقلك، لا تجبن أتظنّ أنّك ستعيش عمر النسر، أخذته الحميّة، فاستهان بالخطر، وآثر التضحية على الهروب والسلامة، دخل منطقة الطوق، فابتهج لقدومه الحاكم العسكريّ، قبل قليل كان الجنود يجرّون ابنته إلى السيّارة، فتتشبّث بها أمّها وزوجة أخيها وأختها الصغيرة، يصول عليهنّ الجنود بالضرب والركل والتهديد، فيصرخن ويستمتن وهنّ متشبّثات بها، وأخيراً عدل الجنود عن أخذها إلى القيادة مؤقّتاً، وأدخلوها إلى إحدى غرف البيت، وهي غرفة الديوان، وهي ضمن صفّ من الغرف الطينيّة المسقوفة بالخشب والحطب المغطّى بالطين المجبول بالتبن، ودخلت معها أمّها سالمة، يسألها أحدهم: أين أخوك غسّان ؟ قالت: إنّه يعمل في دكّانه عند البئر. سأل: ما أسماء أصحابه الذين يتردّدون عليه ؟ فتشدّ أمّها على يدها، وتعضّ على شفتها السفلى، وكأنها تقول لها: لا تنطقي بكلمة واحدة. والبنت تعرف أنّ أيّ كلمة يمكن تفيد المحقّق، ولكنّها حريصة على أن تجيب المحقّق بإجابات عامة غامضة، ليعتقد أنّه أحرز منها فائدة ولكنّ الأمّ تخشى من أيّ كلمة، تريدها أن تصمت أو تقول: لا أعرف أحداً. لا أعلم. لم أبصر شيئاً. وهي تخاف أن يستدرجها المحقّق للإدلاء بمعلومات خطيرة والبنت تعلم أنّ هذا الموقف السلبيّ لن يقنعهم، وهي تفضل أن تدلي بكلام معروف للجميع وبديهيّ،

فتضايق المراقب من تحفّز الأمّ وهمهماتها وإشاراتها وتقطيبها وامتعاضها، فحذّرها من التعليق، وأمرها بالتزام الصمت وهدّد بإخراجها من الغرفة، فسأل البنت: أين أبوك ؟ قالت: ذهب إلى المدينة في الصباح. فتعترض الأمّ، وتتوجّه للمحقّق قائلة: سلوني أنا، هذه البنت لا تعرف شيئاً. فيمسك المحقّق بذراعها، ويشدّها ليخرجها من الغرفة، فتتشبّث بإطار الباب بقوّة، فيشدّها من شعرها القصير الأشيب بعدما سقط قناعها، ويسحبها خارج الغرفة، أعادت قناعها على رأسها وصاحت: سأشتكي عليكم إلى الحاكم، أهكذا تتصرّفون مع النساء، أين الحاكم ؟ فقال أحد الجنود الواقفين على الباب: هذا هو الحاكم الذي جرّك. فقالت وهي تطلّ برأسها داخل الغرفة والجنود يحولون دون دخولها: يستحيل أن يفعل حاكم بأمّ عجوز هكذا، أروني الحاكم الحقيقيّ، الحاكم يجب أن تكون لديه رأفة وإنسانيّة. وهي صدّقت كلام الجنديّ بأنّ الذي جرّها هو الحاكم بعينه، ولكنّها ظلّت تقرّعه بعبارات: الحاكم لا يهاجم البيوت الخالية من الرجال بهذه القسوة، الحاكم لا يروّع الأطفال ويصفع النسوة. امتعض الحاكم من كلامها فطلب من مساعده مواصلة التحقيق، وخرج من الغرفة، فتصادف خروجه مع وصول أبي عليّ، فاقتاده إلى السجن، وطلب من الجنود أن يبقوا محاصرين للبيت الطينيّ ويبنوا خيمة على سطحه.

استخدمت مع أبي عليّ كافّة أساليب التعذيب الجسديّة والنفسيّة، تارة يقولون له سنحضر أولادك أينما كانوا، وبعد حين يقولون: اسمع صراخهم، هاهم تحت التعذيب، ألا ترغب في زيارتهم ؟ إنّهم في الغرفة المجاورة، قم وانظر حالهم. فيرفض طلبهم ويقول: أنا لا أذهب إليهم، الصغير هو الذي يأتي للكبير. فطلب منه المحقّقون الاعتراف بأنّ أبناءه ينتمون إلى المخرّبين، وهو يعلم بهم ويعمل معهم، فرفض الاعتراف، فقال له المحقّق: إنّ جسمك نحيف لا يحتمل الضرب وبرنامج التعذيب، من الأفضل لك أن تعترف وإلاّ فإنّك ستموت تحت التحقيق. فقال: عذّب ما شئت، فأنا أتحمّل ولن أموت إلاّ حين يبلغ عمري ثلاثاً وستّين سنة كجدّي وأبي، افعل ما بدا لك، فلن أغيّر كلامي وليس عندي كلام غيره. وبقي على هذا المعدّل أسابيع، ولم يحصل منه المحقّق على فائدة، فيئس منه، وعلم من الكشف الطبّيّ أن أحد أضلاع صدره قد كسرت وغرز طرفها في رئته، قال له: البس

طقم أسنانك لأفهم كلامك. فأشار عامر إلى طقم أسنان مهشّم ملقى في زاوية الزنزانة وقال: لقد كسرته بلكماتك التي وجّهتها إلى فمي. فقال المحقّق: أنا أنهيت التحقيق معك، وسيستلمك غداً ضابط آخر، وإن حصل منك على اعترافات جديدة فأنت بذلك تكون قد تراجعت عن كلامك، وسيظهر أمام المدير أنّه أبرع منّي في انتزاع الاعترافات، وسينال ترقية على حسابي. فقال: لو عندي شيء لأخبرتك به، ومهما تغيّر المحقّقون وتبدّلوا فهذه بضاعتي.

زار مندوب الصليب الأحمر أبا عليّ، وأعطاه ورقة ليكتب رسالة إلى ذويه لينقلها له فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

تحيّة طيّبة وبعد، أرجو الله أن تصلكم رسالتي هذه وأنتم بخير وعافية، وأخبركم بأنّني بصحّة جيّدة، أرجو أن تهتمّوا بزراعة الأرض وسقي المزروعات ولا تهملوها مهما كلّف الأمر، سلامي إلى الأقارب والجيران، أرجو الردّ على رسالتي هذه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلت هذه الرسالة إلى البيت، وأرسلها الصغير يوسف إلى غسّان في مخبئه، فقرأها وطلب من يوسف أن يردّ عليها بما يلي بخطّ يده:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وبعد، وصلتنا رسالتك وحمدنا الله على سلامتك، ولا يكن لك فكر، فنحن مواظبون على سقاية الشجر والعمل في الأرض، ولم ينقصنا إلاّ أحاديثك الطيّبة التي كنّا نستمع إليها في السهرات، والقصائد التي كنت ترويها لنا، أرجو أن تكتب لنا في الرسالة القادمة القصيدة التي منها:

يا شيخ سلّوت سلّم ع السلنتاوي

اللي سلت قد سلت واللي ما سلت ناوي

عندما وصل الردّ إلى أبي عليّ عرف أنّ أحداً من أبنائه لم يُضبط، وهم في نيّتهم إلى الخروج من منطقة المطاردة، انتهزت أمّ عليّ تردّدها على الأرض للعمل والسقاية،

وأرادت أن تنقل أربع بنادق من مكانها الخطر إلى مكان آمن، يمكن لأولادها الوصول إليه، أخرجت البنادق من تحت الكرمة، وضعتها ملفوفة برداء أسود على ظهر الحمارة، وغطّتها باللّبش، وأركبت فوقها ابنتها الصغيرة، وسارت مع الطريق المحاذي لسكّة القطار في وضح النهار، كانت تقول سمعت من والدي رحمه الله مثلاً يقول: اقترب من الخوف تأمن. تصادف مرور القطار وتسير إلى جانبه سيّارة عسكريّة لحراسته، فجفلت الحمارة وأوقعت حملها على الأرض، صرخت الصغيرة، فوقفت السيارة، وترجّل منها الجنود، فردت العجوز قناعها على ما ظهر من البنادق، قال أحدهم: أتريدين مساعدة ؟ ردّت على عجل: شكراً، لقد جفلت الحمارة منكم، وخافت البنت، سأتدبّر أمري على مهل. فركب الجنود السيّارة التي انطلقت لتباري القطار.

طرحت فكرة خروج حيدر من سيناء إلى مصر أو الأردن، لقيادة عمل مجموعاته من هناك، وستتاح له فرص أفضل للقيادة من ناحية الإمداد الماديّ والتسليحيّ، ويدعم هذه الفكرة أنّ الأمن الإسرائيلي يسعى سعياً حثيثاً للقبض على حيدر، وأصبح وجوده محفوفاً بالمخاطر، بعد اعتقال عامر وازدياد نفوذ اليهود هنا، إذ بثّوا العيون في محاولة منهم لإحكام السيطرة على سيناء، ثمّ أنّ شكل حيدر مثير للانتباه، فهو أبيض الوجه مديد القامة جسيم، يمكن تمييزه بسرعة من بين البدو السمر النحاف، ولكنّ فكرة مغادرته للمنطقة لم ترق له، وبعد جدال طويل وافق على الخروج على أن يخرج معه كافة المطلوبين والمطاردين، ليمكثوا في الخارج فترة وجيزة، ويشاع خروجهم لتكفّ عنهم المطاردة، ثمّ يعودون سرّاً وقال: أنا لا أمتاز عن أيّ منكم بشيء، ما أرضاه لنفسي، أو ما رضيتموه لي ألزمكم بقبوله لأنفسكم. كان جادّاً وصريحاً، وقرن مصيره بمصير أناس بسطاء، كان همّهم نجاته وسلامته، حتّى لو ضحّوا بأنفسهم جميعاً ثمناً لحياته، واستمراره في قيادة العمل.

أمست برصة مهابة في العجرة هي نقطة التجمّع والانطلاق، فأحضر عادل أبو يحيى جملين لحيدر وعليّ وغسّان وشهاب، وناقة حمزة له ولولديه، أمّا الدليل جاسر فمعه ناقة صغيرة الحجم، يشفق الناظر إليها من ركوبها، بل يشكّ في مقدرتها على السير

أميالاً معدودة في الوعر دون أن تهوي وتتحطّم، وكان جاسر يحتفظ بجلد حوارها الذي ذبحه نذراً، فإن اشتاق لحليبها نفخ هذا الجلد ليصبح بوّاً، وأدناه منها لتشمّه فترزم وتدرّ فيحلبها، وصبّ لها مرّة ماء في هذا الجلد فقال مرافقه: لقد حقّقت المثل القائل: كم فاطر شربت في جلد حوارها. واشترط جاسر عليهم أن لا يشاركه أحد في الركوب على ناقته، ولا يُؤخذ شيء من مائه، وتقاضى كراءه، وأحضر عادل كذلك ما يلزم من تموين وماء للرحلة.

تحرّكت المجموعة نحو الجنوب مع العصر، كانوا يمشون متفرّقين كي لا ينظر إليهم على أنّهم كتلة واحدة، ظلّوا يبارون النقب إلى أن بلغوا المنطقة الجبليّة الوعرة، والآن عليهم السير ليلاً والاختباء نهاراً، وبعد أن تجاوزوا القصيّمة واقتربوا من الكنتلّة تبدّى أمامهم جبل عريف الناقة بشموخ متجاوزاً ما حوله من جبال، فقابلوا بالصدفة أحد المهرّبين، وهم يعرفونه سابقاً، فعرف نيّتهم وحذّرهم من طريق النقابات القريبة من أيلة، لأنّ اليهود قاموا برصدها بعدما طرقت كثيراً ثمّ إنّها ممرّات إجباريّة ضيّقة محصورة تسهل السيطرة عليها وأشار عليهم بدخول النقب بدل محاذاته من سيناء، فوردوا في هذه اللّيلة بئر بدى، وتزوّدوا من مائه، ووجدوا حوله آثاراً كثيرة، سأل حيدر الدليل عن مدى خبرته بهذا الدرب فقال: طرقت هذا الدرب العام الفائت، ومعي ضابط أمضى عندي حولاً وهو في كلّ يوم يخبرني أنّه يعرف مخازن أسلحة وأغذية مدفونة، فأذهب معه إلى المكان الذي يأتي لي بأوصافه، ونحفر دون نتيجة، واكتشفت لاحقاً أنّه يظنّ أنّنا لا نستضيفه ونحافظ عليه إن لم يكن ذا فائدة، ولم يكن هذا في الحسبان، لقد تعوّدنا عليه كواحد من أسرتنا، وحين أخذته لأوصله إلى الأردن بكى الأولاد، ولقد اجتزنا هذه المنطقة في فصل الشتاء، والماء متوفّر في الغدران والصنوع، وحملنا أمتعتنا على حمار، وهي غلطة قاتلة، فالحمار لا يبرك، وإذا نهق يسمع القاصي والداني ولا يمكن إسكاته، وفي اللّيلة الأخيرة سقطت منّا الكيلة التي نغلي فيها الشاي، ولا نملك إلاّ وعاء خشبيّاً، فاهتديت إلى طريقة وأعددت له شاياً، فتعجّب جدّاً إذ أوقدت ناراً فوق حصى في بطن الوادي، وكان بعضه ينفجر كالرصاص من الحرارة، وصببت الماء في الوعاء الخشبيّ، وأذبت فيه السكّر ووضعت حفنة من الشاي، وأخذت أتناول الحصاة المحمّاة بملقط من

الأغصان الخضراء، وأغمرها في الإناء ليمتصّ الماء حرارتها، وأطرحها جانباً، وهكذا إلى أن غلى الماء، وبعد قليل من الجهد شربنا شاياً فريداً من نوعه، وقال صاحبي: هذه واحدة لا تنسى، أمّا صناعة القرص وطبخ البطّيخ الصغير وشيّه وعمله مخلّلاً فقد اعتادها، فقال لي بعد أن أوصلته وأعطيته أجرة الركوب إلى عمّان: لن أنسى لك معروفك وإن تذهب معي إلى السفارة ستكافئ، وسأردّ لك كلّ ما أنفقته عليّ، وسأخبر القيادة بما فعلت وأعطيهم اسمك وعنوانك إن لم تذهب معي ليكافئوك بعد تحرير سيناء، فقلت له: لا أريد منك شيئاً، إنّما فعلت ذلك لوجه الله، وأنّي مسامحك دنيا وآخرة، وأنت مكثت عند أهلك، رافقتك السلامة. ولم أودّع من هو أعزّ منه في حياتي لقد خنقتني العبرة حين صافحته، ولم أقدر على النظر إليه.

كان الدليل يدقّق النظر في الجروف المجاورة ليرى أثراً أو علامة، لأنّ العابرين غالباً ما يضعون علامات يستدلّون بها عند عودتهم، كأن يضع أحدهم ثلاثة أحجار فوق بعضها البعض، كلّما تعدّدت عليه السبل ليحدّد واحدة منها ينبغي أن يسير معها، ويفهم جاسر من ذلك أنّ هذه الدرب مطروقة، وينظر إلى الأرض ليستدلّ بأثر أو ببعرة يفركها بين أصابعه ليعرف زمن آخر مرّة طرقت فيها هذه الدرب، لا يبرح النظر إلى رؤوس الشعاب، ويقول: إذا رأيت أنّ رؤوس الجبال مخضرّة كأنّها مغطّاة بالعشرق فابحث عن الماء فهو قريب منك، وقبل أن تغرب الشمس يسلّم رسن ناقته لأحدهم، ويصعد جبلاً عالياً ويخرج منظاره، ويشرع في غربلة المنطقة التي سيجتازونها اللّيلة، اجتازت القافلة أرضاً مغطّاة بحجارة الصوّان، ومع سير الإبل والرجال تحتكّ الحجارة ببعضها فيشعّ شرر متواصل، كأنه سنا برق خافت يخيل من بعيد، وبدت أضواء إحدى مستعمرات النقب تتلألأ كالعقد تلوح فوقها الكشّافات القويّة، ويطبق حولها الظلام الدامس من جميع الجهات، وكأنّه يزحف لالتهامها، وعند منتصف هذه اللّيلة وبعد استراحة قصيرة لمواساة الأحمال استؤنف السير، فلاحظ حمزة أنّ الدليل يسير بهم في الاتجاه المعاكس لمساره قبل الاستراحة، فنبّهه لذلك، فتساءل: أمتأكّد أنت من ذلك ؟ قال: نعم. وكان نور القمر يسطع وهو يتجوّل في السماء بلا منازع، فتردّد همس بين أفراد المجموعة: قمر الدليل، وعاد

بنا من حيث أتينا. فقال غسّان: العود أحمد. أخذ حيدر يتفقّد السماء بحثاً عن النجم القطبيّ بدلالة الدبّ الأكبر والأصغر، ووقف الدليل وغطّى رأسه ببطّانيّة ودار حول نفسه عدّة دورات وغزّ رأسه في الأرض، رفع الغطاء وانطلق قائلاً: اتبعوني، ولا يكلّمني أحد. وبعد أن سار مسافة سأل حمزة: كيف ترى مسيرنا الآن ؟ قال: أراه في الاتجاه الذي سرنا عليه أوّل اللّيل. فقال جاسر: الحمد لله.

إنّ السير في منطقة مفتوحة لا طرق فيها ولا ممرّات يحتاج إلى مهارة ودقّة في تحديد الاتجاه، إذ غالباً ما يعترض المسير وادٍ عميق أو رأس نابٍ، فيقتضي الأمر أن يُدار حول هذا المانع، واعتاد حمزة دائماً أن يسبق المجموعة بعشرات الأمتار مستكشفاً للطريق، فيمازحه عليّ حين يراه يثني قامته أو يقعد ليدقّق النظر في منظر شيء بدا له مريباً، فيحصبه بحصاة فتسقط على مقربة منه فتزداد شكوكه في الجسم المريب، فيمدّ يده إلى المجموعة طالباً منها الوقوف والتريّث، وينبطح على الأرض، فيحصبه عليّ بأخرى لتسقط قريبة منه فيكتشف مصدرها، يضحك ويواصل الاستطلاع الآني، وحمزة لم يركب الجمل طيلة الرحلة، ولربما قطع المسافة أكثر من مرّة لأنّه غالباً ما يسبق المجموعة ثمّ يعود إليها، هذا شأنه في اللّيل أمّا في النهار فهو سبّاق للمّ الحطب واكتشاف المكان المناسب للإكمان، ويعجن العجين ويشعل النار ويضع فيها القرص، ويجهّز الشاي والغموس، وإن رأى أنّ أحد الأفراد قد نام متوسّداً حجراً، رفع رأسه عن الحجر برفق، وذكر اسم الله، ووضع تحت الرأس بطانيّة أو كيساً ليّناً وإذا لحقته الشمس وشرد عنه الظلّ، يفرد له البطانيّة ويربطها بأغصان الشجرة، ويعصمها من أسفل بحجر كي يذريه عن أشعّة الشمس، وبعد الأكل ينظّف الأواني ويضعها في الأكياس، ويطفئ النار كي لا تدخّن أو تفوح لها رائحة تثير الانتباه، يقوم بعمله هذا دون حضّ أو تحريض، وكأنّه مطبوع على ذلك، ولا ينتظر من أحد أن يشكره أو يمدحه أو يخدمه في اليوم الثاني، وهذا لا يعني أنّ بقيّة الأفراد سلبيّون، ولكن عمل حمزة يصدر عن صدر رحب، الشيء الوحيد الذي يحرص على حضّ المجموعة على عمله هو الصلاة، وكأنّ ثوابها وأجرها عائدان إليه شخصيّاً.

اعترضت الطريق سيّارة وقفت في قلب الوادي، تحيط بها الأشجار والبوص،

تبدو وكأنّها كمين مؤكّد، والمرور بها إجباريّ، ومن مراقبتها والاقتراب منها زحفاً لم يسمع حولها صوت ولا بدت حركة ولا لمع ضوء، ألقيت عليها حصاة صغيرة فلم يتغيّر شيء، ثمّ حصاة أكبر وظلّ الوضع على حاله، فتبيّن بعد تدقيق وتمحيص أنّها من مخلّفات الإنجليز، كانت قد سقطت من أعلى الجبل ولم يكن بالمقدور انتشالها، وكم أخافت هذه السيّارة من بشر، فعادوا أثرهم أو لفّوا مسافة بعيدة، وهي جوفاء صدئة يعشعش فيها البوم.

كان من المفترض أن تقطع المجموعة طريقين مزفّتين عريضين، ثمّ تصل إلى وادي عربة والحدود الأردنيّة، فتدخل الأمان، فيصبح بإمكانها السير نهاراً، ومرّت أثناء سيرها مع الفجر بوادٍ ربي فيه شجيرات لها نوّار أصفر، يكتّ وبره بمجرّد تحريك أيّ غصن منها، ويتطاير في الفضاء، فتلوّنت المخلوقات والأحمال باللّون الأصفر، وبعد أن قطعت المجموعة الطريق الثانية، ومشت أميالاً بعدها زيادة في الأمان، وكانت قد اجتازت عدّة مراشم للأثر، يقصّها اليهود صباحاً، حلّت المجموعة تلالاً جرداء عليها أشواك، وحسب الوصف السابق فأنّهم بلغوا المأمن الآن، فتناولوا طعام الإفطار، وبزعقوا الماء إذ توضّأ البعض، وربّما غسل آخرون رؤوسهم، ذهب غسّان برسالة ليوصلها إلى الطريق الشرقيّة التي يسمع منها دويّ السيّارات، والاعتقاد السائد أنّها تصل العقبة بعمّان، كانت النيّة أن تعطى الرسالة إلى أيّ سائق ليوصلها إلى مكتب المنظمّة في عمّان، ليخفّ نفر من المكتب لملاقاة هؤلاء القادمين من الداخل، الذين لا خبرة لهم في الأراضي الأردنيّة، حتّى الدليل سيعود أدراجه لأنّه أنهى المهمّة الموكلة إليه، سار غسّان ساعتين فاقترب من الطريق، احتار في كيفيّة مقابلة الناس والتحدّث معهم، كان يمشي مع وادٍ تقطعه الطريق على عبّارة، فانزوى خلف شجرة قد عرّى جذورها السيل، فمالت ويبس ورقها، أخرج تبغه ولفّ سيجارة ليكتسب جسارة ليحدّث الناس بحديث مقنع، إنّه لم يكلّم أناساً غرباء منذ مدّة، ينظر إلى جسمه فيراه نحيلاً يرتدي ثوباً ممزّقاً تلوّن باللّون الأصفر، لم يلاحظ غسّان أنّ أحداً من السائقين أو الركّاب كان يرتدي كوفيّة حمراء، فارتاب من ذلك، واختبأ خلف الشجرة ذات الأغصان اليابسة، وتوالى مرور السيّارات المدنيّة والعسكريّة، وإذ عينه لا تتكرها، سيّارات إسرائيليّة بأرقامها وكتاباتها، وسلاح الجنود وشاراتهم وأعلامهم فعاد مع أثره

في الوادي، وحين ابتعد قليلاً أراد أن يختصر المسافة، فجرى بقدر استطاعته، عثر في طريق عودته على بعيرين أجربين أدبرين هزيلين، سمع رغاء أحدهما بمجرّد أن أطلّ عليه، إذ كان كلّ إنسان بالنسبة لهذا البعير هو آتٍ ليقصّ وبره ويطليه بالقطران والكبريت، واقتصر اهتمام البعير الآخر على مراقبة غراب جسور يتحيّن غفلة منه لينقضّ على دبرته المدماة وينهشها، ولم يلحظ غسّان آثاراً لآدميّين باستثناء أثر رجل قادم من الشرق ينتعل صندلاً أردنيّ الصنع وجد جماعته يصلّون الظهر جماعة، انتظر لحظات لينهوا الصلاة وكأنّه على جمر يروح ويغدو قربهم، ينظر إلى السماء فيرى الطائرات المختلفة ويسمع دويّ السيّارات وكأنه قادم في طريقه إليه، أراد أن يخبرهم بما رأت عيناه بهدوء، بأسلوب لا يثير الرعب والإرباك، فكّر في ذلك طيلة المسافة التي قطعها إليهم، لقد روّض نفسه لضبط أعصابه، بادره حيدر: بشّر هل بعثت بالرسالة ؟ فقال: الطريق الموالية لنا لا زالت في المنطقة المحتلّة، لم نصل إلى الأراضي الأردنيّة بعد. انقلبت الفرحة إلى كآبة على الوجوه، رغم أنّهم تجرّعوا الصدمة برفق، لكنّها كانت مؤثّرة، احتبس الكلام في الحناجر، اقترح عليهم غسّان أن يطلقوا الإبل عارية، لأنّ منظرها مألوفاً، وكأنّها لرعاة من أهل النقب ويختبؤوا إلى الغروب، قال حيدر: أيّها الإخوان الأعزّاء أنا لن أسلّم نفسي إذا ما طوردنا أو هوجمنا، ولن ألزم أحداً بهذا القرار. فساد الهرج والهمس، فقال غسّان: نحن أمّرناك على أنفسنا، عليك أن تتحدّث باسمنا جميعاً وتعطي أمراً، فقال: أنا لا أجبر أحداً على قرار أراه لا يناسب الجميع، أمّا بالنسبة ألليّ فأنا لا أريد بأيّ شكل من الأشكال أن يقبض عليّ اليهود حيّاً، علّق عليٌّ موجّهاً كلامه لحيدر: ما رضيته لنفسك رضيناه لأنفسنا جميعاً، نحن همّنا دائماً المحافظة عليك وحمايتك، إذن فلندافع عن أنفسنا، إذا ما وصلنا اليهود بما تيسّر لنا من إمكانات. مرّت الساعات بطيئة متثاقلة، وحين زحف ظلّ التلال وغطّى مشاريقها، وقبل أن تغيب الشمس ببرهة وجيزة، أسرعت الإبل نحو الشرق، مرّ ت مع الطريق قافلة سيّارات عسكريّة، وكان قد قطع الطريق بعيران من القافلة، بينما بقي آخران غرباً، ومع انتصاف اللّيل اعتلت الإبل جبال الشراة، وظهر ضوء خافت لمخفر غرندل الأردنيّ، وبدأ البحث عن الماء، وأغراهم على ذلك عثورهم على بعر الماعز الذي ينبئ بوجود الماء، لأنّ

العنْز لا تصبر بدون شرب يوماً واحداً في الصيف، عشروا في الصباح على ثميلة، وكان قطيع الأغنام يربض حولها، وعندها راعٍ وعجوز، فاندفعوا إلى الماء، حذّرهم الراعي: لا تشربوا كثيراً، اشربوا من خلال الحطّات، اخشوا العلق. وشربت الإبل، ونثرت ناقة حمزة دودة تبرغلت بالتراب، وظلّت تتلوّى، أحضر لهم الراعي نبات الجعدة المرّ، وطبخه لهم حمزة بدل الشاي، وناول كلّ واحد فنجاناً وقال: إن نزلت بلاداً وخفت من وخمها فكلْ من ثومها وبصلها. ساروا مع أحد الأودية سحابة يومهم، فلحق بهم شابّ على بعير يتبعه كلب صيد، فناولهم صاية، وقال: هذه وجدتها على أثركم، وأظنّها تخصّ ذاك الرجل. وأشار إلى حيدر، ولم يخب ظنّه، وتفرّس الوجوه، وأدرك أنّهم غرباء، ولا يحتاج ذلك منه لمشقّة كبيرة، إذ يعرف منطقتهم بمجرّد رؤيته لوسم الإبل، وسألهم: هل تريدون مساعدة ؟ شكروه فذهب في طريقه، وندموا في اليوم التالي لأنّهم لم يستعينوا به على الخروج من جبال الشراة الوعرة، إذ عادت بهم الطريق الإجباريّة إلى أن شارفت على وادي عربة من جديد، وأنهكهم السير في بطون الأودية بما يعترضهم من حجارة كالبطيّخ، وحفي لهم بعيران لأنّهما ربيا في الساحل حيث الرمال اللّينة، أمّا هنا فالحجارة كالسكاكين، جرّحت أخفاف الإبل، وشظّت مناسمها فسال منها الدم، وناقة حمزة تتهروك في مشيتها، وتتهادى ببطء بعد أن تزحلقت تحت صخرة، واستغرق إخراجها جهداً جهيداً ووقتاً طويلاً، فتقرّر أن تمكث المجموعة في أحد الأودية، ويذهب أحد أفرادها على بعير ليحضر ماء من الثميلة السابقة، ثمّ اختير عليّ وحمزة للبحث عن مخرج من هذه العقدة الوعرة، فعاد عليّ عند المساء وقال: وجدت طريقاً يصلح أن تسير معه سيّارة. كذلك عثر عليه حمزة، وسار معه مسافة للتأكّد.

شُدّت الأمتعة على المطايا واستؤنف المسير على ضوء قمر شاحب يوشك على المغيب، نزلوا وأعدّوا العشاء، وأكثر ما كان ينغّص عليهم الطعام فقدان الملح، فقد نفد ما كان معهم، وندموا لأنّهم لم يحضروا المزيد منه حين وجدوه يقبّ التراب، ويخرج كالفقع في المناطق التي مرّوا بها في سيناء والنقب، وهو ذو بلّورات لامعة كالكرستال، ومع الضوء الأوّل للفجر انطلقت المجموعة، قبل أن تخرج الشمس من خدرها، اعترض مسير القافلة رجل

قصير ملثّم بكوفيّة حمراء، حلق الجدريّ حواجبه ورموشه، وقف بين جبلين متقاربين، ردّوا عليه السلام وصافحوه فرداً فرداً، كان يتفرّس الوجوه ويروز قوّتهم، وهو مسلّح ببندقيّة المانيّة قصيرة، وقال: أنا مكلّف من قبل الدولة بحراسة هذا الطريق ومراقبته، وأنتم بلا شكّ قادمون من المنطقة الغربيّة، واضح ذلك من كلامكم ولباسكم ووسم إبلكم، اختاروا أحد أمرين، إمّا أن آخذكم إلى الجيش وأسلّمكم لهم، أو تطيّبوا خاطري وتعطوني ما يرضيني. وافق حيدر وقال: سنرضيك ولكن بعد أن توصلنا إلى أقرب قرية. وافق على الشرط وأومأ بيده إلى البطين المقابل، فنَزل مسلّح ملثّم من خلف صخرة، وأشار إلى الجهة المقابلة فنَزل آخر، قادوا المجموعة، صادفتهم مغارة فيها تبع لهم، وأعدّوا طعام الإفطار، عرفت المجموعة أنّ هذا الرجل المجدور لم يكن إلاّ طعماً، وأنّ أيّ تصرّف خاطئ يمكن أن يودي بحياتهم، هناك مسلّحون يربطون الطريق، ويطلّون عليه من أماكن استراتيجيّة، وهم يعرفون المنطقة، طلب الرجل المجدور أن يدفع لهم جزء من الأجر، وقال: نحن عثرنا على أثر هذا الرجل ـ وأشار إلى حمزة ـ مع غروب الشمس، قصصنا جرّته فوجدنا أنّه قد سار مع الطريق مسافة، ثمّ عاد أدراجه، فعرفنا أنّه يستطلع الطريق لأناس قادمين، مكثنا اللّيل كلّه ونحن ننتظر صيدنا، كم داهمنا من أفكار ووساوس، خشينا أن تكون هذه الجماعة قد غيّرت طريقها، أو ربّما لاحظت تواجدنا وسلكت شعباً آخر، قدّروا هذا الجهد، نقضي اللّيالي الطويلة ونحن نتربّص على رؤوس الجبال دون أن نحظى بأحد، لذا يجب أن يكون الأجر مجزياً وأن لا نُعطى من البعير أذنه، إن أردتم بيع سلاح، فأنا أعرف التجّار، وأبيعه لكم، وإن أردتم بيع الإبل بعتها لكم، أنا أرغب في ذاك البعير رحولة لي، وأنا أعطيكم ثمنه من أجرتي، ويجب أن تعطونا أجرنا مقدّماً، إذ ربّما تماطلوننا في ذلك إن أوصلناكم إلى قرية. وعندما رفض طلبه استشاط غضباً وقال: أنتم من عربان الساحل ولنا عندكم دم، كما أنّ هذا الحضريّ ـ أشار إلى حيدر ـ حكم على أحد أقاربنا بالسجن المؤبّد عندما كان قاضياً في العريش. كان الثلاثة يبارون القافلة، فأخذ المجدور صاحبيه وانتحوا جانباً في مغارة للتشاور، وأعطى حيدر تعليماته طالباً عدم التجمهر، وأن يسير أفراد المجموعة متباعدين، ويجب توخّي الحذر والتّأهّب لكلّ طارئ.

اقترح غسّان على حيدر أن تعطى له الصلاحيّة للتصرّف قبل أن يتفاقم الوضع، ويفلت هؤلاء من أيدينا، علماً أنّنا نجهل المنطقة الآمنة، علّق عليّ: نجونا من الخطر، وعندما شعرنا بالأمن والاطمئنان نتفاجأ بهذه المعضلة، كلّ شيء حسبنا حسابه إلاّ الزلق في الصيف. وافق حيدر على مبادرة غسّان رغم أنّه لا يعوّل عليها كثيراً، تبعهم غسّان إلى المغارة مشرعاً قنبلة يدويّة، وقال: تشاهدوا إن كنتم مسلمين. فقال المجدور: الله ما بيننا وبينك. فقال غسّان: أتعرفون الله وأنتم تقطعون الطريق، لا تظنّوا أنّنا فريسة سهلة، أريد أن أخبركم منذ البداية أنّنا فدائيّون ولسنا مهرّبين أو متسلّلين كما اعتقدتم، ولا نخاف من مقابلة الجيش العربيّ بل نحن سنذهب إليه الآن. فقال المجدور: سيّدنا قال كلّنا فدائيّون، إذن نحن معكم ولا نريد منكم شيئاً. سأله غسّان عن اسمه فقال: فرج السعيديّ. تفاءل غسّان وقال في نفسه: فرج قريب إن شاء الله وسعد طيّب. وانصاع الثلاثة للأمر، ولحقوا بحيدر ليرضوه بعدما أغلظوا له القول قبل قليل، وتمّ الاتفاق على أن يسيروا مع المجموعة إلى قرية دلاغة، وحُذّروا من أيّ تصرّف أرعن يقوم به أحد أقاربهم، لأنّه سيؤدّي إلى نتائج لا تحمد عقباها، وعند وصولهم إلى دلاغة يكافؤون ويخلى سبيلهم، ومع الظهر هدأت الخواطر، وتفتّحت الأسارير وزال التوتّر، تحدّث فرج: والله أنا رجل مجنّى، ومطلوب رأسي ليس للأردنّ فقط بل لكلّ الأقطار المجاورة، فأرجو أن تتركوني، وخذوا معكم صاحبيّ هذين. ووفق على طلبه، فودّع المجموعة وعاد أدراجه، واصلت المجموعة سيرها، وفور وصولهم إلى دلاغة، اشترى غسّان تمراً وعلب سجائر للرجلين، وأعطاهم ثلاثين ديناراً قائلاً: أعطوا الشيخ حصّته. وكان أفراد المجموعة قد جمعوا من الرجلين معلومات جمّة عن المنطقة، وأسماء القبائل والعادات والتقاليد والأسعار واللّهجات وعرفوا أن أحدهم يدعى عطا والآخر سليمان، فقال عطا: مكثنا اللّيل كلّه نقنع عمّنا كي يترككم وشأنكم، والله بقينا معه لدرء الشرّ، هو طيّب ولكن الفقر يودي بصاحبه إلى التهلكة. اتّجه غسّان إلى خيمة البادية، فوجد مجموعة من الرجال يلعبون السيجة، طرح عليهم السلام، فردّوا دون أن يرفعوا رؤوسهم أو ينظروا إليه، جلس بجوار أحدهم، وكان مغلوباً فناصره غسّان الذي يتقن هذه اللّعبة، وبالأمس كان يلعبها أثناء الكمون مع رفيق الدرب رجب، فاغتاظ

الذي كان منتصراً، وقال لغسّان: إن كنت تلعب بحقّ فامسك الحصى، والعب بنفسك ولا تناصر من بعيد، المتفرّج يبصر أكثر من اللاّعبين، والحرب سهلة بالمنظار. وافق غسّان ولعب مع الشرطيّ فغلبه رغم مآزرة الجميع له بمن فيهم الشرطيّ الذي ناصره غسّان سابقاً، وكلّما توقّف غسّان عن اللّعب وهمّ بإخبارهم بقصّته، قال له أحدهم: العب بلا حكي. تحيّن فترة صمت وقال: معي جماعة يقفون. فأسكته أحدهم وحثّه على مواصلة اللّعب، ولم يفلح في إبلاغهم إلاّ بعدما لحق به أخوه شهاب، ليطمئنّ على وضعه، فضحك عندما رآه يصول ويجول في اللّعب تاركاً جماعته على نار، توقّف غسّان عن اللّعب حين همزه أخوه، وقال: مسّاكم الله بالخير. فرفعوا رؤوسهم وأدركوا أنّ هذا إنذار لحديث جدّيّ، وأضاف غسّان: انظروا إلى هؤلاء الرجال الذين يقعدون قرب الجمال، نحن قدمنا من قطاع غزّة ونريد أن نسلّم أنفسنا لكم. فقال الرقيب المسؤول: حيّاكم الله، والله ليس عندنا هنا شيء ذو بال لنضيّفكم، ولكن سنأخذكم إلى أقارب لنا على مسافة ليست ببعيدة من هنا، وبعد أن نقدّم لكم الواجب نبحث أمركم. كان الرقيب سليمان بن سرور يركب حصاناً أخضر، بينما يركب أحد زميليه حصاناً كميتاً، والثالث حصاناً أحمر، وصلوا إلى بيوت مضروبة على بطين، فاستقبلوا بحفاوة بالغة، وهؤلاء هم أقارب الشيخ ابن سرور، مسؤول مفرزة البادية، ومع الغروب شرع حمزة بالآذان بأعلى صوت لديه، فهو قد أحسّ لأوّل مرّة بالطمأنينة، صلّى أفراد المجموعة جماعة في حين لم يقم للصلاة أحد من أصحاب البيوت ولا عناصر البادية، ووصل رجال يجرون من بعيد، يظنّون أنّ رجلاً يصرخ مستغيثاً، ممّا يدلّ على أنّهم لم يسمعوا الآذان من قبل، وهدأ روعهم عندما شاهدوا صفّ المصلّين، ويجلس الباقون في سكينة وظلّوا يتأمّلون حركات وسكنات المصلّين بشغف بالغ واهتمام كبير، بينما يسمع رجل يذبح خروفاً ويشرع في الطبخ، وقُدّم العشاء، ثمّ أُتيح المجال للمسافرين ليخلدوا للراحة، في الصباح قال ابن سرور: إن أردتم الإجراء النظاميّ فما عليكم إلاّ الذهاب إلى أقرب مخفر حكوميّ هنا، وهو مخفر أيل حتّى تسجّلوا أسماءكم، فتكونوا بذلك قد دخلتم البلاد بشكل نظاميّ، وراقت فكرته للمجموعة التي أنست من معاملته وأخلاقه النبيلة، وأعطى لهم انطباعاً حسناً، وتمّ التفاهم معه على أن تبقى عنده

الإبل كأمانة، فيقوم بإطعامها والمحافظة عليها، ويترك له ثمن عليق وتبن، إلى أن يعود له أحد الأفراد ليأخذها من عنده، وقبل الوصول إلى المخفر أوصى حيدر رفاقه بكلمات، وطلب منهم عدم التوسّع في الكلام، واختصار الإجابة قدر المستطاع، نحن مجموعة مقاومة كنّا نقاوم الاحتلال، اكتشف أمرنا من قبل العدوّ فطوردنا، فأتينا إلى الأردن، وأن لا يذكر أحد أنّ جاسراً دليل بأجر، بل هو عضو من أعضاء المجموعة كي لا يحقّق معه على أنّه مهرّب يأتي بأناس إلى الأردن، علماً بأنّ النيّة المبيّته عند جاسر هي العودة إلى الوطن المحتل بمجرّد التملّص من هذه الإجراءات التي أرغم على الدخول فيها، وكان قد دفن سلاحه على طريق عودته قرب دلاغة، كانت المقابلة الأولى في مخفر أيل عاديّة بسيطة، ثمّ نقلت المجموعة إلى معان، وهناك قال حيدر لضابط التحقيق: نحن عسكريّون ونفضل أن يحقّق معنا ضابط عسكريّ أو من الاستخبارات، فالمعلومات التي سندلي بها سريّة، أمّا أن يحقّق معنا شرطيّ، ثم يرفع نتيجة التحقيق إلى عريف، ثمّ إلى ضابط وهكذا فتطول المدّة علينا. فلم يرق هذا الكلام لضابط الشرطة، فتشاور مع قيادته، فتقرّر على ضوء المشاورة أن تهيّأ منامه لهؤلاء الناس، انتظاراً لوصول ضابط الاستخبارات غداً من العقبة، ثمّ حملوا في سيّارة ووجدوا أنفسهم في سجن معان المركزيّ، فضاقوا ذرعاً بذلك، وعندما طلب منهم المثول للتفتيش فرداً فرداً بعد وضع كلّ ما بحوزتهم على الطاولة، اعترض حيدر قائلاً: كيف تعاملوننا كمعاملة اللّصوص والجناة، نحن أتينا إليكم بمحض إرادتنا، ولم نقترف ذنباً، ونستغرب أنّكم أتيتم بنا إلى السجن، كان من اللاّئق أن تدعونا ندبّر أنفسنا في المبيت، ونحضر إليكم غداً صباحاً. فقال له الضابط: أنتم الآن مقبوض عليكم وأنتم رهن التحقيق، ولا نستطيع أن نترككم حتّى لو أتيتم بإرادتكم. واعترض حيدر على مبدأ التفتيش الجسمي فقال: يجب أن تكون هناك ثقة بكلامنا، سنضع كلّ ما نحمل على الطاولة ولا نرغب بأن تحسّس أجسادنا كاللّصوص، وإن رفضتم سنلقي لكم بملابسنا على الطاولة لتفتّشوها. وساد لغط كثير، وخلع حيدر سرواله بعد أن أفلح في قطع التّكة التي لم يهتدِ إلى حلّ أنشوطتها من الغيظ، وسوّيت هذه المشكلة، ونقل أفراد المجموعة إلى غرفة واسعة، وخرج غسّان بمرافقة شرطيّ إلى السوق لشراء طعام العشاء، فتعاطف معه البائع عندما

سمع لهجته، ورأى عدم معرفته الجيّدة للنقود، كما لاحظ ملازمة الشرطيّ له، فرفض أن يأخذ منه ثمن ما اشترى من خبز وجبن وعنب، وقال: أنا من الخليل من جماعتك، وأنت من السبع أليس كذلك ؟ فقال غسّان: نعم، ولكن يجب أن تأخذ ثمن ما اشتريت وإلاّ تركتها ومضيت. فأخذ البقّال نقوداً ولكنّها دون ثمن ما اشترى حسب تقديره، وبعد العشاء استلقى الأفراد في الغرفة، وشرع البعوض والبق ينهش الأجساد النحيلة، فلم تغمض لهم عين، ونام حمزة كنوم الأرمد، ينظر إلى ساعته كلّ برهة ليرفع آذان الفجر، ومع الآذان ماج السجن واضطرب، وحضر إلى نافذة الغرفة الداخليّة زعيم السجن،وهو محكوم عليه بالسجن المؤبّد، واجتلى حقيقة الأمر، وتعاطف مع هؤلاء النّزلاء الجدد، ولام الشرطة على معاملتها لهم بهذه الطريقة، ذهب إلى مدير السجن ليسمح له بإدخال الشاي والطعام لهم، وتمنّى أن تتاح له الفرصة ليجاهد في فلسطين، وطلب من حمزة أن يدعو له الله ليفكّ سجنه، في الصباح وصل ضابط الاستخبارات، وبدأ بدراسة الملفّ ثمّ بدأ التحقيق مع حيدر قائد المجموعة، الذي خرج من غرفة التحقيق، وهمس لرفاقه بعبارات مقتضبة عن فحوى التحقيق وطبيعة الأسئلة، ونبّه على ضرورة إنكار اسم الدليل والقول بأنّنا أتينا ارتجالاً دون دليل، والغريب أنّ أصغرهم سنّاً والذي دخل مباشرة بعد حيدر قد أخبر المحقّق بأنّ الذي دلّ بهم إلى منتصف الطريق هو جاسر، رغم التحذير الدائم من ذلك، وعندما سأل المحقّق من دخل بعده أنكروا هذا الأمر، ونفوا أن يكون جاسر دليلاً بل قالوا: لقد تهنا يومين في وادي عربة، وظللنا نمشي على غير هدى في جبال الشراة، ولو كان معنا دليل لما مكثنا هذه المدّة، ولما سلّمنا أنفسنا لرجال البادية في دلاغة، وجاسر هو أحد أعضاء المجموعة ولكنّه ليس معروفاً للجميع، وتشكّك المحقّق من صحّة أسماء الآباء والأجداد، وعدّها أسماء حركيّة، وأخيراً أقنعه حيدر بصحّة الأسماء قائلاً: إنّ هؤلاء ثلاثة إخوة ورجل وولداه وهم أقرباء، أمّا الآخران فهما رجب الشاعر وجاسر، فأمر هذا الضابط بنقل المجموعة ومقتنياتهم في سيّارة عسكريّة إلى المخابرات العامّة بعمّان، قطعت السيّارة مسافات شاسعة جرداء، وتوقفت للاستراحة في القطرانة، فوصلت عمّان عصراً، وأدخلت المجموعة إلى مبنى المخابرات العامّة، وقرأ أحد الضبّاط التقرير المرفق، واكتفى بالجلوس

مع حيدر وغسّان، وسأل عن الأوضاع داخل الأرض المحتّلة، وأخبرهما أنّه من المفروض أن نأخذكم الآن إلى قاعدة فدائيّة في السلط، ولكنّها تتعرّض منذ الصباح لغارات الطيران الإسرائيليّ، ويتعذر الوصول إليها اليوم، علاوة على خطورة التحرك في المنطقة، أنتم ضيوفنا اللّيلة، وغداً نأخذكم إلى هناك. وأخذت المجموعة إلى مهجع تابع لسلاح الموسيقى، وفرز لكلّ فرد سرير، وأحضر لهم تلفاز في الغرفة، واستقبلوا بحفاوة وقدّم لهم طعام العشاء، وحثّوا على غسل ملابسهم والاستحمام، ولم ينغص عليهم شيء في تلك اللّيلة، وحملوا في الصباح في سيّارة وشقّت طريقها إلى السلط، كانت الطريق منحدرة ومتعرّجة، وانحرفت السيارة عند مدخل السلط إلى اليسار، وسارت على حافّة وادي شعيب، والأشجار كثيفة على الجانبين، توقّفت السيّارة أمام بوّابة يقف عندها رجل بملابس رقطاء، فحدّثه ضابط الشرطة المرافق بأنّ هؤلاء الأشخاص قدموا من الأرض المحتلّة، وهم قادمون إليكم، فأشار إليهم بالتريّث وغاب بين الأشجار، ثمّ عاد برفقة آخر يبدو أنّه أكبر سنّاً من الأوّل، تفرّس الوجوه فقال: نحن لا نعرف أحداً من هؤلاء ولا علاقة لنا بهم، فليعودوا من حيث أتوا. حاوره الضابط قائلاً: إن لم تعرفهم أنت يمكن أن يعرفهم غيرك، أو ربّما أنّهم من منظمة أخرى، فهزّ رأسه وأشار بيده طالباً منهم الابتعاد، فقال له حيدر: أنا الملازم حيدر المغربيّ أنسيتني، وأنت الملازم ثابت أليس كذلك ؟ فقال: أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم، ثمّ إنّني لست من تظنّ. عندها طلب حيدر وأفراد المجموعة من الشرطة المرافقين إرجاعهم إلى المنطقة التي خرجوا منها فهم يؤثرون العودة إلى الأرض المحتلّة حين يتنكّر لهم الرفاق، ولم يأذنوا لهم بالترجّل من السيّارة، فعادت السيّارة من حيث أتت، وعند مدخل السلط نزل عدد من الأفراد لصلاة الظهر في المسجد، ونزل أحد الباقين ليشتري المرطّبات، لقد تعاطف معهم المرافقون، وأخذوا يهوّنون عليهم الأمر، ويبرّرون تصرّف الرجل الذي قابلهم، وعزوا ذلك لأنّ هذه القاعدة بالذات تعرّضت بالأمس إلى غارة موجعة، أحدثت خسائر كثيرة في صفوف الفدائيّين، وقالوا: لا بدّ أن ييسّر الله أمركم. قبل أن يخرج المصلّون من المسجد وصلت سيّارة لاندروفر ملطّخة بالطين، وترجّل منها فدائيّون بملابس مموّهة، وسألوا عن باقي أفراد المجموعة، وكان من بينهم الملازم ثابت، ولكنّه

يقف إلى الوراء بينما تحدّث معهم رجل طويل بابتسامة واعتذار، واعتذر للشرطة المرافقين من التسرّع الذي تصرّف به الضابط المناوب، فخرج حيدر من المسجد فاحتضنه الرجل الطويل، وهو ما زال يقطب جبينه، واعتذر منه ثابت، ولكنّ اعتذاره لم يقنع أحداً، قال له حيدر: إن كنت شككت في كلامنا أنزلنا من السيّارة وحقّق معنا، واحترم هؤلاء المرافقين الذين أتوا بنا ليوصلونا إليكم، وتعاملوا معنا بمنتهى الأخلاق. وعلى بوّابة القاعدة نزل أفراد المجموعة، وطلب قائد القاعدة من المرافقين الدخول والاستراحة، ولكنّهم اعتذروا وودّعوا أفراد المجموعة، ومكث هؤلاء برهة وجيزة في هذه القاعدة، وطلب المسؤولون من حيدر الاستحمام وتغيير ملابسه، ولكنّه اعتذر وقال: لن أفعل ذلك إلاّ بعد أن تتاح للجميع هذه الفرصة، لا أريد أن أستأثر لنفسي بشيء دون إخواني. ثمّ نقلوا إلى غابة دبّين الكثيفة، يتوسطّها رأس أقرع، تناثرت فيها مواقع للفدائيّين، إمّا في المغر أو في الخيام، وبها طرق رفيعة متعرّجة، وأغرب شيء واجهته المجموعة أنّه في اللّيلة الثانية لقدومها، تعرّض الموقع الذي تقيم فيه لرصاص انهمر بغزارة، وطلب الحرّاس القريبون منهم الانبطاح، فالتبس الأمر على هؤلاء الجدد الذين لا يميّزون بين صديق وعدوّ، زحفوا مبتعدين عن موقع تبادل إطلاق النار خصوصاً أنّهم عزّل من السلاح، واتضح لهم في الصباح أنّ هذا تمرّد على قيادة المنظّمة، ولكن المتمرّدين دحروا وتكبّدوا خسائر جسيمة.

قرّر أفراد المجموعة العودة إلى الجنوب، واتخذوا من مغارة قرب قرية عين البيضاء مقرّاً لهم، وعاد الدليل إلى بلاده، ولاحظوا أنّ الساحة تغلي كالمرجل، انشقاق في المنظّمات، واقتتال ينشب بين فترة وأخرى، وكان الناس يكنّون الاحترام والتقدير البالغ للفدائيّ، إذا ركب في سيّارة لا يأخذون منه أجراً، وإذا أكل في مطعم أو نزل في فندق كان معزّزاً مكرّماً، إمّا بالمجّان أو بسعر مخفّض، لقد تحمّس الناس للعمل الفدائيّ بعد معركة الكرامة، التي أعادت للإنسان العربيّ توازنه، واندفع مئآت الشبّان تاركين جامعاتهم، والتحقوا بالعمل الفدائيّ، ولكن مع مرور الوقت وتراكم السلبيّات وتوالي الانشقاقات، وركوب شذّاذ الآفاق لموجة العمل الفدائيّ، وتشدّق مسؤولون بانتصارات وهميّة، ورفعت بعض الفصائل شعارات كبيرة مثل: كلّ السلطة للمقاومة، لا صوت يعلو

فوق صوت البندقيّة، هويّتي بندقيّتي في حين أنّ إمكاناتهم الحقيقيّة متواضعة جداً، فهي لم تصمد أمام أدنى اختبار، كما رفع البعض شعارات غريبة استفزّت الكثيرين، ضاربة عرض الحائط بمشاعر الناس الدينيّة وتقاليدهم وأعرافهم الاجتماعيّة، وإنّ عدم التنسيق بين الفصائل وتناحرها، بل بين قواعد الفصيل الواحد سبّب إرباكاً حقيقيّاً للعمل، فتراجعت هيبة الفدائيّين، وذهب الصالح في جريرة الطالح، وحدث شرخ بين حركة المقاومة والجماهير العريضة، وكانت القواعد هدفاً سهلاً لطائرات العدو المزوّدة بأحدث أجهزة التصوير والاستطلاع، كما أنّ قادة المنظّمات والكوادر المهمّة آثرت العيش في العواصم والمدن الكبيرة حيث الراحة، وكادت معلوماتهم أن تكون معدومة عن الحدود، وطبيعة الأرض والبشر.

قدم المجاهد عبد الله أبو ماجد الذي كان يقود العمل الجهاديّ في النقب إلى الجنوب، زار قواعد المقاومة، ودعا إلى وحدة الصفّ ونبذ الفرقة، وطالب بتعزيز العلاقة مع شيوخ القبائل ومخاتير القرى، وعدم استفزازهم، بل ملاطفتهم والاستعانة بخبراتهم وقدراتهم، وأن يصار إلى ضمّهم إلى صفوف المقاومة، وكان يذكرهم بمساهمات آبائهم في الذود عن القدس، واستشهاد العديدين منهم قرب المسجد الأقصى، وأنشأ قاعدة قرب معان يؤمّها شيوخ القبائل والأدلاء، وكان يسارع إلى رئب الصدع إذا ما نشب خلاف بين أحد الفصائل وبعض الناس، وغدت قاعدة المجاهد عبد الله مدرسة تختزن الخبرة المتراكمة للمقاومة، وأقيمت الندوات في القواعد والمخيّمات، وتحمّس الكثير من المثقّفين لفكرة الكفاح المسلّح، وظلّ القادة يستشهدون بمقولة عبد الناصر عن العمل الفدائيّ، بأنّها أنبل ظاهرة في العصر الحديث، وقدم العديد من الضبّاط المصريّين لينخرطوا في صفوف المقاومة ويدرسوا هذه الظاهرة ويشاركوا فيها، وتبيّن لهم البسالة التي يبديها شبّان صغار في مواجهة القدرة الإسرائيليّة، لقد كسر لديهم حاجز الخوف كما علّق أحد الخبراء وامتدّ العمل الفدائيّ من الداخل إلى الساحة الأردنيّة والسوريّة واللّبنانيّة، وكثرت النقاشات والتحليلات، لتقييم ظاهرة الكفاح المسلّح التي طرحت شعار تحرير كامل التراب الفلسطينيّ من البحر إلى النهر بوسيلة الكفاح المسلّح وحرب التحرير الشعبيّة

طويلة الأمد، وامتدّت العمليات الفدائيّة مع طول الحدود مع فلسطين المحتلّة، وقد أخلى اليهود المستوطنات التي تتعرّض للقصف أو التسلّل، وكثّفوا الحراسات وأقاموا الملاجئ التي تتّسع لجميع المستوطنين على الحدود.

ودارت مناقشات عدّة في الندوات، وكتبت تحليلات كثيرة ومنها: إنّ كلّ قطر عربيّ أدلى بدلوه، فأنشأ فصيلاً يضاف إلى فصائل الساحة، لأنّ كلّ دولة تريد أن تركب موجة الكفاح المسلّح، لتبدو أمام الجماهير الغاضبة والحانقة من الهزيمة وكأنّها تسير في الاتجاه الصحيح، ولا ينبغي للفصائل الأخرى أن تحتجّ وإلاّ فإنّها ستُضايق ولن تُقدّم لها التسهيلات على هذه الساحة أو تلك، بالإضافة إلى الفسائل التي تُفرّخ من أخرى، وعلّق أحدهم: إن تفلت إلى أسفل فعلى اللّحية، وإن تفلت إلى أعلى فعلى الشارب. وكتب أحد المفكّرين: اليهود ينشئون دولة باسم الدين، ويعتبرون أنّ أيّ يهوديّ مرتبط بهذه الدولة ويحقّ له القدوم إليها، بل ينبغي له ذلك إن عاجلاً وإن آجلاً، وهي تدافع عنه حتّى من جور دولته التي ينتمي إليها بالفعل ويقيم فيها، أمّا نحن فلا يسمح لنا أن نذكر الدين المسيحيّ أو الإسلاميّ، وعلينا أن نفرّق بين اليهوديّ والصهيونيّ، واليهود يتقيّدون بزعمهم بما جاء في التوراة، وزعماء العالم المتحضّر يقرّونهم على ذلك، أمّا نحن فيجب أن نضرب صفحاً عمّا جاء في الأناجيل والقرآن، هم يحاربوننا بالدين وعلينا أن لا نستخدم السلاح نفسه بل يجب علينا أن نغفل الدين من حلبة الصراع. وخطب قائد فصيل: نحن أخرجنا من ديارنا، ولجأنا إلى الأقطار الشقيقة المجاورة، صحيح أنّنا قد تعرّضنا إلى مضايقات من البعض، ولكن علينا أن نكون إيجابيّين، ونتعامل مع مضيفينا بطريقة حضاريّة غير متاعلين ولا متعجرفين، ولا ننسى أنّنا ضيوف في ساحاتهم، وإذا ما أسهمنا في النهضة التعليميّة أو الثقافيّة أو الزراعيّة والمهنيّة فعلينا أن ننكر الذات، ونحترم عاداتهم وتقاليدهم ولهجاتهم، ولا نتباهى أو نفتخر بعمل نراه واجب علينا، لأنّنا ننتمي إلى هذا الجسم العربيّ، ونحن جزء منه، نحن أصحاب قضيّة عادلة يجب على كلّ واحد منّا أن يكون رسولاً لشعبه يعزّز ولا ينفّر، وعلينا أن نتحمّل في سبيل قضيّتنا الكثير لنكسب الجماهير العربيّة إلى جانبنا، علينا أن نقيّم مسيرتنا، ونستفيد من التجارب، إنّ الاقتتال الناشب بين فينة وأخرى

والانشقاقات تحبط وتقتل الأمل في النصر، وعلينا أن نبتعد عن المبالغات والاستعراضات الكاذبة، وادّعاء أعمال الغير، وتبنّي العمليّات الناجحة من أكثر من فصيل، ويجب ألاّ ننجرّ إلى معارك جانبيّة مع أشقّائنا، يتّخذها البعض ذريعة لذبحنا وثنينا عن هدفنا، ينبغي ألا نفرض رأينا بالقوّة على الغير.

وقال أحد المقاتلين في ندوة: يتحرّك زعماؤنا بسهولة عبر الحدود والمطارات، ونحن نعاني الأمرّين، وربما قيل لنا: إنّ زعماءكم هم الّذين يريدون ذلك ويطلبون منّا أن نتصرّف معكم بهذه الطريقة كي لا تنسوا القضيّة.

وعلّق حيدر: يجب أن نعضّ على هذه الثورة المسلّحة بالنواجذ لأنّها إن فشلت فسيضرب صفحاً في المستقبل عن الكفاح المسلّح بحجّة أنّه مورس من قبل لسنوات وقدّم قوافل الشهداء، ولم يأت بثمرة ذات بال، وتتّخذ الدول من ذلك مبرّراً لقمع أيّ حركة مقاومة مسلّحة.

(٢٩)

بمجرّد سماع عجلان لأنباء المعركة خفّ إلى مصر، وآثر أن ينضمّ إلى القتال، فوصل إلى الإسماعيليّة والتحق بالمتطوّعين، كان يأمل أن يتمّ نقلهم إلى سيناء، ولكنّهم أعلموه أنّه قد ضاع كلّ شيء، ولم تعد في سيناء مقاومة، بل وصل اليهود إلى قناة السويس، ولم يسلم لهم شرق القناة سوى بور فؤاد، وأخلي مع عدد من المتطوّعين إلى العامريّة غرب الإسكندريّة، وهناك خيّمت آثار الهزيمة، وعاش المتطوّعون في إحباط تامّ، يتنازعون على الطعام والصابون والغطاء، ترك عجلان المعسكر واتّجه إلى الإسكندريّة ليتسقّط أخبار الأقرباء الذين نشبت الحرب وهم يدرسون في الجامعات المصريّة، وشكّل وصول عجلان لهم نجدة حقيقيّة، حيث انقطعت عنهم مساعدات الأهل الذين رزحوا تحت نير الاحتلال أمّا المساعدات التي قدّمت لهم فلا تسمن ولا تغني من جوع، واستقرّ رأي عجلان بعد التشاور مع ابن خالته على العودة إلى ليبيا، وتصفية حساباته هناك، لعلّ الصورة تتّضح

أكثر بعد حين، وبالفعل عاد عجلان إلى ليبيا، ولكنّه يشعر وكأنّه فارّ من معركة، حاول إقناع نمير الأزرق بالعودة معه إلى مصر، فقال الأزرق: ماذا نفعل بمصر، ما دامت بلادنا قد احتلّت، لا عمل ولا سكن، بل غربة بغربة أنا أرى المكوث هنا والعمل، وتوفير أيّ مبلغ وإرساله إلى الأهل مستقبلاً أجدى من القعود في مصر وهي على هذه الحال.

عند عودة عجلان إلى مصر في المرّة الثانية، كانت قد وصلت إلى ابن خالته رسائل من إخوته تفيد بأنّهم وصلوا إلى الأردنّ، وهم يعملون هناك مع المقاومة، هذه الفرصة التي كم تمنّاها عجلان، وهي الالتحاق بالعمل الفدائيّ، تبادل الرسائل مع أبناء خالته، فحصلوا له على تأشيرة دخول واستقبلوه في عمّان ولم يبت ليلة وصوله إلاّ في مغارة تشكّل قاعدة متقدّمة في جنوب الأردنّ، وعمل بجد ونشاط وتلهّف، عرض عليه استدعاء زوجته من العريش، فقال: نفعل ذلك بعد أن نتقدّم قليلاً في العمل، علينا استطلاع المنطقة استطلاعاً جيّداً، يجب أن نعمل عمليّات نوعيّة، نقتحم مواقع، ندمّر سيّارات عسكريّة على الطرق، نخطف أسرى لنحرّر أسرانا، والأدلاّء الذين يعملون معنا لم يطرقوا المنطقة قريباً، وخبرتهم نظريّة أو سماعيّة، فاقترح أن تكون لدى الفدائيّين معلومات جديدة عن الطرق والمواقع العسكريّة. وكان على خلاف دائم مع الدليل رشيد الذي يناهز السبعين، فيقول له:

ما أكذب من شابّ تغرّب إلاّ شايب ماتت أجياله

فيردّ رشيد: هذا الكلام ينطبق عليك أنت الذي تغرّبت كثيراً، أمّا أنا فأجيالي ما زالوا عديدين، أرجوك خلّ عشرتنا عشرة حمير، حكّ لي أحكّ لك. فضحك عجلان من هذا التشبيه الذي أتى به رشيد من البيئة، فكم من مرّة شاهد حمارين يحكّ كلاهما رقبة الآخر بأسنانه في نفس الموضع، وهما يشعران بلذّة.

وصلت سالمة خالة عجلان بتصريح لتزور أبنائها في الأردن، وكانت مناسبة للتحدّث عن الأقارب في الداخل، فأخبرت عجلان عن أحوال زوجته ووالده وحدّثها عن ابنها محمّد الذي تخرّج من جامعة القاهرة، ونذر أن يرقى هرم خوفو عند تخرّجه، ووفى بنذره، وقد تجوّل عجلان مع خالته وأبنائها في آثار جرش، والتقطوا الصور التذكاريّة، فقالت سالمة: احتفظوا لي بهذه الصور عندكم، فأنا لا أستطيع أخذ شيء منها للداخل،

أخاف من اليهود. ودار الحديث حول الموت، فقد يموت الكثيرون في الداخل وهم يتمنّون أن يروا أبناءهم قبل موتهم، كما أنّ الموت في الغربة مقيت جدّاً، ومن رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته. وتحدّثت سالمة عن المعاناة التي تعرّضوا من قبل قوّات الاحتلال بعد سجن الوالد الذي يزورونه كلّ شهر، وكيف أنّ الجيش نصبوا خيمة فوق بيتهم الطينيّ، وداسوا بأحذيتهم الزرع الذي ينبت كلّ سنة على سطح البيت، وفي بداية الأمر ذُعر الأطفال والنساء والصغير يوسف من تواجدهم ثمّ تعايشوا مع الظرف الراهن إلى أن رحل الجنود من فوق سطح البيت.

(٣٠)

جرت الاستعدادات على قدم وساق للقيام بعمليّة نوعيّة على الطريق الذي يربط الحصب بإيلات، وقام باستطلاع المكان عجلان وعليّ، واختار حيدر خمسة عشر مقاتلاً لتنفيذ هذه العمليّة، وعُيّن حمزة قائداً للعمليّة، قُسّمت هذه المجموعة إلى ثلاث مجموعات صغيرة، تضمّ كلّ واحدة خمسة عناصر، يقود عجلان مجموعة القلب التي ستنفّذ ضرب سيّارة عسكريّة، ومحاولة اختطاف أسير ويقود المجموعتين الأخريين عليّ وحمزة، ومهمّتهما الإسناد والمؤازرة وعدم تمكين وصول نجدة للسيّارة العسكريّة المستهدفة، اختير أفراد هذه المجموعة بعناية ودُرّبوا للقيام بهذه المهمّة على خير وجه، وكان من الممكن أن يشارك في هذه الدوريّة أفراد أخر لولا أنّهم باتوا في مغارة قبل أيّام في منطقة المعطن وتعرّضوا للدغ الدلم، والدلمة حشرة خطيرة تغرس إبرتها في جسم الآدميّ والأغنام، وتضع بيضها تحت الجلد، وتستمر هذه البيضة بالتوغّل داخل الجسم وتتحوّل إلى يرقة تقتات من الجسم، ولم يكن قد اكتشف لها علاج، وأهل المنطقة يعالجونها بالكيّ، وحينها حذّرهم أحد الواطنين من الدخول في هذه المغارة المهجورة، ولكنّهم لم يذعنوا لتحذيراته، فقال: يا ناقة قدّامك طور وإن طحت لا يشناك. فرقد الملدوغون في مشفى الطفيلة للمعالجة.

تقاطر أفراد المجموعة فرادى كي لا يثيروا انتباه حرس الحدود الأردنيّ

أويشكّلوا جمهوراً يكون فريسة لطائرات العدوّ، حملوا الأمتعة والمواد اللاّزمة، بما فيها القاذفات المضادّة للدبّابات على أربعة من الإبل، فوصلوا جميعاً إلى نقطة التجمّع، وكان مخفر غرندل يطلّ على نقطة التجمّع علماً أنّه يبعد عنها بما يزيد عن ثلاث كيلومترات، واقترح حمزة على أفراد المجموعة الوضوء وصلاة المغرب جماعة، انتظروا إلى أن يغيب القمر، وتحرّكت المجموعة تجاه الغرب تحت جنح الظلام، وعند اجتيازهم لسفح جبل الخريج المطلّ على وادي عربة، لاحظ عجلان آثار سيّارة لم يرها من قبل، فوقف وأمال رأسه يتأمّل الأثر، وكان حمزة يسير في المقدّمة، فعندما رأى توقّف جماعته وتلكؤهم حثّهم على السير، ولم يخطر بباله أن عجلان رأى أثراً مثيراً في هذا الظلام، وهم ما زالوا في الأراضي الأردنيّة، فنادى: يا الله يا جماعة. وإذ بالرصاص ينهمر عليهم من نقاط ثلاث على شكل رجل غراب، كان عجلان أقرب إلى النقطة اليسرى، زحف على بطنه إلى أن اقترب من السيّارة المجنّزرة التي تطلق الرصاص، وألقى عليها قنبلة وصلاها بدفعة من رشّاشه، وكان إلى جانبه حسنيّ أبو تايه وحذا حذوه، وحاول بقيّة الأفراد الردّ على مصادر النيران وإسكاتها، ولكنّ المفاجأة كانت مريعة، وما زالت القواذف وقذائفها على الإبل التي هربت بما عليها بمجرّد سماعها للرصاص، وسقط اثنان منها في أماكن متباعدة، وأضاءت المنطقة فوانيس الإضاءة، وأصيب خليف برصاصة في ساقه، ومرّ به زميل له، فقال له خليف: لا تتركني. فأجاب: أتراني نجوت وتركتك ! ثمّ مرّ به حمزة فناشده أن يحمله، فأجابه: اطلق رصاص على هذه السيّارة التي تطلق النار تجاهنا. قال: لم تبق معي ذخيرة. فناوله مخزناً ولقّمه بندقيّته، وخليف يرى أنّ إطلاق النار لا يجدي نفعاً بل يعرّض المطلق للخطر المؤكّد ؛ لأنّ اليهود يتحصّنون في سيّاراتهم المصفّحة، ويردّون على مصادر الرماية برشّاشاتهم الثقيلة، حمل حمزة الجريح على ظهره وحين وصل به إلى الجبل وضعه على سترته وجرّه إلى أسفل، وتفرّق أفراد المجموعة أيدي سبأ، ولم يلتزم أحد بالتوجّه إلى نقطة التجمّع، رجع عليّ إلى مكان الاشتباك في اللّيلة التالية، ولم يجد سوى جثّتي البعيرين، لم يصل إليهما اليهود، ولم يعثر على جثمان الشهيدين عجلان وحسني فقدّر أنّ اليهود جرّوهما للسيّارة، وحملوهما إلى الداخل كشاهد على قتلهم لفدائيّين، فعرّج على مخفر

غرندل، وسأل الجنود عمّا رأوا علّه قد وصل إليهم بعض الجرحى، فأجاب أحدهم: لقد أوصلنا جريحاً منكم إلى مستشفى معان. وأضاف: نحن رأينا تجمّعكم قبل انطلاقكم منذ الضحى، وتعلم أنّ مهمّتنا تنحصر في الاستطلاع والمراقبة، فأخبرنا قيادتنا بواسطة جهاز اللاّسلكيّ أنّ خمسة عشر فدائيّاً يكمنون في وادي بالقرب من جبل الخريج، وهم في طريقهم إلى المنطقة المحتلّة في وادي عربة، فطالبتنا القيادة بمواصلة الاستطلاع، وبموافاتها بما يستجدّ، فأخبرناها بنتيجة الاشتباك. فقال عدنان: ألم تحسبوا أنّ اليهود يتنصّتون على مكالماتكم ؟! فأجاب: نحن نغيّر دائماً الموجات التي نتحدّث عليها، ثمّ إنّنا لا نتكلّم في أسرار عسكريّة، نبلّغ عن أشياء تحدث عياناً.

ـ صدر للمؤلّف :

١ - فنون الأدب والطرب عند قبائل النقب/ دمشق ١٩٨٦
٢ – الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي/ دمشق ١٩٨٨
٣ – قضاء العرف والعادة دمشق ١٩٩١
٤ – بصمة على الرمال (قصص قصيرة)/ دمشق ١٩٩٦
٥ – زوادة الحاضر البادي/ دمشق ١٩٩٨
٦ – شرح وتحقيق ديوان عنيز العرادي/ عمّان ١٩٩٨